ابن العلقمي ودوره السياسي

محمّد عيدان العبادي



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com





محمّد عيدان العبادي

سرشناسه : عبادی، محمد عیدان
عنوان و نام پدیدآور : ابن العلقمي ودوره السياسي / محمد عيدان العبادي
مشخصات نشر : قم: المجمع العالمي لأهل البيت(ع)، ۱۴۲۸ ق، = ۱۳۸۶.
مشخصات ظاهری : ۲۶۶ص، مصور، نمونه.
شابک : 978964529251
وضعیت فهرست نویسی : فیپا
یادداشت : عربی
یادداشت : کتابنامه .
موضوع : ابن عقلمی، محمد بن محمد، ۵۹۱ ـ ۶۵۶ ق.
موضوع : عباسیان -- تاریخ.
موضوع : اسلام و سیاست.
موضوع : کشورهای اسلامی -- سیاست و حکومت -- قرن ۷ ق.
موضوع : مجتهدان و علما -- فعالیت‌های سیاسی.
شناسه افزوده : مجمع جهانی اهل بیت(ع).
رده بندی کنگره : ۳الف۱۷۵ع/۴/DSV۶
رده بندی دیویی : ۹۵۶/۷۰۲
شماره‌کتابشناسی ملی : ۱۱۰۶۵۴۶

اسم الكتاب: ابن العلقمي ودوره السياسي
المؤلف: محمّد عيدان العبادي
الموضوع: تاريخ سياسي، ورجال
الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام
الطبعة: الأُولى
المطبعة: ليلى
الكمية: ۳۰۰۰
تاريخ النشر: ١٤٢٨ هـ

ISBN: 978-964-529-255-1

www.ahl-ul-bayt.org

E-mail: info@ahl-ul-bayt.org

أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم

إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا

سورة الأحزاب/ آية : ٣٣

أهل البيت عليهم السلام
في السنة النبوية

إني تارك فيكم الثقلين
كتاب الله وعترتي أهل بيتي
ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا

« الصحاح والمسانيد »

كلمة المجمع

إنّ تراث أهل البيت عليهم السلام الذي اختزنته مدرستهم وحفظه من الضياع أتباعهم يعبّر عن مدرسة جامعة لشتى فروع المعرفة الإسلامية.

وقد استطاعت هذه المدرسة أن تربّي النفوس المستعدة للاغتراف من هذا المعين، وتقدّم للأُمة الإسلامية كبار العلماء المحتذين لخُطى أهل البيت عليهم السلام الرسالية، مستوعبين إثارات وأسئلة شتى المذاهب والاتجاهات الفكرية من داخل الحاضرة الإسلامية وخارجها، مقدّمين لها أمتن الأجوبة والحلول على مدى القرون المتتالية.

وقد بادر المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام ـ منطلقاً من مسؤولياته الّتي أخذها على عاتقه ـ للدفاع عن حريم الرسالة وحقائقها الّتي ضبّب عليها أرباب الفرق والمذاهب وأصحاب الاتجاهات المناوئة للإسلام، مقتفياً خطى أهل البيت عليهم السلام وأتباع مدرستهم الرشيدة الّتي حرصت في الردّ على التحديات المستمرة، وحاولت أن تبقى على الدوام في خطّ المواجهة وبالمستوى المطلوب في كلّ عصر.

إنّ التجارب الّتي تختزنها كتب علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام في هذا المضمار فريدة في نوعها ؛ لأنّها ذات رصيد علمي يحتكم الى العقل والبرهان ويتجنّب الهوى والتعصب المذموم، ويخاطب العلماء والمفكرين من ذوي الاختصاص خطاباً يستسيغه العقل وتتقبله الفطرة السليمة.

وقد حاول المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام أن يقدم لطلاّب الحقيقة

مرحلة جديدة من هذه التجارب الغنيّة من خلال مجموعة من البحوث والمؤلفات الّتي يقوم بتصنيفها مؤلفون معاصرون من المنتمين لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، أومن الذين أنعم الله عليهم بالإلتحاق بهذه المدرسة الشريفة، فضلاً عن قيام المجمع بنشر وتحقيق ما يتوخى فيه الفائدة من مؤلفات علماء الشيعة الأعلام من القدامى أيضاً لتكون هذه المؤلفات منهلاً عذباً للنفوس الطالبة للحقّ، لتنفتح على الحقائق الّتي تقدّمها مدرسة أهل البيت الرسالية للعالم أجمع، في عصر تتكامل فيه العقول وتتواصل النفوس والأرواح بشكل سريع وفريد.

ونتقدّم بالشكر الجزيل لسماحة الشيخ محمّد عيدان العبادي لتأليفه هذا الكتاب ولكلٍّ الإخوة الذين ساهموا في إخراجه.

وكلّنا أمل ورجاء بأن نكون قد قدّمنا ما استطعنا من جهد أداءً لبعض ما علينا تجاه رسالة ربّنا العظيم الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه وكفى بالله شهيداً.

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

المعاونيّة الثقافية

المقدّمة

حفل عصر الوزير ابن العلقمي بكثير من الأحداث التي تستحق التوقف والدراسة، فكلّ شيء يسترعي الاهتمام من الخلافة وإدارتها الهشة، مروراً بالمجتمع وتفككه، إلى الأوضاع الاقتصادية السيئة، وحتى الأخطار التي تحيط بتلك البلاد الإسلامية الواسعة، والتي لسوء طالعها أن أصبحت في يدٍ جذاء لا تقوى على إدارتها، أو الدفاع عن خلافاتهم.

وفوق كل هذا وذاك أخذت تتحكم الخلافات بأركان الدولة ضد بعضهم، وأشركوا المجتمع في خلافاتهم.

وتكاثرت التهم والشائعات فيما بينهم، واستوت الحقيقة مع الوهم؛ فيما يبدو الوزير ابن العلقمي في خضم تلك الخلافات محوراً يُلقون عليه ما شاؤا أن يبدوه من حبّ أو بغض؛ وسنحاول جهد الإمكان تسليط الضوء على فصول تلك الأحداث وما يعتريها من غموض.

والذي بعث على كتابة هذا الموضوع هو مطالعتنا للأوضاع التي ساعدت على سقوط بغداد حيث لاحظنا أنّ هناك تقاطعاً بين أقوال المؤرخين في

موقفهم من الوزير ابن العلقمي، فنجدهم في الوقت الذي يقولون بخبرة ابن العلقمي وتدبيره وعلمه وفضله؛ ينقلبون إلى ذمّه بعبارات التجريح المختلفة.

إنّ هذا التذبذب في التقييم يضع في البين أكثر من استفهام، ويزيد من رغبتنا على استشراف الحقيقة الضائعة في ظل الكم المكرر مما قيل حول ابن العلقمي قبل وبعد سقوط بغداد.

ضرورة وأهمية الموضوع:

كان الوزير ابن العلقمي قد شغل منصباً مهماً وحساساً في الخلافة العباسية، حيث تدلّى إليه هذا المنصب لأهليته وخبرته بأُمور الملك؛ غير أن ابن العلقمي تعرّض لشتى التهم، ووضعت حول شخصيته أسئلة كبيرة من قبيل غلوه وتطرفه المذهبي، أو استفراده بأُمور الملك والخلافة، أو أنّه كان على اتصال بالمغول.

ولهذا أصبح البحث والفحص حول شخصية الوزير ابن العلقمي له أهمية خاصة في التاريخ.

كما أنّ الموضوع له علاقة مباشرة بالعراق في العصر العباسي الأخير، واعتقد أنّ بحث هذه الزاوية في تاريخ العراق يحظى بحاجة ماسة لملء الفراغ في هذا الجانب.

ثم إنّ هناك تشابهاً من وجه بين الأحداث في عصر ابن العلقمي، وبين الوقائع في عصرنا الحاضر؛ وذلك من خلال وجود محتل طامع في خيرات

البلاد ويملك قدرة عسكرية كبيرة، وأمام المتصدّين في كلا الزمانين سبل وبدائل في طبيعة التصدي له الأمر الذي يتطلّب معرفة التاريخ في العصر العباسي عند نهايته والاستفادة منه في ظل الظروف الحالية.

بيان الموضوع:

العنوان الذي يقف على بوّابة الكتاب هو« ابن العلقمي ودوره السياسي» وهذا العنوان يتطرّق لذكر الأوضاع المختلفة التي عاشها ابن العلقمي، ويستنطق الظروف التي عاصرها وخاصة تلك التي تتعلق بالجانب السياسي. وبعبارة أُخرى أن الحدود الزمانية للبحث تتناول الفترة التي عاش فيها ابن العلقمي والتي تناهز ثلاثاً وستين عاماً من سنة ٥٩١ هـ إلى سنة ٦٥٦ هـ ويركز الموضوع على الفترة التي تولّى فيها ابن العلقمي المناصب الإدارية في الخلافة العباسية، كما أننا لم نهمل الأوضاع التي كانت عليها البلاد الإسلامية، وطبيعية المخاطر التي كانت تحيط بالأمة آنذاك لأن لها نوع صلة بالخلافة وأجهزتها.

أما الحدود المكانية للموضوع فتتركز على جغرافية بغداد وما يحاذيها من المناطق أو الأمصار التابعة لها من أجل الإحاطة بالأوضاع ومتابعتها وصلتها بالإدارة العباسية.

ونبتغي من وراء الموضوع الأهداف التالية:

١ـ إزالة الأوهام التاريخية التي اكتنفت بعض الأحداث والشخصيات.

٢ـ إبراز الصورة الواقعية أو التي تقترب من الواقع في الحكم على شخصية ابن العلقمي وغيره.

٣ـ الفحص والبحث عن التهمة التي أُلصقت بالشيعة في أنهم تآمروا وابن العلقمي مع المغول ضد الخلافة العباسية.

٤ـ دعوة المنصفين لاتخاذ موقف حازم أمام الادعاءات التاريخية حول شخصية الوزير ابن العلقمي.

وهناك أسئلة وفرضيات حول الموضوع وهي:

يحتوي الكتاب على عدد من الأسئلة الأصلية والفرعية، وهي كالتالي:

ما هو الدور الذي قام به الوزير ابن العلقمي في مواجهة المشكلات الاجتماعية ؟

هل كان ابن العلقمي ذا خبرة سياسية وظّفها لخدمة الخلافة العباسية؟

ما هو الدور الذي لعبه ابن العلقمي في مواجهة الغزو المغولي ؟

ما هي الخصوصيات الاجتماعية لعصر ابن العلقمي ؟

ما هي الخطوات التي قام بها الخليفة وأركان دولته في مواجهة الغزو المغولي ؟

أما الفرضيات التي يراد إبرازها في هذا الموضوع، فهي:

الفرضية الأُولى: كان لابن العلقمي دور إيجابي في الحياة الاجتماعية لعصره، ويمكن إيجازه بانتهاجه الاعتدال والتهدئة والاتزان على عكس خصومه من أمثال الدويدار وابن الخليفة حيث كانوا يثيرون الفتن، ويديرون الأزمات.

الفرضية الثانية: الوزير ابن العلقمي كان رجلاً سياسياً من الطراز الأوّل وكان يدير الأُمور بحنكة ودراية، وبعيداً عن منافعه الشخصية، ولذا حافظ على منصبه كوزير إلى اللحظات الأخيرة، وكان موضع اطمئنان الخليفة.

الفرضية الثالثة: لم يقم الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي بأي مؤامرة على الإسلام.

الفرضية الرابعة: الأحكام التي صدرت بحقّ ابن العلقمي بعد احتلال بغداد هي امتداد للتهم التي أُلصقت به قبل سقوط بغداد.

الفرضية الخامسة: الخليفة وأركان دولته من ملوك الأمصار كانوا دون مستوى المسؤولية الخطيرة، وكان الأحرى بهم أن يشفقوا من حملها.

وقد واجهتنا بعض الصعوبات في أثناء جمع المعلومات المتعلقة بالموضوع، منها قلة المصادر التي تغني الدارس المتخصص، وقد حاولنا تذليل هذه الصعوبة بالاستعانة بالحاسوب الآلي (الكامبيوتر Computer) وعبر الانترنيت (Internet) إلا أن ذلك لم يكن إلا كقطرة ماء بلّت شفاه الظمآن دون ما يتوق له من إناء كبير من الماء.

وصادفتنا مشكلة أُخرى وهي أنّ عرض الأحداث في الكتب التأريخية قد أسقط كثير من الحلقات المهمة والتي لها صلة بموضوع الحادثة من قبيل الأحداث الاجتماعية وعلاقات الناس ببعضهم، ونوع الأحاديث التي يتبادلونها، وطبيعة الانتقال من منطقة إلى أُخرى، أو تحديد هوية الأشخاص الذين اشتركوا في عمليات الهجوم على الشيعة، وعدد القتلى من الجانبين و..و..الخ. وهذه الأحداث أُشير إليها بصورة كلية ومكررة، كما أنّ الأوضاع السياسية والإدارية تفتقر إلى تفصيلات أهملها المؤرخون فليس من المعقول أن يمارس الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي مسؤوليات إدارية مختلفة وفي مدة تزيد على ثلاثة عقود زمنية ولا يتحدثون عنه إلا في أحداث متفرقة هنا وهناك، ويركزون الحديث عنه عندما يذكرون ابن العلقمي في فترة سقوط بغداد ولا يخرجون من دائرة التكرار للألفاظ، أو الانتقال إلى رحبة أوسع من الأخبار التي تشكل صورة واضحة عنه.

كما أنّ هناك صعوبة أُخرى وهي أنّ الأخبار المتشابهة التي درج على توثيقها المؤرخون بعضهم من بعض فيها نوع من الجمود، وحاولنا كسره من خلال مطالعة الكتب ذات الاختصاص، ففي الأوضاع الاقتصادية وجدنا أننا أمام أخبار كثيرة إلا أنها تتحدث بطريقة واحدة في التعرّض إلى الأمطار والفيضانات مثلاً، دون الحديث عن الخطوات التي يقوم بها الناس، وسائر أركان الدولة وتفصيلات ذلك في تحركاتهم على بعضهم، والحلول التي يقترحونها أو يقدّمونها، ويكتفون في أساطيرهم التاريخية بالإشارة والوصف ومن أجل الخروج من نفق الوصف النسبي للأحداث أخذنا نراجع الكتب

المتعلقة بالاقتصاد إذا كانت الأحداث اقتصادية، أو مطالعة الكتب السياسية فيما اذا كانت الوقائع سياسية، للانتقال إلى حيز أوسع في تصوير الأحداث الماضية.

لقد التزمنا المنهج التحليلي في عرض الأحداث، وصبغنا بعض المطالب بالوصف، كما إننا تتبعنا الأحداث من أجل الابتعاد عن الارتجال في الحكم على الوقائع التاريخية، وحاولنا مسائلة الأحداث، واستحلاب المعنى منها لإزالة الغبرة عن وجه الحقيقة، ولتبرز صافية مصقولة لها بريقها كأنوار الشمس المتكسرة على سطح الأنهار.

استفدنا من عدد من المصادر في كتابة الموضوع وهي:

أ ـ المصادر التأريخية: هي على نوعين، المصادر الأولية، والمصادر الثانوية:

أوّلاً: المصادر التأريخية الأوّلية: وهذه المصادر كتبت في القرن السابع أو الثامن الهجري، وتُعتبر قريبة من الأحداث، وأغلب المصادر التي كتبت بعد القرن الثامن الهجري اقتبست من هذه المصادر.

وفيما يلي نورد وبشكل إجمالي بعض المصادر التأريخية الأولية:

١ ـ علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد بن محمد الجويني (ت ٦٥٨ هـ) في كتابه «تاريخ جهانگشای، تصحيح العلامة محمد القزويني» يحتوي كتابه على معلومات مفيدة في خصوص العصر العباسي الأخير.

٢ـ العلامة غريغوريوس الملِطي المعروف بابن العبري (ت ٦٨٥ هـ) في كتابه «تاريخ مختصر الدول» والذي كتب معلومات مفصلة عن سقوط بغداد، وعلى أيدي المغول.

٣ـ ابن أبي الحديد المدائني المعتزلي (ت ٦٥٦ هـ) في كتابه «شرح نهج البلاغة»، دار إحياء الكتب العربية، حيث ذكر تقدم القوات المغولية نحو بغداد (سنة ٦٤٣ هـ)، وأشار إلى دور الوزير ابن العلقمي في التصدي لهم.

٤ـ شهاب الدين محمد الخرندزي الزيدري النسوي في كتابه « سيرة جلال الدين مينكبرنى، تصحيح وتعليق مجتبى مينوي ». يقع الكتاب في حدود أربعمائة صفحة، وقد ذكر تفصيلات كثيرة عن علاقة الخوارزميين بالخلافة، وعن نشأة التتار وفتوحاتهم، وجدير بالذكر أنّ المعلومات التي أوردها النسوي تحظى باهتمام المؤرخين لأنه كان كاتب جلال الدين بن السلطان محمد خوارزمشاه لمدة تتراوح من ٦ـ ٧ سنين.

٥ـ أبو الفضل عبد الرزاق بن الفُوطَي (٦٤٢هـ ـ ٧٢٣هـ) في كتابه «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة»، دار الفكر، تضمّن تصنيفه كثيراً من حوادث القرن السابع الهجري كالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

٦ـ رشيد الدين فضل الله الهمداني (ت ٧١٨ هـ) في كتابه «جامع التواريخ، تصحيح وتعليق محمد روشن ومصطفى موسوي، البرز»، كتب باللغة الفارسية ويحتوي الجزء الثاني منه على قصة سقوط بغداد على يد

هولاكو بتفصيلات مفيدة، وفيه حكايات كثيرة عن الزعماء المغول والأُمراء المسلمين.

٧ـ غياث الدين بن همام الدين المشهور بـ (خواند مير) في كتابه «تاريخ حبيب السير في أخبار أفراد البشر، كتبت مقدمته بقلم جلال الدين همائي»، مكتبة الخيام، يأتي إلى ذكر المستعصم بالله والعلماء المعاصرين له وذلك في الجزء الثاني من كتابه، كما أنّه يبيّن كيفية انهدام أساس الخلافة العباسية.

٨ـ محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي(٦٦٠ هـ ـ ٧٠٩ هـ) في كتابه «الفخري في الآداب السلطانية»، منشورات الشريف الرضي، جاء فيه معلومات شخصية عن الوزير ابن العلقمي بالإضافة إلى الخليفة وبعض أعيان الدولة وقدّم معلومات مفيدة عن تلك الفترة.

٩ـ حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر المُستوفي القزويني (ت ٧٣٠هـ) في كتابه «تاريخ گُزيده»، مؤسسة أمير كبير، في هذا الكتاب يوجد قسم يرتبط بالعراق ويذكر فيه كيفية توجه هولاكو إلى بغداد.

١٠ـ الملك الأشرف إسماعيل الغساني (٧٦١ هـ ـ ٨٠٣ هـ) في كتابه «العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم»، دار التراث الإسلامي ، يعتبر أحد المصادر المهمة التي يمكن الاستناد إليها في الحديث عن العصر العباسي الأخير،

ومعلوماته تقترب كثيراً من الأحداث التي أوردها ابن الفوطي في حوادثه الجامعة.

١١ـ قطب الدين اليونيني البعلبكي (ت ٧٢٦ هـ) في كتابه«ذيل مرآة الزمان»، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، احتوى الكتاب على معلومات مفيدة عن الفترة الأخيرة للعصر العباسي كحال الجند والخلافات الطائفية وأُمراء الأمصار، ومكانة الوزير، السياسية والاجتماعية، وتقدّم الجيش المغولي، وغير ذلك.

١٢ـ محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ) في كتابه« عيون التواريخ»، إصدار دار الرشيد، بغداد، في كتابه معلومات جيدة عن العصر العباسي الأخير.

بالإضافة إلى مصادر تأريخية أخرى مثل كتاب تاريخ ابن الوردي (ت ٧٤٩ هـ)، وكتب الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) « دول الإسلام ـ تاريخ الإسلام ـ سير أعلام النبلاء ـ العبر في خبر من غبر » وغيرها.

ثانياً- المصادر التأريخية الثانوية: وهذه المصادر كتبت بعد قرنين أو أكثر من حادثة سقوط بغداد، وهي تستقي معلوماتها من المصادر الأُم التي عاصرت الأحداث، أو كانت قريبة منها.

وفيما يأتي نذكر إجمالاً بعض تلك المصادر:

١ـ جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) في كتابه « تاريخ الخلفاء، تحقيق

إبراهيم صالح»، دار صادر » فقد ذكر أخبار الخليفة المستعصم، ودخول التتار إلى بغداد وغير ذلك من الأحداث.

٢ـ الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري (ت ٩٩٠ هـ) في كتابه « تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس»، دار صادر، دوّن في مؤلفه المذكور أحداثاً كثيرة اقتصادية واجتماعية أو سياسية تتعلق بالعصر العباسي الأخير، إلا أنّ معلوماته لا تخرج عن أنها تكرار لما أورده المؤرخون السابقون في كتبهم.

٣ـ أحمد بن يوسف القَرَماني(٩٣٩ هـ - ١٠١٩ هـ) في كتابه «أخبار الدول وآثار الأول في التأريخ، تحقيق الدكتور أحمد حطيط»، عالم الكتب، أورد في مصنفه معلومات لا بأس بها عن العصر العباسي الأخير.

٤ـ أبو الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) في كتابه «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، دار الفكر، حيث يذكر أحداث العصر العباسي الأخير بطريقة مقتضبة وحسب تسلسلها الزماني جرياً على الطريقة التي سار عليها كثير من المؤرخين.

ب- **الكتب الرجالية:** وهذه تطرّقت إلى الأحوال التي كان عليها وجوه الناس، أو أركان الخلافة العباسية في عصرها الأخير، وفيها إضاءات وقبسات عن الأوضاع الاجتماعية أو السياسية أو العلمية وغيرها، كما تناول بعضها ذكراً مختصراً بالخصوص لحياة الوزير ابن العلقمي ومن هذه

الكتب مايلي:

١ـ تاريخ الحافظ أبي عبد الله ابن الدبيثي (ت ٦٣٧ هـ أو ٦٤٠ هـ) حيث اختصره العلامة شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، دار الكتب العلمية. احتوى كتاب ابن الدبيثي على معلومات كثيرة عن العلماء وإجازاتهم ومشايخهم ومحال بغداد، وبعض الأصناف المهنية التي يزاولها الناس آنذاك.

٢ـ أبو عبد الله بن محمود بن الحسن المعروف بابن النجار (ت ٦٤٣ هـ)، في كتابه «ذيل تاريخ بغداد أو مدينة السلام»، دار الكتب العلمية، فيه معلومات قيمة عن بغداد وأحوالها وعلمائها، ومحالها السكنية، والأصناف المهنية والتجارية.

٣ـ محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ) في كتابه « فوات الوفيات » يتحدث عن الأوضاع في بغداد ويركز في حديثه على الوزير ابن العلقمي في أثناء سقوط بغداد وظروفها.

٤ـ صلاح الدين ايبك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) في مصنفه « الوافي بالوفيات»، إصدار فرانز شتايز، ألمانيا، يوجد في هذا الكتاب ترجمة للخليفة المستعصم باللّه ولبعض الشخصيات من قبيل ابن العلقمي والشرابي والدويدار.

٥ـ تاج الدين السُبكي (ت ٧٧١ هـ) في كتابه « طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمّد الطناحي » وفيه ترجمة للخليفة المستنصر

والمستعصم والوزير ابن العلقمي، كما أنه يتعرض لذكر هولاكو وخروجه نحو البلاد الإسلامية.

٦ـ محمد محسن الشهير بالشيخ آقا بزرك الطهراني في كتابه « الذريعة إلى تصانيف الشيعة»، مؤسسة إسماعيليان، في مصنفه معلومات مفيدة عن اهتمام ابن العلقمي بالعلم وحثه العلماء على كتابة بعض المؤلفات كما هو في شرح حال ابن أبي الحديد المعتزلي.

٧ـ خير الدين الزركلي في كتابه « الأعلام»، دار العلم للملايين، قدّم ترجمة لابن العلقمي، وأعطى معلومات عنه لا تقل أهمية عما هو موجود في كتب الرجال.

ج ـ الرحلات:

١ـ أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير في رحلته المشهورة« رحلة أبن جبير»، دار ومكتبة الهلال ، هذه الرحلة قام بها ابن جبير في فترة قريبة من نشأة ابن العلقمي الأولى، وفيها معلومات جيدة عن البلاد التي زارها، وعن الأوضاع الاجتماعية القريبة من تلك الفترة.

٢ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي ابن بطوطة المغربي المتوفى أوائل القرن الثامن الهجري في رحلته المسماة « رحلة ابن بطوطة » معلومات جيدة عن تلك الفترة، وعن جغرافية البلاد الإسلامية.

٣ـ رحلات ماركوبولو، الذي زار بغداد بعد نصف قرن من احتلالها من

قبل المغول فروى حادثة سقوط بغداد كما سمعها من الناس آنذاك، ووصف بغداد وأنهارها وتجارتها.

٤ـ يمكن الاستفادة من كتاب معجم البلدان؛ لياقوت الحموي في كتابه الجغرافي، والذي هو ثمرة لرحلاته المتعددة في البلاد الإسلامية وغيرها.

وتعد الكتابة عن الوزير الشيعي ابن العلقمي من المواضيع المثيرة للجدل بين المؤرخين. فقد كتب عدد من الباحثين في جانب من الموضوع، وسلّطوا الضوء على أحداث مهمة في ذلك العصر، في كتبهم التالية:

١ـ تاريخ العراق بين احتلالين للمحامي عباس العزاوي، منشورات الشريف الرضي، في هذا الكتاب تناول كيفية تنظيم إدارة بغداد والتشكيلات الإدارية فيها سواء في زمن العباسيين أو في زمن المغول كما تناول حادثة سقوط بغداد.

٢ـ تاريخ فتوحات مغول لمؤلفه، ج. ج. ساندرز، أمير كبير، وكتابه يقع في حدود (٣٢٠) صفحة يحتوي على معلومات جيدة عن المغول، وأُصولهم الاجتماعية، ودياناتهم بالإضافة إلى قدرتهم العسكرية، وتقدمهم نحو البلاد الإسلامية ووصولهم إلى بغداد.

٣ـ سقوط بغداد وحكمروايي مغولان در عراق: بَي ـ نَن رشيدوو، مؤسسه قدس رضوي يقع الكتاب في حدود (٣٠٠) صفحة ويتحدث فيه مؤلفه عن الموقع السياسي للعباسيين والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، كما أنه يتحدث عن سقوط بغداد، ويعطي وصفاً دقيقاً لبعض مناطق بغداد، إلا

أنه أخطأ النقل، أو التحديد لبعض المناطق، كما سنشير إلى ذلك في موضعه ـ إن شاء الله تعالى ـ.

٤ـ جنگيزخان: هارلد لمب، (مؤسسه أمير كبير)، ويقع الكتاب في (٢٤٠) صفحة يتناول حياة جنكيزخان والياسا، ومجمع كبار المغول، وخطط المغول الحربية وحملاتهم باتجاه الغرب الإسلامي.

٥ـ دائرة معارف بزرگ إسلامى: إشراف سيد محمد كاظم موسوي بجنوردي، وزارت فرهنگ وإرشاد إسلامي. في هذه الموسوعة المعرفية تم تناول أجزاء من حياة ابن العلقمي وبشكل مختصر نقلاً عن مصادر متعددة تربو على ثلاثين مصدراً.

٦- دائرة المعارف الإسلامية: مجموعة من المستشرقين، أعطوا تعريفاً موجزاً عن ابن العلقمي.

٧ـ الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير: الدكتور محمد صالح داود القزاز، مطبعة القضاء، هذا الكتاب تناول الحياة السياسية بشيء من التفصيل للفترة من سنة (٥١٢ هـ إلى سنة ٦٥٦ هـ)..

وفيه معلومات جديرة بالاهتمام كما أنه يستنطق الواقع بروح موضوعية.

٨ـ تاريخ الإسلام: الدكتور حسن إبراهيم حسن حيث تناول الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للعباسيين كما تناول سقوط بغداد والعوامل التي ساعدت على ذلك.

٩ـ الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي: حسن الأمين، مركز الغدير، وقد تصدى فيه المصنف للرد على ما أشيع حول ابن العلقمي، ونظيره الخواجة الطوسي وغلب على كتابه طابع العاطفة الدينية التي تميل لنصرة معتنقيها إلا أنّ من الإنصاف أن نشير إلى أنه رد تلك التهم بالدليل أيضاً.

١٠ـ الغزو المغولي: حسن الأمين، دار التعارف. وقد تناول الكتاب تحركات المغول وإجراءات الخلافة كما تصدّى أيضاً للشبهات التي أُثيرت حول الوزير ابن العلقمي.

١١ـ امبراطوري مغول وإيران دوران جنكيزخان وجانشينان او: دكتر إبراهيم تيموري، دانشكاه تهران. قدّم الدكتور تيموري معلومات دقيقة حول الجيش المغولي وقادته كما أنّه صنّف تلك المعلومات التي وردت في كتب التأريخ عن المغول بعناوين جذّابة ومفصلة، وتناول كتابه أيضاً أحداث سقوط بغداد.

١٢ـ مغولان وحكومت ايلخاني در إيران: دكتر شيرين بياني، سمت. تناول كتابها معلومات قـيّمة حول أُصول المغول الاجتماعية وقبائلهم ودياناتهم وقادتهم، كما أنها عطفت حديثها عن الخلافة العباسية ومدى نفوذها على الأمصار الإسلامية، وأيضاً تناولت حادثة سقوط بغداد.

وهناك مراجع ودراسات أُخرى حول الموضوع بالإضافة إلى الرسائل الجامعية المتخصصة بهذا الشأن نظير رسالة الماجستير للأُستاذ محمد رضا

باراني والتي تحمل عنوان « شيعة در عصر إيلخانان »[١]. ورسالة الماجستير للشيخ جعفر العالي والتي تحمل عنوان « ابن العلقمي وسقوط بغداد »[٢].

ويتضمن الكتاب؛ مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، وهي التالية:

الفصل الأوّل: ويتكفّل ببيان الأوضاع الاجتماعية لبغداد في عصر ابن العلقمي كالنسبة الإحصائية للسكان، وعدد المحلات في بغداد، والعادات والتقاليد فيها كالأفراح والأحزان، والألبسة، والتركيبة الاجتماعية حسب التنوع العرقي أو المذهبي، والعلاقات بين الطوائف المختلفة، والدور الذي قام به ابن العلقمي في سلوكه الاجتماعي المعتدل وما شاكل ذلك.

الفصل الثاني: ويتناول الأوضاع الاقتصادية في عصر ابن العلقمي، وتعرّضنا فيه إلى ذكر أنواع وأصناف المهن، والأسواق في بغداد، وتأثير العوامل المناخية والطبيعية من قبيل الأمطار الكثيرة، فيضانات الأنهار، الرياح والعواصف الشديدة كما ذكرنا دور الوزير وأدائه الإداري أثناء تلك الحوادث، وارتفاع درجات الحرارة، والأسعار والعملات النقدية، والمواد الغذائية التي كانت شائعة إلى بيان دور الدولة في الاقتصاد، والتبادل التجاري للسلع والبضائع في داخل بلدان الخلافة، ومع الدول الأخرى.

الفصل الثالث: سلّطنا فيه الضوء على الأوضاع السياسية والإدارية في

---

١ ـ تم مناقشة الرسالة في مؤسسة تحقيق الإمام الخميني « قدس سره ».

٢ ـ تم مناقشة الرسالة في المدرسة العليا للفقه والأصول « الحجتية ».

عصر ابن العلقمي بتوضيح الحدود الجغرافية لبلدان الخلافة وأمصارها التابعة لها، وبيان المناصب والتراتيب الإدارية في الخلافة العباسية، ومكانة الوزير ابن العلقمي في تلك التراتيب، وبعض الشخصيات المهمة في الخلافة العباسية، ودور الخليفة في اتخاذ القرارات، وتدابير الوزير في التنسيق بين أجهزة الخلافة. وتناولنا العلاقات الخارجية.

الفصل الرابع: والذي يحمل عنوان المغول وبغداد فقد أخذ على عاتقه بيان هوية المغول الجغرافية وجذورهم الاجتماعية وديانتهم وسلاطينهم وأُمراءهم وتحركاتهم ونظمهم العسكرية، ثم تطرقنا إلى بغداد وجيشها وتدابيرها، وكيفية سقوطها على أيدي المغول.

الفصل الخامس: حمل عنوان « ابن العلقمي والمؤرخون » حيث تعرّضنا للشبهات التي تحوم حول شخصية ابن العلقمي والرد عليها، كما ذكرنا أقوال المؤرخين القدماء والمعاصرين وتضارب أقوالهم فيه بين المدح والقدح والتحفظ.

وتنتهي فصول الكتاب بخاتمة فيها خلاصة ما عرضناه في طيات الكتاب، وأظهرنا فيها نتائج ما توصلنا إليه، وما أردنا إثباته، وبعد ذلك أرفقنا الخاتمة بملحق تصويري وجغرافي لبعض الوثائق التأريخية لذلك العصر، ثم يأتي ثبت المصادر والمراجع ليقفل الكتاب أبوابه بذلك.



الفصل الأوّل

الأوضاع الاجتماعية في بغداد
في
عصر الوزير ابن العلقمي



الأوضاع الاجتماعية في بغداد في عصر الوزير ابن العلقمي

في مدة تربو على خمسة قرون، تعاقبت أجيال كثيرة على مدينة بغداد، وتطاول عمرها إلى ما بعد سقوط الخلافة العباسية ليمتد إلى يوم الناس المشهود. وخلال هذه الفترة المديدة، تقلّبت فيها الأحوال فتارة إلى الازدهار، وأخرى إلى حافة الانهيار، وذلك تبعاً لمن يتولون شؤونها وتدبيرها. وما يهمنا من عصورها عصرها الذي حفها بالمخاطر فوقعت فريسة الفتن والصراعات الداخلية، ومن ثم أسيرة بيد المغول في سنة (٦٥٦هـ) وفيما يلي نتناول مفردات بغداد الاجتماعية التي تعاضدت في تكوين صورتها:

المطلب الأوّل: جغرافية بغداد المساحية والسكانية

هناك تقديرات لمساحة بغداد في عصرها الأوّل حيث بلغت بغداد أقصى عمرانها في أيام المأمون، حتى امتدت أبنيتها وبساتينها إلى نحو ١٦٠٠٠ فدان[1] وهناك تقدير آخر لمساحة بغداد يسوقه لسترنج وهو ٣٠٠٠٠ هكتار

---

١ - شجرة الدر: جرجي زيدان، ص ٩١.

وهذا التقدير لا يقبله پي‌نن ويعتبره خطأ محضاً [١]، حيث يرى أن المعدل المتوسط لكل هكتار مضروباً في ١٠٠ نفر، وهو ما يؤدي في نهاية المطاف إلى رقم كبير لإمبراطورية يبلغ تعداد ساكنيها عشرين مليون نسمة.

أما المفكر لَسْيز فقد قام بمقارنة التجمع السكاني لبغداد بالأعداد السكانية للقسطنطينية [٢] وأياً كانت المساحة فإنه يمكن الوصول إلى أرقام تقريبية عن المساحة، أو الحدود المحلية والإحصاء السكاني لها، ومن تلك القرائن عدد الحمامات حيث بلغ أكثر من ألفين حمام [٣]، أو كما يقول صاحب تاريخ العرب في القرون الوسطى «فكان في جانبي بغداد عشرة آلاف حمام»[٤] وعلى فرض سعة كل حمام لعدد يتراوح لعشرة أشخاص على اقل التقادير فإن ذلك يعكس حجم الكثافة السكانية، ومن القرائن أيضاً عدد محلاتها حيث أحصى ابن جبير سبعة عشر محلة شاهدها في جانبها الشرقي فضلاً عن تلك التي لم تسنح له الفرصة لمشاهدتها كما أن هناك أعداداً كثيرة من المساجد واسعة المساحة. ومهما يكن فإن هناك تخمينات قريبة إلى الواقع في أنّ عدد سكان بغداد في العهد الأخير هو مليوني نفر [٥].

---

١ - سقوط بغداد: پی نن رشیدوو، ص ٣٥، ترجمة دكتر أسد اللّٰه آزاد.

٢ - المصدر نفسه: ص ٣٥.

٣ - رحلة ابن جبير: ص ١٧٩

٤ - تاريخ العرب في القرون الوسطى: الدكتور ناجي معروف: ص ٢٠٥.

٥ - سقوط بغداد: ص ٤٥.

المطلب الثاني: محلات بغداد السكنية

هناك مناطق كثيرة تتخللها الطرق والدروب، وقد وصف جرجي زيدان تلك المناطق السكنية بأنّها «قد كانت مُدناً متلاصقة»[١] تعبيراً عن حجمها الكبير.

وفي بدء نشوء بغداد كانت المدينة مستديرة وأكثر عمارتها واقعة في الجانب الغربي. أما في عصر العباسيين الأخير (فقد تبدل حالها وانتقلت أكثر عمارتها إلى الجانب الشرقي)[٢] وأهم محلاتها القرية وهي أكبرها، والمريعة وتقع على دجلة قريبة من الجسر، والكرخ، وهى مدينة مسورة، ومحلة باب البصرة، ومحلة الشارع [٣]. ونقل ابن النجار[٤] في تاريخه في مناسبات وأحداث متنوعة عدد من المناطق البغدادية الكثيرة مثل منطقة باب الأزج، منطقة سوق السلطان، منطقة دار القز، منطقة باب المراتب، باب النوبي، خان الصفة، محلة باب الطاق، محلة المختارة، محلة الظفرية، رباط شيخ الشيوخ، محلة المأمونية كما أن ابن الدبيثي هو الآخر نقل في تاريخه، بعض المحلات البغدادية التي يسكنها العلماء أو أعيان الناس وفي المناطق

---

١ - شجرة الدر: ص ٩١.

٢ - المصدر نفسه: ص ٩١.

٣ - رحلة ابن جبير: ص١٨٠.

٤ - معاصر لابن العلقمي حيث إنه مولود في سنة (٥٧٨هـ).

التي ذكرها: رباط النيسابوري باب الأزج وذكر ابن النجار بعض المناطق مثل محلة دار القز، باب حرب، الحريم الطاهري، مدينة المنصور، مشرعة الصياغين الخاتونية، باب أبرز، محلة نهر القلائين [١] محلة الحربية[٢]، محلة قطفتا، الشيخ، والجنبشية التابعة للأوقاف انظر ملحق الخرائط الشكل (١ ، ٢).

هذه المناطق تشير إلى حجم الكثافة السكانية، الأمر الذي يزيد من حجم المشكلات السكانية والاجتماعية من قبيل السكن والأجرة، ولا بد أن تكون هناك أسباب دعت إلى هذا التمركز السكاني ومن جملتها كون بغداد كانت مركزاً سياسياً وعلمياً وتجارياً فجذبت إليها الناس من كل حدب وصوب.

المطلب الثالث: أربطة ودروب بغداد

هناك أربطة يستوطنها القادمون إلى بغداد وهي أشبه بدار الضيوف وغالباً ما يرتادها الصوفية، ومن أهمها رباط النيشابوري[٣] ، رباط شيخ الشيوخ، الرباط المستنصري بدار الروم عند الرصافة، ورباط الكاتبة برحبة الجامع، ورباط العميد بالجانب الغربي من بغداد، ورباط الخلاطية، ورباط ابن

---

١ - محلة كبيرة ببغداد، معجم البلدان، ج٨ ص٣٤٤.

٢- انظر ذيل تاريخ بغداد: ص ١٢٤ـ ١٥٨.

٣- تاريخ الحافظ ابن الدبيثي: ص١٢١.

جهير[1] على دجله، ورباط المستجد الذي أمرت أم الخليفة المستعصم[2]، إن هذه الأربطة وغيره تشير إلى الصنوف الاجتماعية التي تقطن بغداد، كما أنها تعبر عن ظاهرة اجتماعية ولدت وتبلورت في ذلك العصر.

أما أهم الدروب في بغداد فهي: درب الدواب، درب نصير، درب البصريين، وهناك شوارع وطرق فيها مثل: شارع الظفرية، وطريق مكة، وطريق الشام، وطريق الكوفة، وطريق خراسان (انظر ملحق الصور الشكل ١).

ومن هنا يلاحظ كثرة المحلات والمناطق السكنية فيها، إنَ هذه الدروب هي منافذ الحركة الاجتماعية حيث ينتقل الناس من منطقة إلى أُخرى، فيلتقي بعضهم ببعض، أو ينحدرون منها إلى مقاصدهم في بغداد، أو خارجها.

المطلب الرابع: المقابر والمشاهد في بغداد

ذكر المؤرخون بعض المقابر والمشاهد التي كانت في بغداد فمن المشاهد مشهد الإمام موسى بن جعفر الكاظم والإمام الجواد (عليهما

١- المصدر السابق: ص١١٤.

٢- تاريخ الحافظ ابن الدبيثي: ص١٢٨.

السلام)، كما ذكروا مشهد أبو حنيفة النعمان، ومشهد حامل الراية في باب الأزج[١] ، وذكروا أيضاً مقابر كما هي بالنسبة إلى مقابر قريش التي يدفن فيها بني العباس[٢] (انظر ملحق الصورالشكل ٢).

كما تعرضوا لذكر قبر السهروردي الذي قتل في عصر ابن العلقمي (انظر ملحق الصور الشكل٣). ورباط الزوزني المجاور لجامع المنصور، ورباط الذهب بعقد المصطنع[٣] كما أن هناك ملاحظة وهي أن الموتى كانوا يدفنون إما في المساجد، أو قريب من المشاهد المشرفة، أو في بيوتهم، أو المدارس الدينية، أو المقابر التي كانت موجودة آنذاك والتي من أهمها: مقبرة المارستان العضدي[٤] ومقبرة جامع المنصور[٥] مقبرة باب حرب[٦] مقبرة الشونيزية[٧] ومقبرة دار سوسيان[٨] ومقبرة الخلال[٩] كما أنّ هناك مراتب وعقد تذكر للمقابر كما هو في مقبرة باب المراتب وعقد ابن عرب[١٠] وأيضاً يوجد في داخل المقابر أماكن خاصة للشهداء كما هو في

١- تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار، الدكتور بدر محمد فهد، ص ١١٢.

٢- انظر رحلة ابن بطوطة: ص٢٣٨_ ٢٣٩.

٣- كتاب الحوادث الجامعة، ص ١٤٧.

٤ - ذيل تاريخ بغداد: أبو عبد اللّٰه محمد بن النجار (ت ٦٤٣هـ)، ج ١ ص ١٢٦.

٥ - المصدر نفسه: ج ١ ص ١٢٩.

٦ - المصدر نفسه: ج ١ ص ١٢٨.

٧ - المصدر نفسه: ج ١ ص ١٦٣.

٨ - العباسيون بعد احتلال بغداد: محفوظ العباسي، ص ٥٣، دار الشؤون الثقافية العامة

٩ - الحوادث الجامعة ص ١٣٦.

١٠ - تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار: ص ١١٢.

مقبرة باب حرب[١] وجود مثل هذه المقابر العديدة نابع من وجود تقاليد وأعراف وأديان متنوعة، وكل يعمل في دفن فقيده على العرف المذهبي أو الاجتماعي الذي ينتسب إليه، أما مقبرة الشهداء، فهي بمثابة الحد الجامع والمشترك والذي يجتمع فيها الشهداء جميعاً بغض النظر عن الهوية المذهبية والقومية التي يرجعون إليها.

المطلب الخامس: المساجد في بغداد

هناك جوامع كثيرة في بغداد تختلف من حيث الحجم والتصميم الداخلي لها فبعضها يتخلله النقوش بكثرة، وبعضها كتبت فيه الآيات القرآنية بخطوط مختلفة، كما أنَ لكل مسجد منبر من خشب يعتليه الواعظ. ومن أهم المساجد في بغداد، جامع القصر الذي كان مضافاً إلى انه محل للعبادة وتجتمع الناس فيه يعتبر محل للدراسة حيث يأتي الأساتذة فيه، وتشكل حلقات الدرس فيه في مسائل الخلاف [٢]، ومسجد ابن المنى بالمأمونية، ومسجد الآجرة[٣]، ومسجد ابن حمدي عند مشرعة الصباغين [٤]، ومسجد

---

١ - البداية والنهاية: ج ١٣ ص ٢٣٦.

٢ - ذيل تاريخ بغداد: ج ١ ص ٣١٢.

٣ - المصدر نفسه: ج ١ ص ١٧٧.

٤ - المصدر نفسه.

ابن الواسطي في الظفرية[١]، وجامع السلطان[٢] ، وجامع الرصافة، وجامع الخليفة[٣] (انظر ملحق الصور الشكل ٤).

وكانت المساجد أحد الأماكن التي يتعلم فيها الطلبة أنواع العلوم. ويجتمع هؤلاء الطلاب على شكل حلقة في المساجد حول الشيخ الذي يلقي عليهم دروسه [٤].

إنّ المسجد عندما يصبح مركزاً علمياً فإن ذلك يعني أن العلوم الرائجة هي العلوم الدينية على اختلاف فروعها، ومن المساجد عشائر كان به حجرة ورواق وسقاية، وجامع فخر الدولة الحسن بن المطلب، وجامع الحربية ومسجد الحظائر المعروف بأم الناصر[٥] (انظر ملحق الصور الشكل ٥).

ومسجد معروف، ومسجد قمرية[٦] (انظر ملحق الصور الشكل ٦)، إلى غير ذلك من المساجد. إنّ كثرة المساجد دليل على أن المجتمع هو مجتمع ديني.

---

١ - ذيل تاريخ بغداد: ج ١ ص١٧٢

٢- الحوادث الجامعة: ص١٤٧.

٣- رحلة ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطنجي، المعروف بابن بطوطة، ص٢٣٨.

٤ - تاريخ العرب في القرون الوسطى: ص٢٠٦.

٥ - الحوادث الجامعة: ص ١١٥ - ١١٤.

٦- المصدر نفسه: ص١٣٦.

المطلب السادس: قصور الخلفاء والأُمراء في بغداد

وكانت قصور بغداد شامخة البناء شاخصة الأرجاء وفيها غرف كثيرة يقيم فيها الخدم والحجاب وذوي الخليفة أو الأمير.

وهذه القصور فيها مزايا وهي أنها تقع في مكان قريب من دجله، أو على ضفافها، أو تحف بها البساتين، أو تكون على مقربة من مركز المدينة واشهر تلك القصور قصر العتيق (انظر ملحق الصور الشكل ٧, ٩،٨).

وقد ذكر جرجي زيدان أسماء بعض تلك القصور وموقعها في بغداد فقال: وكان على ضفاف دجله في البر الشرقي قصور الخلفاء[١] وأهم أبنية بغداد وأشهرها قصر التاج والقصر الحسني وقصر الريحانة، وقصر الفردوس.وأقربها من طرف الجسر الشرقي قصر لا اسم له كان يقيم فيه مؤيد الدين ابن العلقمي وزير المستعصم[٢] وقصر التاج الذي تحف به البساتين والمحشو بالخدم[٣].

وذكر صاحب كتاب تاريخ العرب في القرون الوسطى وصفاً شبه شامل فقال: دار الخلافة كانت غاية في الفخامة والجمال، وكانت هذه الدار وما يتصل بها كأنّها لسعتها مدينة قائمة بذاتها. وكان قصر الخلافة يشتمل على

١- بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب: ص٣١٢.

٢ - شجرة الدر: ص٩٢.

٣ - المصدر نفسه: ص١٠١.

دور وبساتين ومسطحات مظللة بالأشجار، وعلى قباب وأروقة، وكانت تزيد في جمالها البرك والأنهار الجارية. وكانت الأروقة تسمى بالأربعيني أو الستيني أو السبعيني بحسب عدد الحرس الذين يجتمعون فيها[١].

ويضاف إلى البناء الرائع في القصور أنّ لها شرف يطل من خلالها الناظر إلى آفاق بغداد وجوانبها البعيدة كما هو في القصر الذي بناه ابن العلقمي لنفسه حيث كان في قصره شرفة مرتفعة تطل على دجله والجسر والرصافة والكرخ جميعاً [٢]. وهذا يظهر أن القصور كانت مميزة في بنائها وأبوابها ودهاليزها وما تحتويه من غرف وأروقة وبساتين تحف بها، إن هذه القصور تظهر وجود طبقة اجتماعية تعيش عيشة راضية ميسورة، وعلى رأس هذه الطبقة الاجتماعية يأتي الإداريون وأركان الدولة من الأُمراء.

المطلب السابع: الألبسة والأقمشة والفرش

كانت الألبسة متنوعة الألوان والأجناس والأحجام، فالخليفة له لبسه الفاخر من ثوب أبيض مذهب يشبه القباء، وقلنسوة الرأس مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة [٣]. وعند ما يخرج إلى عامة الناس يلبس

١ - تاريخ العرب في القرون الوسطى: ص٢٠٣.

٢ - شجرة الدر: ص٩٤.

٣ - المصدر نفسه: ص١٠٢

عمامة كبيرة والجبة[١] ، كما أنّ الوزير هو الآخر له زيه اللائق به كالقلنسوة والقباء السوداء[٢]، وفي حالات الراحة والنقاهة يضع عليه عباءة خفيفة، ويعتم بعمامة صغيرة[٣]، ويقرب من لباس الوزير لباس أُستاذ الدار أو بعض الأمراء حيث يلبس قباء أطلس بعلمين[٤]، أما الأجناد والحجاب فيلبسون لامة الحرب من الخوذة، والسيف أو الرمح ومزينين بالزينة الظاهرة[٥]، وباقي الناس يلبسون العمامة والثياب المختلفة[٦] بحسب حالهم. وبعض الناس في ذلك العصر «يتفننون في ملابسهم فلبسوا الحرير المختلف الألوان ووضعوا قواعد لتنظيم لباسهم تدل على ذوق ممتاز. فكانوا لا يجيزون لبس شيئاً من الملابس الوسخة مع ثياب مغسولة. وكان البياض من لباس الرجال وكان الرجال والنساء يلبسون الجوراب. أما النساء فكن يلبسن الملابس الملونة ولا يباح لهن كل الألوان بل يترك قسم منها للمغنيات والجواري» [٧]. أما الفرش فكانت قصور الخلفاء مليئة بأنواع الفرش، فقد كان للخليفة المستعصم قصر منظرة، وهي كالعريش أو (الكشل) تشرف على دجلة،

---

١ - شجرة الدر: ص١٠٥.

٢ - المصدر نفسه: ص١٠١.

٣ - المصدر نفسه: ص٩٤.

٤- العسجد المسبوك: ج٢ ص٦٠٥.

٥ - المصدر نفسه: ج٢ ص٥٤٩.

٦ - المصدر نفسه: ج٢ ص٦١١.

٧ - تاريخ العرب في القرون الوسطى: ص٢٠٤.

وأرض المنظرة مفروشة بالبسط الثمينة عليها الرسوم البديعة، وفوق البسط الوسائط المطرزة[١]. كما أنّ بيوت الناس هي الأُخرى مفروشة بالبسط والوسائد حسب أحوالهم.

المطلب الثامن: الأعياد والأفراح والوفيات

من الأعياد التي كانت متعارفة عند المسلمين في بغداد عيدي الفطر والأضحى، ففي عيد الفطر جرت الحال في خروج الموكب وركوب الوزير إلى الديوان وخروج سائر أرباب المناصب وحملة العساكر إلى المصلى في ظاهر البلد[٢] ففي العيد تخرج المواكب ويركب العسكر على خيولهم بزينتهم ويضربون بالطبل وينفخ في البوق، ويركب الزعماء، ويخرج الخطيب على عادته إلى المصلى ويصلي صلاة العيد. ويجلس الوزير للهنا ويمد سماطاً لزواره[٣]، كما أن هناك هدايا وخلع لكنها لا تتعدى فريق العمل التابع للخلافة ومرفقاتها بحيث إن عامة الناس ربما يصل إليهم ما فضل من ذلك وتعطى تلك الخلع في وقت مبكر قبل العيد بخمسة أيام أو قريب من ذلك ففي يوم الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٢ هـ ((فرقت الخلع على أربابها من الخدم والفراشين، وكانت ثمانمائة وستين

١ - شجرة الدر: ص١٠٢.

٢ - العسجد المسبوك: ج٢ ص٥٧٨.

٣ - المصدر نفسه: ج٢ ص٥٥٥.

قطعة وفي يوم السادس والعشرين خلع الوزير على حاشيته وخدامه مائة وسبعين خلعة، ثم خلع الدويدار الصغير سبعمائة ونيفاً وعشرين خلعة، ثم خلع الدويدار الكبير نحو ذلك، ثم صاحب الديوان بن الدامغاني مائة وسبع وعشرين خلعة، ثم خلع باقي الزعماء وأرباب الدولة على قدر أحوالهم ونفوسهم[١].

أما في الأفراح كالزواج والختان فلها رسومها الخاصة أيضاً ففي الزواج تبذل الأموال والهدايا بسخاء على الزوج فيما إذا كان أحد الأمراء أو المقربين من الخليفة ففي ليلة زفاف مجاهد الدين أيبك الدويدار نفذ إلى داره من أواني الذهب والفضة والثياب والجواهر ما يزيد على ثلاثمائة ألف دينار، وأُنعم عليه في صبيحة تلك الليلة التي دخل فيها بزوجته ستمائة ألف دينار عيناً[٢].

وكان شائعاً في ذلك العصر زواج الأمراء والزعماء من طبقاتهم الاجتماعية والسياسية كما هو إلى الأمير علاء الدين الطبرسي حيث زوجه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل من ابنته، وتم العقد في دار الوزارة وحضره عدد من الأعيان منهم، قاضي القضاة وكان الصداق مرتفعاً حيث بلغ عشرون

---

١ - العسجد المسبوك: ج٢ ص٦٠٤ـ ٦٠٥.

٢ - المصدر نفسه: ج٢ ص٦٣٣.

ألف دينار، ووهب له المستنصر بالله ليلة زفافه مائة ألف دينار[١]. ويلاحظ في الزواج أيضا بالإضافة إلى تعادل الطبقة، الاجتماعية، حضور أعضاء الأسرة في مراسم العقد فعندما تزوج الأمير علي بن قيران الظاهري سنة ٦٤٩ هـ على ابنة أُستاذ الدار محي الدين يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزي حضر عقد الزواج أخوتها الثلاثة[٢].

وتختلف الأعراف الزوجية عند عامة الناس والتجار عن أعراف الطبقة الحاكمة، في أنّ الناس يكون صداق زواجهم متواضعاً أما في طبقة الأمراء عالياً وثقيلاً، وقد حصلت حالة نادرة في زواج أحد التجار على طريقة الأمراء والملوك في الإسراف والبذخ فاستغرب الناس ذلك، ففي سنة ٦٤٩ هـ (تزوج مقلد بن أحمد الخردادي التاجر ببغداد ابنة عم له على صداق مبلغه مائة ألف دينار، ولم يسمع مثل ذلك إلا عن الخلفاء والملوك)[٣].

وقد أهملت الكتب التاريخية ما يدور في تلك الأعراس من أحاديث والحفلات التي تقام فيها، والأزياء التي يرتدونها أو مقدمات الزواج وأوقاته.

أما في أفراح الختان فقد كان هناك نوع من الابتهاج عندما يتم ختان أولادهم وتعبيراً عن ذلك يتم بذل الأموال، وطهي الطعام، فعند سنة ٦٤٤ هـ ((ختن المستعصم باللّٰه ولديه أحمد وعبد الرحمن، وأخاه علياً، فذكر ابن

---

١ - المصدر السابق: ج٢، ص ٥٩١.

٢ - المصدر نفسه، ج٢ ص٥٨٢.

٣ - الحوادث الجامعة: ص١٢٧.

الساعي أنّه أخرج على الختان نحواً من مائة ألف دينار، فمن ذلك ألف وخمسمائة « رأس »))[1] وفي سنة (٦٥٤ هـ) كان ختان الأميرين يوسف وإبراهيم ابني الأمير السيد ابن القاسم عبد العزيز بن المستنصر، وأمر الخليفة أن يعتمد في ختانهما ما اعتمد في ختان الأمير أبن المناقب المبارك بن المستعصم وعملت دعوة بلغت النفقة فيما يتعلق بها خمسين ألف دينار[2] ولم يذكر المؤرخون أفراح عامة الناس عند ختان أولادهم، ولعل ذلك راجع إلى عدم أهمية الحدث حتى يدرج في صحفهم.

أما بالنسبة إلى الوفيات فقد احتلت مساحات واسعة من كتب التاريخ حيث يقومون بتعريف موجز عن سنة الوفاة لذلك الشخص ومكانته الاجتماعية والعلمية، أو السياسية، وربما يذكرون الدروس التي تلقاها في سنين تعليمه كما أنهم يأتون على ذكر أساتذته وإجازاته، وربما مدحوه إن وجدوا له منقبة، أو ذموه إن وجدوا فيه مثلبة وذكر المؤرخون أنّ بعض الشخصيات ذات البعد السياسي أو الاجتماعي يتم تشييع جنازتها ويقومون بإبلاغ الناس ورجال الدولة أو العلم بالحضور في مراسم التشييع، ويتم تغسيل الميت والصلاة عليه وتقام مراسم الدفن، وبعد ذلك يتم تعزية ذوي الفقيد وقراءة التعزية وينشد الشعراء المراثي ففي سنة ٦٤٧ هـ ماتت ابنة

---

١ - تاريخ الإسلام: الذهبي، ج٤٧ ص٢٩.

٢ - العسجد المسبوك، ج٢ ص٦١٥.

الوزير وأُستاذ الدار وشيخ الشيوخ، وتقدم بالصلاة عليها شيخ الشيوخ فأتم به والدها وأخوتها، والوزير وأُستاذ الدار وسائر الناس ثم حملت إلى التربة ومشى الجميع أمامها ودفنت في الدار المذهبة المطلة على نهر عيسى، وكان عمرها ثماني عشرة سنة، وقرأت الختمة الشريفة بعد دفنها، وقريء القرآن بالألحان ودعا الخطيب وأنشد الشعراء المراثي))(١). ويلاحظ في هذا النصّ وجود جمهرة لأعداد كبيرة من سائر الناس وأرباب الدولة قد اشتركوا في مراسم التشييع والدفن والتعزية.

وعندما توفيت أم المستعصم في خمسة عشر ذي القعدة عام ٦٤٥ هـ خرج كافة أرباب الدولة وجميع ذو المناصب ماخلا الدويداران(٢) وأُستاذ الدار(٣)، وخرج الوزير ماشياً والكل بين يديه مشاة إلى دار الخلافة فاستدعي الوزير وأُستاذ الدار والدويداران وشيخ الشيوخ وأخرجت الجنازة(٤). جدير بالذكر أنّ الوزير ابن العلقمي لم يجلس للهنا في عيد الأضحى ولا مدّ سماطاً لأجل العزاء بوالدة الخليفة(٥).

---

١ - تاريخ الإسلام: الذهبي، ج٤٧ ص٢٩.

٢- الدويدار: كاتب الملك تعريب دويت دار، أي: حامل الدواة. انظر هامش العسجد المسبوك: ج٢ ص٥٩١.

٣- أُستاذ الدار: وهو مسؤول شؤون مسكن الخلافة، أو السلطان(هامش البداية والنهاية ج١٣، ص٢٧٠).

٤ - العسجد المسبوك: ج٢ ص٥٥٥.

٥ - المصدر نفسه: ج٢ ص٥٥٥.

المطلب التاسع: ظاهرة الغناء في العصر العباسي الأخير

في أوساط الطبقات الحاكمة كانت تقام حفلات ساهرة، حيث تُضرب الألحان المختلفة وفي أحيان كثيرة تقوم بعض المغنيات بأداء لحن معيّن يطرب له الحاضرين سيما إذا كانت ذات صوت رخيم، يتم ترجيعه، ولقد كان للخليفة العباسي المستعصم مغنية تنشد له الأشعار ولشدة علاقته بالغناء كان في أثناء دخول المغول إلى بغداد يستمع إلى إحدى المغنيات وقد جاءها السهم وهي ترقص بين يدي الخليفة [(١)]، بل إنّه حزن كثيراً لمقتلها أكثر من حزنه على ما جرى بين أوساط الناس في بغداد. ويبدوا أنّه اعتاد على سماع الغناء حتى في الظروف الاستثنائية، فقد عهد منه في فتنة عوام بغداد على الشيعة أنه كان يستمع للألحان المشجية ذات النغمة الرقيقة، وأكثر من ذلك تغافله عن أوضاع البلاد الإسلامية رغم الأخبار التي يتلقاها باستمرار وإهماله الاهتمام بها، بينما نراه يهتم كثيراً لوجود مغنية في دار سلطان مصر ويبعث في استقدامها[(٢)]. ويبدو أنه يريد الترويح عن نفسه بهذا اللهو.

وقد كان هناك من يشرف على المغنين بوضع الأشعار لهم، وتعليمهم واللحن المحبب في الأوساط المختلفة فقد كان الخليفة يقترح لحناً معيناً

---

١ - البداية والنهاية: ج١٣ ص٢٣٣.

٢- شجرة الدر: ص١٠٣.

ويوازيه العزف على العود[١] ويذكر الدكتور ناجي معروف، أن المجتمع البغدادي أولع بالغناء والموسيقي ويعتبرهما من الأُمور الضرورية لحفلات الزواج والأعياد[٢]. واشتهر في بغداد عدد من الموسيقيين والفنانين في القرن السابع الهجري منهم صفي الدين عبد المؤمن بن يوسف الفارقي البغدادي وكان صفي الدين في بغداد حين دخلها المغول سنة (٦٥٦هـ)[٣].

ومما يتسم به الغناء آنذاك هو الطابع الترفيهي واللهوي مما دعا أن يكون له تأثيراً سلبياً عند الغزو المغولي، ذلك أنّ جانب الحماس والثورة لم يسمع في أناشيد المغنين. ومن الجدير بالذكر أنّ المؤرخين ذكروا الخليفة المستعصم واللهو الذي عبث به وببعض أعيان دولته، وأبعدوا هذه الصفة عن الوزير ابن العلقمي.

المطلب العاشر: الخدمات الصحية

بُنيّ أوّل مستشفى في بغداد في عهد هارون الرشيد وفقاً للطرق المتبعة في بناء المستشفيات في إيران، ولذا سمي ذلك المستشفى بيمارستان على

١- شجرة الدر: ص١٠٥.

٢- تاريخ العرب في القرون الوسطى، ص٢٠٥.

٣- الدرر ، ابن حجر، ج ٢ ص٤١٦. دار الجيل.

التسمية في إيران[١]. ونظراً لكثرة المدعين لمهنة الطبابة، ووصفهم الأدوية وكثرة الأخطاء العلاجية للمرضى فقد فرض على المدعين امتحاناً لمعرفة خبرتهم ومهارتهم في الطب [٢].

وقد كان في بغداد « المارستان الشهير، وهو على دجله، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون
إليه، وبين أيديهم قومه يتناولون طبخ الأدوية »[٣] وكان المارستان العضدي[٤] أحد أشهر المستشفيات في بغداد.

أمّا الخليفة المستعصم وحرمه وأولاده وخواصه فقد كان يتولى تطبيبَهم، أحد الحكماء يدعى ابن القس واسمه مسعود البغدادي، وكان من الأطباء المشاهير والحاذقين في مهنة الطبابة، ولهذا ارتفعت منزلته عند المستعصم ونال رضاه [٥] وخصص له المبالغ الكبيرة لأنه هو الذي يحفظ للخليفة السلامة، ويشرف على استقرار حالته الصحية.

١ - تاريخ عرب، فليب حتي، ص٤٦٥، ترجمة أبو القاسم باينده.

٢ - أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ابن القفطي، ص١٨٨-١٨٩.

٣ - رحلة ابن جبير، ص١٨٠.

٤ - ذيل تاريخ بغداد، ابن النجار، ج١ ص١٦٢.

٥ - تاريخ مختصر الدول: العلامة غريغور يوس المعروف بابن العبري، ص٣٧٣.

المطلب الحادي عشر: مدارس بغداد

في عقود سبقت سقوط الخلافة العباسية كانت هناك مدارس قائمة على قدم وساق تبث العلم، وتنشر الفهم في طلابها ممن ارتادوا طريق المعرفة، وقد ذكر ابن جبير أنّ المدارس في بغداد « نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة إلاّ وهي يقصر القصر البديع عنها وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك»[١]. ومن المدارس في بغداد المدرسة الجوزية التي أنشأها محي الدين بن الجوزي، وكان يدرس فيها الفقه الحنبلي.

وكان ذوي النفوذ الاجتماعي والسياسي قد وقفوا جزءاً كبيراً من الموارد المالية لهذه المدرسة[٢] ومن المدارس المشهورة في بغداد أيضاً المدرسة المستنصرية، نسبة إلى المستنصر العباسي، وتكامل بنائها في سنة ٦٣١ هـ على يد أُستاذ الدار ابن العلقمي الذي وزّر[٣]. وتتكون هذه المدرسة من طابقين وقد وقفت على المذاهب الأربعة[٤] (أنظر ملحق الصور الشكل ١١،١٠).

ومن المدارس أيضاً المدرسة البشرية والتي أمرت ببنائها حضية[٥]

---

١ - رحلة ابن جبير: ص١٨٣.

٢ - شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي، ج٥ ص٢٧٨. دار الفكر.

٣ - العبر في خبر من عبر: شمس الدين الذهبي، ج٢ ص٢٢٥، دار الفكر.

٤ - الحوادث الجامعة: ص١٠٨.

٥- كناية عن المرأة السيدة.

الخليفة المستعصم أم ولده أبي نصر وكان لها وقوفها. وهي تقع في الجانب الغربي من بغداد وهناك مدارس أخرى كالمدرسة الشرفية التي بناها إقبال الدين الشرابي وتقع في سوق السلطان[١] ومن اشهر علمائها الشيخ تاج الدين محمد بن الحسن الأرموي الذي يعتبر وحيد عصره فضلاً، وهو أحد ابرز تلامذة الفخر الرازي[٢] ومن المدارس المدرسة التاجية[٣] والمدرسة المستنجدة[٤] وتوجد مدارس أخرى صرفنا عنها القلم خشية الإطالة. وجدير بالذكر أن أكثر المدارس قد وقفت على المذاهب الأربعة، أو على مذهب معين منها.

إنّ وجود هذه المدارس الكثيرة في بغداد يعكس الازدهار العلمي، أو أنها تمثل أحد المراكز العلمية في ذلك الوقت.

المطلب الثاني عشر: مكتبات بغداد

كان في بغداد مكتبات تضم آلاف الكتب، وتهدى للمدارس عند بنائها كثير من الكتب نظير المدرسة البشيرية حيث نقل إليها من الكتب ما حمل

---

١ - عيون التواريخ: محمد بن شاكر الكتبي، ج٢٠، ص٨٥، دار الرشيد.

٢ - الحوادث الجامعة: ص١٤٩.

٣ - المصدر نفسه: ص١٢٩.

٤ - العسجد المسبوك: ج٢، ص٦٠٢.

على ستة وثلاثين صندوقاً بالخطوط المنسوبة، والنسخ المضبوطة منها مما هو بخط ابن البواب وبخط ابن سبحون ومصاحف كثيرة منسوبة إلى عصور متقدمة[١]. ومن المكتبات مكتبة رباط الزوزني[٢] واشتهر ابن العلقمي بعلمه واستقامته، وكان من هواة جمع الكتب[٣]. ففي سنة ٦٤٤ هـ فتحت دار الكتب التي أنشأها الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي في داره، ونقل إليها كتب من أنواع العلوم، وأنشد العدل موفق الدين القاسم بن أبي الحديد على ما فيها من كتب:

رأيت الخزانة قد زينت … بكتب لها المنظر الهائل

عقول الشيوخ بها ألفت … ومحصوله ذلك والحاصل

تمثلت أسماءها منكم … على النقل ما كذب الناقل[٤]

وقد ذكر ابن طباطبا نقلاً عن ولد ابن العلقمي الملقب شرف الدين أبو القاسم علي قال: «اشتملت خزانة والدي على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب» [٥].

وقد ذهبت كتب كثيرة إلى ألسنة النار التي أوقدها المغول في المكتبات،

---

١ - العسجد المسبوك: ج٢ ص٦٠٩ـ ٦١٠.

٢ - تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار: ص٨٨

٣ - دائرة المعارف الإسلامية: مجموعة من المستشرقين، ج١ ص٤٢١، انتشارات جهان.

٤ - الحوادث الجامعة: ص١٠٤ـ ١٠٥.

٥ - الفخري في الآداب السلطانية: ص٣٣٧.

أو ألقيت في ماء دجلة ليصطبغ ذلك النهر بحبرها[١]، وقد مُنيت الثقافة الإسلامية على أيدي التتار بخسارة كبيرة حين اتلف المغول آلافاً من الكتب[٢].

المطلب الثالث عشر: التركيبة الاجتماعية والدينية

كان المجتمع البغدادي يضم بين دفتيه قوميات مختلفة كالعربية والفارسية والتركية والكرد والأحباش وغيرهم من القوميات، وهذا التعدد القومي وتفاوت نسبته الإحصائية يرجع إلى عمرها الطويل وما شهد من فترات مختلفة، ويرى صاحب كتاب الصراع الاجتماعي، أنّ التمازج البشري والحضاري الكبير الذي شهده المجتمع العباسي أدى إلى تغيير البنى، وجعلها متراوحة مما جعل الوحدة الاجتماعية مع باقي البنى مفقودة[٣]. ويذكر ابن جبير في رحلته أن بغداد تبدلت حالتها الاجتماعية عما هي عليه في قرونها الأولى، فيلاحظ أنّ الناس يركبهم الجفو في ظواهر حالاتهم، فلا يألفون غريباً قادماً، «فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها ومائها»[٤]

١- انظر: تأريخ ابن خلدون: ج٥ ص٥٤٣، مؤسسة الأعلمي.

٢- قيام دولة المماليك: ص١٤٨.

٣ - الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية: محمد نجيب ابو طالب : ص٣٣, دار المعارف.

٤ - رحلة ابن جبير: ص١٧٤.

ولعلّ لكثافتها السكانية وسوء الأوضاع فيها دور في إنماء السلوك على مثل ذلك.

ولو قسمنا المجتمع على أساس الدين فسوف يكون ((منقسماً إلى مسلمين وغير مسلمين، أي أهل ذمة من يهود ونصارى وغيرهم)) [١] ، وكانت السلطة بيد المسلمين طول فترة الخلافة العباسية ((أما أهل الذمة فكانوا يتمتعون بحريتهم الدينية والاجتماعية في ظل الإسلام بشكل لم يعرفه أهل أوربا في القرون الوسطى تجاه الأقليات الدينية.وكان أهم الأقليات الدينية في العراق اليهود والنصارى وكانوا يخضعون إلى قوانينهم ويحتكمون إلى رؤسائهم الذين يمثلونهم عند الحكومة)) [٢]. وقد ذكر آشتياني تقسيماً ثنائياً للأديان في بغداد يتكون من الشيعة والسنة من جهة، والعيسويون من جهة أخرى وذكر إن السنة والشيعة في خلاف عقائدي دائم أدى إلى الاختلاف في الأمور السياسية وامتد هذا النزاع إلى داخل أوساط الناس في بغداد[٣] ، ولم يذكر الآشتياني الطائفة اليهودية، وأنها كانت على وفاق مع الخلافة وتعيش في ظروف أمنية واجتماعية جيدة وحسب أعرافهم [٤] ، وربما استفاد آشتياني وجود الخلاف مع المسيحيين مما ذكره ماركوبولو في أنّ المسيحيين ومنذ أن تولى الخليفة المستعصم الإدارة كان

---

١ - تاريخ العرب في القرون الوسطى: ٢٠٥.

٢ - المصدر نفسه: ص٢٠٦.

٣ - تاريخ المغول: عباس إقبال آشتياني، ص١٨٠، انتشارات أمير كبير.

٤ - انظر الحوادث الجامعة: ص١٢٢، والعسجد المسبوك: ج٢، ص ٥٦٠ـ ٥٦١.

شغله الشاغل في كل يوم تدبير الوسائل لإدخال كل من يقيم في دولته منهم في دينه، أو في حالة رفضهم ذلك، صياغة الحجج التي يتذرع بها لإعدامهم[١]، وهذا الكلام يحتاج إلى دليل، ولم تؤكده المصادر التاريخية، بل إنّ المصادر تؤكد احترام الطائفة المسيحية من قبل الخليفة، ويتم تعيين الجاثليق من قبل أُستاذ الدار بعد أن يرشحه أهل ملّته كما هو في تولية مارميخا النصيبي[٢].

المطلب الرابع عشر: الطائفية في بغداد وتداعياتها الاجتماعية

كانت الإجراءت التي يقوم بها القيّمون تصب في خدمة الطائفية حيث تكون الوقوفات وحقّ التدريس خاصة بالمذاهب الأربعة. وعلاوة على هذا فإن هذه المذاهب ليست كلها على حد سواء وإنما يقدم بعضها على بعض، وذلك ما يلاحظ عند ما يتم وقف بعض المدارس على مذهب معين دون غيره .

وقد كان المجتمع آنذاك يفتقد إلى روح الوحدة وتكتنفه الميول المذهبية والطائفية كما أنّ سلوك الناس يميل إلى حل القضايا والخلافات المذهبية

١ - رحلات ماركو بولو: ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسدن، وترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصدرية العامة ، ص٤٠ .

٢ - الحوادث الجامعة: ص١٤٥.

عن طريق القوة، ولذا نشبت صراعات وفتن متعددة بعضها يعود إلى بدايات القرن السابع الهجري، ففي شهر رمضان من سنة ٦٠١هـ جرت ثلاث فتن بين الشيعة والسنة راح ضحيتها عدداً من الناس الأبرياء ونهبت الدور وغير ذلك[١].

أمّا وفي عصر وزارة ابن العلقمي فيلاحظ بين المذاهب وجود أرضية للتعصب لمع نجمها في سنة ٦٤٧ هـ حيث كان هناك جدلاً طائفياً حول بعض المفاهيم، وتفسيرات لا علاقة لها بحرية الفكر، وإنما بالإنتماء المذهبي، لقد كان هناك انحسارية في تناول المواضيع، وتحسس سلبي في فهمها ومعالجتها، وذلك ما ينمي سوء الظن الذي يهوي بالأفكار إلى الضدية للآخرين، والحادثة التالية تبين ما ذكرناه، فقد « كتبت فتيا ببغداد: هل الإيمان يزيد وينقص ؟ فامتنع الفقهاء من الجواب خوفاً من الفتنة، وكتب فيها الكمال علي بن وضّاح والمحدّث عبد العزيز القحيطيّ وبالغا في ذمّ من يقول لا يزيد ولا ينقص. فأخذ الفُتيا بعض الحنفية وعرضها على الديوان العزيز وقال: قد تعرّض لسبّ أبي حنيفة، فأمر بإخراج ابن وضّاح من المستنصرية وبنفي القحيطي» [٢] فالفقهاء حسب النصّ يمتنعون عن الإفتاء في مسألة تقع ضمن إطار مسؤوليتهم الدينية خوفاً من الفتنة، فهم يعلمون أنّ هناك تفسيرات وتأويلات تتلو فتياهم، والناس يستهويهم وجود موضوع معين ينشغلون فيه، ويصوبون إليه سهامهم، ويصبّون فيه ما كمن

١- الكامل في التاريخ: ج١٢، ص٢٠٣- ٢٠٤.

٢ - تاريخ الإسلام، الذهبي، ج٤٧، ص٤٧.

في صدورهم .

وهناك ظاهرة الغلو والإغراق بين العلماء حيث إن نفس العلماء الذين أصدروا الفتيا في المسألة ؛ بالغو في ذَمّ من يقول لا يزيد ولا ينقص، فهم خرقوا جدار الصمت الذي تدثّر به الممتنعون من جهة، وغمزوا مَن هو على غير وجهتهم من جهة أُخرى.

وكان بإمكانهم أن يجيبوا عن السؤال دون أن يتعرضوا إلى نقد الآخرين ؛ سيما وأن الأجواء ملتهبة، وكل طرف يبغي الوقيعة بغيره، وهو ما يشهد به النصَ .

والعجيب أنّ الدوائر الإدارية هي نفسها متعصبة، وتقوم بحل المشاكل بطريقة غاضبة لصالح جهة على أُخرى، وهو ما يعني أنّ الخلافة مذهبية في قراراتها. والمفروض بالديوان أن يقوم بمعالجة الموضوع بطريقة هادئة بعد استدعاء الغرماء، ورفع حججهم وتوجيههم إلى الحل الأفضل، سيما وأنّ المجتمع كان بحاجة إلى الهدوء والتلاحم، والأخطار تهدده شرقاً وغرباً، إلاّ أنّ أياً من ذلك لم يحصل، وقام الديوان بإبعاد وطرد ذينك العالِمَين .

ومن هنا نلاحظ أنّ هذا الإجراء يأتي على وحدة المجتمع فينسفها نسفاً باعتبار وجود مؤيدين لهذين العالمين.ويشاهد أنّ الخلافة بدل أن تكون فوق الصراع وقائمة على حلّه قامت بمساندة طرف على آخر، وأصبحت طرفاً في الصراع .

وإذا كان هذا الاختلاف بين العلماء ومذاهبهم والخلافة ملحقة به، فكيف ذلك بعامة الناس؟! إن هذا التشتت بدأ يدب في المذاهب الرسمية التي تباركها الخلافة، وبعد ذلك تراكم عندهم ليصب فورته على مذهب التشيع الذي يعد مذهباً قوياً غير أنه مهمشاً آنذاك، فهو مستثنى من دعم الخلافة إلاّ أنه يحظى بتأييد جماهير غفيرة من الشيعة يسكنون الكرخ والكاظمية وباب البصرة، ولأجله كان الخليفة وبعض حاشيته يزور المراقد الشريفة من أجل كسب ود تلك الجماهير وتخفيفاً لحجم التوتر والضغوط النفسية التي يواجهونها، وربما مراعاة لجانب الوزير حيث قام بزيارات عديدة في العقد الخامس والسادس من القرن السابع الهجري، واستمرت إلى سنين الفتنة الطائفية لعوام أهل السنة ففي شهر جمادي سنة ٦٤٦ هـ توجه الركب المستعصمي مؤلّفاً من الخليفة وكبار السادة والأمراء قاصداً زيارة الحسين[١]. وفي سنة ٦٤٧ هـ أمر الخليفة بعمارة مشهد الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام)[٢] ، وتصدّق بمال كثير ثم توجه إلى زيارة مشهد الإمام علي عليه السلام وتصدّق هناك أيضاً بمال وافر[٣]. وفي شوال سنة ٦٥٣ هـ توجه الخليفة المستعصم بالله و أولاده وحظاياه إلى المشاهد المقدسة، فقصد مشهد أمير المؤمنين[٤].

---

١ - العسجد المسبوك، ج٢ ص٥٦٢،

٢- الحوادث الجامعة: ص١٢٠.

٣ - العسجد المسبوك: ج٢ص٥٩٣.

٤ - المصدر نفسه: ج٢ ص٦١١.

هذه الزيارات المتكررة في وقت يعاني منه الشيعة ظروف خانقة في عدم ممارسة شعائرهم الدينية ؛ تحيط بها الشكوك، ويمكن حملها على أنها نوع من حرف الأنظار عن الواقع الذي يعيشه الشيعة، أو لعلّ الخليفة وبعض حاشيته لم يصبهم مس الطائفية وهو يتعامل مع المذاهب بِنظرة معتدلة. أما تلك الحملات، أو الأوامر الصادرة ضد الشيعة فيقف ورائها ابن الخليفة الأكبر والدويدار.

المطلب الخامس عشر: التهميش الاجتماعي للشيعة

هناك ظاهرة خطيرة أدمن عليها الخلفاء العباسيين، وتبعتهم المذاهب الرسمية المنظوية تحت لوائهم، وهي عدم الاعتراف بمذهب الشيعة مما جعلهم عرضة لمصادرة حقوقهم الحياتية والاجتماعية فضلاً عن أنهم منبوذين ومهجورين سياسياً.

أما وجود ابن العلقمي في الوزارة العباسية فتلك فلتة من فلتات الدهر حيث إنّ مؤهلات ابن العلقمي الإدارية والعلمية رشحته لهذا المنصب.

ومن خلال تتبعنا للأحداث التي سبقت غزو المغول لاحظنا أن الخلافة قد شرعت بممارسة أساليب ضغط ضد الشيعة من خلال منع الشعراء من الحضور عند الوزير في عاشورا، وبعدها منعت المراسم، وقراءة المقتل، ثم

الهجوم الذي قام به الأهالي، ويدعمهم العسكر ضد الشيعة في الكرخ، وقد قتل عدد كبير من الشيعة، وأُسرت نسائهم، ونهبت أموالهم. كل ذلك جرى على مقربة من مركز الخلافة!!. وبيد ذوي النفوذ الرسمي.

وفيما يلي تفصيل ذلك؛ ففي أوّل المحرم سنة ٦٤٧ هـ لم يحضر أحد من شعراء الديوان إلاّ ابن أبي الحديد فأورد قصيدة[١]، وعلل عدم مجي الشعراء بفيضان دجلة، وتخريب البيوت والمساجد، ويمكن تصحيح ما ورد في الخبر بأن الوزير جلس للتعزية وليس للهنا في أوّل المحرم! وتصاعدت وتيرة الإجراءات ضد الشيعة في السنة التالية أي في سنة ٦٤٨ هـ ؛ فمنع أهل الكرخ والمختارة من النياحة والإنشاد وقراءة مقتل الحسين ((خوفاً من تجاوز ذلك إلى وقوع فتنة))[٢]. وعجيب ذلك الادعاء الذي يرى أن القراءة والإنشاد في عرض مظلومية الحسين، يؤدي إلى الفتنة! والأعجب من ذلك أن تتولى الخلافة إصدار هذا القرار وتعمل على مراقبة تنفيذه، لا سيما وأنها من جهة أخرى تقوم بزيارات المشاهد المشرفة لأئمة الشيعة!!.

ثم تأتي الأيام والشهور تترى ليتبعوا المنع بآخر مثله عند سنة خمسين وستمائة للهجرة حيث أرادوا أن يكون الدين خاضعاً لتوجيهاتهم، بحيث يصبح ذوي النفوذ المذهبي الرسمي قيّمين على الشيعة، فيشيروا عليهم أن يقرأوا، أو يقلعوا. ويفصّلوا لهم ما شاء تطرفهم من خبالات وخيالات بأن يجتنبوا إحياء شعائرهم .

---

١ - العسجد المسبوك: ج٢ ص٥٧١.

٢ - الحوادث الجامعة: ص١٢٢.

المطلب السادس عشر: الحملات الطائفية ضد الشيعة

تجدد منع الشيعة من ممارسة شعائرهم الدينية سنة ٦٥٠هـ ومن قراءة المقتل في يوم عاشوراء خوفاً من وقوع الفتنة[١].

وحبس الشيعة أصواتهم، واستجابوا لرغبة الغرماء، الذين يطففون في موازينهم المذهبية. ولم يكتف ـ أعداء الشيعة ـ من غيض صدورهم بذلك؛ فاغتنموا فرصة لاحقة في مناسبة أخرى سنة٦٥٣هـ فهبّوا في المحرم على أهل محلة الكرخ فأوغلوا فيهم قتلاً في عقر دارهم، وبعث الديوان بدوره مَن لا عهد له بالدين، ولم يعرف نصيباً من الأخلاق من الجند المردفين فمالوا بمثل ميل إخوانهم من شذاذ الآفاق، وأعطوا السيف حقه في تدفيفهم على الفارين بجلودهم، وأخمدوا أصوات من رصدته عيونهم، ودخلوا على النساء في مخادعها؛ فاحلوا منها ما للحليل لحليلته، ثم ساقوهن عنوة لإ بتياعهن في أسواق الرقيق. وانتهى المحرم على الشيعة، وكأن عاشوراء أُخرى نزلت بساحتهم.

وطويت صفحة ما ساموه من العذاب وتلت أُخرى في ذي القعدة من عين السنة٦٥٣هـ فأُعيدت الكرّة على الشيعة، ووطئت أرضهم وديارهم، وأُخرجوا من ديارهم بغير حقّ بعد أن ديّثوا بالهوان. وذلك ما ذكره صاحب

---

١ - العسجد المسبوك: ج٢ ص٥٨٥.

الحوادث الجامعة حيث قال: في محرم، حدثت فتنة بين أهل الكرخ وباب البصرة، قتل فيها عدة كثيرة من الفريقين، ودام الشر بينهم، فأرسل الديوان طائفة من الجند نزلوا بين المحلتين لمنع الفتنة فمالوا على أهل الكرخ، ونهبوا الدور المتطرفة منها، ثم أخذوا خطوط المشايخ من أهل المحلتين بكف الجهال عن الشر، ونصبت أخشاب على أبواب المحلتين لصلب من يثير الفتنة، فكفوا أنفسهم ثم عادوا إلى ذلك في ذي القعدة فخرج العسكر لكفهم عن ذلك ومنعهم فلم يمتنعوا وقتل بينهم خلق كثير، ثم اصطلحوا ظاهراً، فعاد العسكر عنهم، وتجدد بسبب ذلك بين محال أهل بغداد فتن من أجل المذهب فكفهم الديوان ومنعهم[١].

هذه الصراعات الداخلية في بغداد كانت بين أهل الرصافة ومحلة أبي حنيفة والخضريين، وبين أهل المستعصمية والجعفرية، ودرب زاحل والعنوتين، وسوق المدرسة وأهل المشرعة [٢].

وأن القارئ المتتبع ليتحير إلى ذلك الذي يجري في إيراد الأخبار، ففي الوقت الذي تقول فيه الأخبار بأن عوام أهل السنة هجموا على الشيعة في عقر دارهم بمساندة الجند؛ يقولون أيضاً إنّ أهل الكرخ من الشيعة أفرطوا في سفك الدماء [٣]ـ محاولين حرف أقلامهم، ولَيّ ألسنتهم ـ على أساس أنّ الأمر الذي صدر من الخليفة بإحراق دور الشيعة يأتي بعد إفراطهم؛ في

١ - الحوادث الجامعة: ص١٣٥.

٢ - المصدر السابق: ص١٤٧.

٣ - نفس المصدر السابق.

حين أن التاريخ يثبت عكس ذلك.

وتأتي سنة ٦٥٤ هـ حبلى بالحملات المسعورة، والمنتفخة حنقاً على الشيعة، فعند ذي الحجة، قتل أهل الكرخ رجلاً من أهل قطفتا فحمله أهله إلى باب النوبي، فدخل جماعة من الخدم إلى الخليفة المستعصم، وعرفوه وعظّموا ذلك ونسبوا إلى أهل الكرخ كل فساد، فأمر بردعهم فركب الجند إليهم، وتبعهم العوام ونهبوا محلة الكرخ، وأحرقوا عدة مواضع، وسبوا كثيراً من النساء والعلويات والخفرات، وسفكوا الدماء، وعملوا كل منكر، وكان الجند والعوام يتغلبون على من قد نهب شيئاً فيأخذونه منه، وعظمت الحال في ذلك، فخوطب الخليفة في أمرهم فأمر بالكف عنهم ونودي بالأمان، فدخل جماعة من الكرخ إلى منازلهم وقد تخلّف بها قوم من العوام وغيرهم فقتلوهم ثم تقدّم الخليفة إلى الجند وغيرهم بإحضار ما نهبوه إلى باب النوبي فاحضروا شيئاً كثيراً فرد على من عرف ماله ما وجده، وكان شيئاً لا يحصى كثرة، ونودي بحمل النساء والأسرى إلى دار الرقيق فحملوا وأعيدوا إلى أربابهم ثم حصل الذي كانت الفتنة بسببه، وقتل وصلب قاتل القطفتي بباب الكرخ [1].

ويقوم أتباع الخليفة بإجراءات ينأى عنها كل ذي بصيرة حيث إنّهم وبدل أن يقوموا بإجراءات حازمة لردع المتجاوزين، أو على الأقل محاسبتهم أو

---

١ - الحوادث الجامعة: ص١٥٢.

تنبيههم - وإن كان ذلك لا يعني شيئاً في قبال ما عملوا- إلا أن ذلك لم يحصل حيث نادوا بالأمان لأُولئك الفارين من ديارهم، وأبقوا على جنودهم وعوامهم يهشونهم على الشيعة، فوقع القتل فيهم ثانية، ثم قاموا بإعادة بعض الممتلكات عن طريق الطلب إلى العوام ذلك فأُعيد بعضاً من ذلك مخلوطاً مع غيره من المال. ثم إن قاتل القطفتي قتل وصلب، أما قتلة الناس فاعفوا من ذلك رغم أنهم كانوا سبباً في التسيب الأمني والأخلاقي حيث فعلوا كل منكر، وحرّقوا البيوت ... الخ.

إنّ الإجراءات سواء كانت من قبل عوام أهل السنة، أو من قبل الذين يرتبطون بالخليفة تشير إلى أنّ الشيعة هم عبارة عن مواطنين من الدرجة الثانية فقاتليهم لا يقاصّون، وبائعيهم في أسواق الرقيق لا يحاسبون!! .

ومن المؤسف حقاً أن يقوم المؤرخين بالتستر على الحقيقة ومحاولة تجميل موقف الطائفيين الذين أشعلوا فتيل الأزمة، فالهجوم العام كان من طرف واحد وهم عوام أهل السنة يقودهم الدويدار وابن الخليفة وجنودهم؛ في حين الاستعمالات التي وضعها المؤرخون بعنوان (الفتنة) و (الفتن) توهم القارئ بأن الشيعة والسنة على حد سواء في إذكائها، وإدامة نيرانها بينما الأمر يختلف تماماً في أنّ الشيعة يقومون برد فعل وهو الدفاع عن أنفسهم، ويلاحظ أنّ الشيعة قد وقع فيهم القتل وهم في ديارهم، وكانت اكثر الضحايا هم من الشيعة بدليل أنّ القوة المهاجمة هي قوة نظامية يساعدهم في ذلك العامة حتى أنهم فرّوا من ديارهم وأسرت نسائهم فلو كان للشيعة حول أو قوة لما فرّوا من ديارهم أو ابتيعت نساؤهم في أسواق

الرقيق، وقد أشار الديار بكري في تاريخه إلى أن نهب عظيم وخراب في بيوت الرافضة وقتل عدة من الرافضة[١] ، ولم يشر إلى قتل عدة من أهل السنة وهذا يعني أن القتل حصل على طرف واحد وهم الشيعة.

وتستمر قصة الطائفية، ومخلّفاتها الاجتماعية (ففي سنة خمس وخمسين وستمائة ثارت فتنة مهولة ببغداد بين السنة والرافضة [٢]، أدّت إلى نهب عظيم وخراب وقتل عدّة من الرافضة)[٣]، وقريب من هذه القصة يوردها الذهبي في تاريخه[٤].

إنّ تلك الأعمال مزقت وحدة المجتمع، ولا يمكن لسوي، أو منصف أن يقول عنها أنّها تمثل الدين، بل هي طائفية لبست ثوب الدين.

ولا يمكن إعفاء الخليفة من المسؤولية؛ فقد كان بإمكانه أن يقطع نزاع القوم قبل تفاقمه، أو ينهي الصراع بعد تعاظمه بتشكيل لجنة يترأسها بنفسه، ويقوم بمعالجة الموضوع بالتشاور مع العلماء والمسؤولين والسياسيين خصوصاً وأنهم رهن إشارته عند حزمه ؛ إلاّ أنّ أياً من ذلك لم يحصل، والعلماء في ذلك الوقت لم يؤدوا دورهم بشكل مطلوب فلم يصل إلينا ولو

١- تاريخ الخميس: ج٢, ص٢٧٦.

٢ - من المحتمل أن تكون هذه نفسها التي حصلت سنة (٦٥٤هـ)، وأوجزها صاحب تاريخ الخميس وذكرها في سنة(٦٥٥هـ).

٣ - تاريخ الخميس: الشيخ حسن الديار بكري: ج٢ ص٢٧٦.

٤ - تاريخ الإسلام: ج٤٨، ص٢٩.

خبراً واحداً يشيد بموقفهم. ولكن ما هي الأسباب الوجيهة التي دعت إلى إطالة أمد الأزمة الطائفية؟

يمكن إجمال الأسباب التي دعت إلى النعرات الطائفية بمايلي:

١ - بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من موقف الخليفة السلبي، وعدم كفائته في إدارة بلدان الخلافة فإن التناحر السياسي بين الوزير من جهة والدويدار وابن الخليفة من جهة أُخرى أدى إلى توسع الصراع عن طريق إدخال عوام الناس في عملية صراع القوى .

٢ - الجهل الذي أُصيب به عوام الناس بعد التقاءه بأهوائهم دفعهم إلى الخوض في لجج الخصومات، كما في الصراعات الطائفية التي قام بها عوام أهل السنة ضد الشيعة.

٣- لا ننسى أنّ العلماء في ذلك الوقت لم يؤدوا دورهم بشكل مطلوب، وأما ما ذكر في أحد خطوط المشايخ وتعهداتهم بكف الجهال عن الشر [١]، فذلك أدنى من أضعف الإيمان، فلم نر الخطباء ينهون أُولئك الذين يقومون بالخوض في الخلافات، أو توجيههم إلى الوحدة، بل إن الأخبار التأريخية سكتت عن ذلك وهو يدل على عدم وجود خطوات عملية في نزع فتيل الأزمة الطائفية.

٤- كان لسوء الأوضاع الاقتصادية، والظروف المعيشية المتردّية - والتي سنأتي لذكرها لاحقاً - والتي يعانيها أهل بغداد دور في إرواء

١- الحوادث الجامعة: ص١٣٥.

هذه النزاعات.

٥ - ربما يكون هناك عامل خارجي قام بإشعال فتيل الصراع المذهبي فالذي يستفيد من هذه الصراعات في ذلك الوقت، المغول الذين كانوا يتقدمون نحو البلاد الإسلامية الشرقية، والصليبيون الذين كانوا يقضمون الأراضي الإسلامية في بلاد الشام وما يحاذيها، ونعيد الإشارة إلى أنّ العامل الخارجي نذكره من باب الاحتمال بناءاً على أنّ المستفيد من هذه الخلافات هو الأجنبي الطامع إذ لا مصلحة للأطراف المتنازعة بهذه الفتنة العمياء.

كلّ هذه العوامل ساهمت في وجود النزعة الطائفية عند عوام أهل السنة ضد الشيعة ومما يؤيد الادعاء بوجود النزعة الطائفية، إنّ القرارات الصادرة من دائرة الخلافة، والهجمات التي قادها الجند والعوام كانت متزامنة مع المناسبات الدينية للشيعة في المحرم وصفر، وذي القعدة، وذي الحجة.

ويلاحظ أنّ الحملات كانت شديدة الوطئة على الشيعة، وعنيفة جداً وهو ما يشير إلى مدى تراكم الاحتقان ضد الأطراف التي تخالفهم في العقائد والأفكار، بحيث إن قتل نفر واحد من أهل السنة يستدعي قتل أعداد كبيرة من الشيعة بالإضافة إلى سبي نسائهم و.. و..الخ .

ويمكن إيضاح ذلك بالمعادلة التالية :

قتل شخص واحد، وهو « القطفتي» = نهب محلة الكرخ + إحراق

دورهم + سبي نساءهم + سفك دماءهم + عمل كل منكر + حمل النساء والأسرى إلى دار الرقيق قتل قاتل القطفتي وصلبه أمام أهل محلته .

إنّ ردّ الفعل لا يساوي الفعل الذي قام به أحد عوام الشيعة. وقد تجاوز المؤرخون التوقف عند هذه الحادثة وشبيهاتها لئلا يعرف الناس حقيقة العدوان الذي تربّع في صدورهم.

ولنا أن نتساءل ونقول بماذا يفرق هذا المنطق الذي أقرته الطائفية، وسوّغته إلى أبنائها عن الغزو الخارجي ؟!.

المطلب السابع عشر: العيارون والشطار في بغداد

انتشرت ظاهرة السرقة في بغداد إبان العصر العباسي ولعلّ ذلك يعود إلى الظروف الاقتصادية الخانقة التي يعيشها بعض الناس، أو أنّ ذلك راجع للفساد الإداري الذي يتخلل أجهزة الخلافة وبلغ الحال بالعيارين أن أصبحت لهم هيئات خاصة في عهد الناصر لدين اللّه ٦٢٣ هـ وتقاليد خاصة بعضها مستمد من تقاليد الفتوة، كارتداء لباس الفتوة الذي يميزهم عن غيرهم والذي كان ينحصر في جملة قطع أهمها: السروال والحزام، وكذلك شرب كأس الفتوة، وهو ماء ممزوج بملح كانوا يشربونه في اجتماعاتهم، وإلى جانب ذلك كانت لهم تقاليد أُخرى دخيلة على الفتوة كمخالفتهم أحكام الشريعة.

ويرى الدكتور عبد المولى أنّ للمظالم الاجتماعية دور في دفع الطبقات الدنيا من المجتمع على الخروج من حوزة الشرع والقانون إذ هو المقابل الوحيد للطبقات الشعبية الفقيرة للحياة على حساب الطبقات الغنية المترفة، أو هو العلاج الأكيد لتحقيق العدل الاجتماعي [١] ومن خلال مطالعة الفترة التي سبقت الغزو المغولي لبغداد، يلاحظ أنّ هناك عمليات سرقة استهدفت مخزن المدرسة المستنصرية وذلك عند سنة ٦٤٤ هـ ، حيث فتح مخزن المدرسة المستنصرية المقابل لباب سوق المدرسة، وأخذ منه نحو أربعمائة رطل[٢] شمعاً معمولاً، وحدود ثلثمائة رطل سكر، ومبلغ ثلثمائة دينار وثلاثون مصمتاً طبرية، وقيل أن جوقة الرندي فعلوا ذلك، وكثر اللصوص ببغداد وكانوا يأتون بالعدة ويأخذ وأموال الناس [٣] .

ويلاحظ أنّ هذه العملية تحتاج إلى مجموعة من الأفراد لحملها ونقلها إلى مكان آمن ثم توزيعها فيما بينهم، كما أنّ عملية السرقة نفذت بعد حصولهم على معلومات عن وجود تلك المقادير والمؤن الغذائية أو العينات النقدية، وقد أُشير إلى جوقة الرندي والتي يظهر أنّ لديها سمعة غير طيبة في أوساط الناس.

---

١ - العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي، محمد أحمد عبد المولى، ص٣.

٢- الرطل: هو: اثنتا عشر أُوقية, والأُوقية هي أربعون درهماً, فيكون الرّطل ثمانين وأربعمائة درهم, النقود العربية والإسلامية وعلم النميات: الأب انستاس الكرملي: ص٣١.

٣ - الحوادث الجامعة: ص١٠٦.

واستمرت عمليات السرقة المتنوعة باستهداف الأشخاص أصحاب الثروة، أو من الذين يتمتعون بحياة ميسورة، واستخدموا الخدعة والحيلة في الوصول إلى مآربهم ففي سنة ٦٤٨هـ ، كثر العيارون وتنوع فسادهم حتى أن واحداً منهم قصد شخصاً من ذوي الهيئات في صورة ناصح له وقال له: إن في دارك امرأة تفتح الباب نصف الليل وتدخل رجالاً فعظم ذلك على الرجل وانكره، فقال قف في دهليز دارك فإذا دق عليك الباب خفية فافتح الباب وستجد مصداق ذلك فاظهر الرجل أن معه ضيفاً واستدعى بغلام أمسى معه، وكأنهما يرصدان الضيف، فلما كان نصف الليل طرق الباب فقام الرجل وفتح الباب فهجم عليه العيارون وكتفوه وكتفوا غلامه وأخذوا جميع ما كان عنده وكذا فعلوا مع غيره وغيره[1]، وتكررت مثيلات هذه الحادثة، وذلك ما يعني أنّ هناك تسيب أمني يتخلل مدينة بغداد، وتكشف الحادثة عن سذاجة الناس بحيث انطلت عليهم حقيقة الأمر. إنّ تكرر هذه الحادثة يشير إلى أن بغداد كانت كبيرة وأعادوا الوقيعة بآخرين في محلات أُخرى .

إنّ عدم الإمساك باللصوص يشجعهم على المضي قدماً نحو توسيع شبكتهم، والقيام بعمليات اكبر وأخطر، وذلك ما حصل بالفعل ففي سنة ٦٤٨ هـ ، كثر السرّاق ببغداد وصار لهم مقدَّم يقال له غيث، وتجّرأوا على دور الأُمراء[2] واستغل العيارون فرصة الصراعات الداخلية بين الأهالي في بغداد وانشغال الخلافة بهذا الموضوع وأخذوا يتعاظمون وقوى شأنهم

١ - العسجد المسبوك، ج٢ ص٥٧٨.

٢ - تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي: ج٤٧ ص٦٧.

فأخذوا أموال الناس بالقوة والفتك بهم [١]. وأخذوا يشاغبون في بغداد على نحو اضطر شحنة بغداد عبر جهده الخاص أن يقبض على جماعة منهم سنة ٦٥٣ هـ وخلالها كثر شغب العيارين وعظم فسادهم حتى صاروا يخطفون عمائم الناس، وثيابهم من الحمامات وغيرها خطفاً وقهراً وقتلوا جماعة من باب النوبي وغيرهم فاجتهد الشحنة في طلبهم، فأمسك منهم جماعة فقتلوا على باب النوبي صلبا وتوسيطا[٢].

ومما سبق يظهر أن العيارون والشطار كانت ظاهرة منتشرة في بغداد وتهدد الأمن الاجتماعي ولم تؤدي أجهزة الخلافة دورها بشكل مناسب.

---

١ - الحوادث الجامعة: ص١٤٧.

٢ - العسجد المسبوك: ج٢ ص٦١١.



الفصل الثانى

الأوضاع الاقتصادية في بغداد
في
أواخر العصر العباسي



الأوضاع الاقتصادية في بغداد في أواخر العصر العباسي

منذ تأسيس الخلافة العباسية سنة ١٣٢ هـ وحتى نهاية القرن السادس الهجري لم يمر اقتصاد دولة الخلافة العباسية بمشكلات خانقة وحادة كما هو في العقود الأخيرة من عمر الخلافة العباسية، فقد تعرّض الاقتصاد فيها إلى هزات عنيفة، أودت بحياة الكثير من الناس، وتهدمت كثير من الدور وتقلّبت الأسعار إلى الزيادة والارتفاع، كما أن الزروع هي الأُخرى تلفت، والمخازن أنفقت. أما الخلفاء فكانوا لا يملكون مفاتيح الحل أمام الأبواب الموصدة للأزمة الاقتصادية وخاصة الخليفة المستعصم الذي لا يتقن شيء سوى العجز، والانتقال من دار إلى دار خشية أن يلاحقه الفيضان. وفي هذا الفصل سنتناول الأوضاع الاقتصادية في بغداد لنقف على مرسى الحقيقة التي توزعت على صفحات الكتب:

المطلب الأوّل: الصنائع والحرف في بغداد

في العصر العباسي الأخير كان هناك مجموعة من المِهن التي يزاولها الناس في حياتهم فهناك البزازون وتجار البز وهم كثير ونذكر على سبيل المثال أسماء بعض منهم مثل علي بن أحمد البزاز، وعلي بن محمد الناقد البزاز [1] وهناك الخياطون نظير علي بن أبي الفوارس المقرئ الخياط

١ـ تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار البغدادي ي: ص ١٠٧، وتاريخ الحافظ أبي عبد الله بن الدبيثي:ص ٣٥.

المعروف بالشير باريك والذي قدم بغداد واستوطنها، وكان حاذقاً في الخياطة وقد توفى سنة ٦٥٠ هـ [١]. ومن أصحاب المهن العطارون ومن الأمثلة منهم عبد الواحد بن عبد السلام بن سلطان بن باختيار من أهل باب الأزج [٢]. وهناك صنف النحاسين علي بن أحمد بن علي بن محمد أبو القاسم الأسدي النحاس وهناك الحلاج مثل عمر بن حسن بن معاوية أبو حفص. والخباز مثل عبد الواحد بن أبي الحسن بن أبي نصر بن عبد الله من ساكني سوق السلطان [٣].

وهناك الخفافين مثل عبد الوهاب بن محمد الصابوني وكان له دكان يبيع فيه خفاف النساء، وهناك الوراقون ولهم سوق حيث ينتشر فيه النسخ وصناعة التجليد. ومن أصحاب المهن أيضاً الدلالون في الأسواق ومن الأمثلة عنهم عبد الملك بن أبي الفتح بن محاسن أبي الشجاع الدلال المعروف بابن البلاع (ت ٦١٨ هـ) من أهل دار القز وكان دلالاً في الإبريسم [٤]. ومن الصناعات صناعة السفن والزوارق [٥].

---

١ ـ عيون التواريخ: ج ٢٠ ص ٧٣.

٢ ـ تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار البغدادي: ص ١٠٧، وتاريخ الحافظ أبي عبد الله بن الدبيثي: ص٣٥.

٣ ـ المصدر نفسه: ص ١٠٧.

٤ ـ المصدر نفسه: ص١٠٨.

٥ـ السلوك لمعرفة دول الملوك: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، ج ١ ص ٤٩٠، دار الكتب العلمية بيروت.

وهناك الصباغين وتوجد مشرعة باسمهم [١]. وصنف النساجين ومنهم أبو نزار النساج الذي توفي سنة ٦٣٤ هـ وكان يسكن بالرباط المستنصري بدار الروم عند الرصافة [٢]. وتوجد في بغداد صنعة الوكالة وكتابة الشروط والكتب الحكمة ومن الأمثلة أبو البركات بن أبي جعفر الوكيل [٣].

وهناك الصاغة والجوهريين الذين أطلق لهم ديوان حظية [٤] الخليفة المستنصر حسنة شهرية [٥] صناعة التكفيت [٦] بالذهب والفضة أو تكفيت البرونز بالنحاس الأصفر فقد كانت بالعراق وانتقلت هذه الصناعة إلى مصر في النصف الثاني من القرن السابع الهجري في أعقاب الغزو المغولي للعراق قد جلب أهل الحرف منهم بعض أساليب بلادهم الفنية، وتأثر المعمار المصري ببعض المؤثرات الفارسية والعراقية [٧]. ومما تقدم يظهر حجم الأصناف للحرف والمهن المختلفة في بغداد.

---

١ ـ ذيل تاريخ بغداد: ابن النجار: ج ١ ص ١٧٢.

٢ ـ المصدر نفسه: ج ١ ص ٣٠٦.

٣ ـ المصدر نفسه: ج ١ ص ٣٢٥.

٤ ـ حظية: كناية عن المرأة السيدة.

٥ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٩٩.

٦ـ التكفيت: أسلوب خاص في زخرفة المعدنية تحفر فيه الرسوم ثم تملأ الشقوق التي تؤلف هذه الرسوم بقطع أخرى من مادة أغلى قيمة.أنظر العراقيون في مصر في القرن السابع الهجري:ص٢٣

٧ ـ العراقيون في مصر في القرن السابع الهجري: ص ٢٣.

المطلب الثاني: الأسواق في بغداد

تتخلل بغداد عدة أسواق فبعضها يقع في الجانب الشرقي [١] كما هو بالنسبة إلى سوق الثلاثاء الذي يقع في خان الصفة [٢]، وأيضا سوق العجم[٣] وهناك أسواق تقع في الجانب الغربي كما هو في السوق المجاور لدار باختيار [٤] وتوجد عدة أسواق أخرى في بغداد مثل سوق السلطان [٥]، وسوق الوراقين [٦]، وسوق المدرسة [٧] وسوق المارستان الذي يتوسط مدينة الشارع ومحلة باب البصرة [٨]. بالإضافة إلى وجود دكاكين متفرقة مثل دكان أبو الفتح الخفاف الحنبلي والذي يقع بدرب الدواب [٩] وهذه الأسواق العديدة تشير إلى مدى حجم معاملات البيع والشراء والتي تشمل مختلف الأجناس والمواد الغذائية التي يحتاجها الناس.

---

١ ـ الحوادث الجامعة: ص ١٥٣.

٢ ـ تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار: ص ١٠.

٣ ـ الحوادث الجامعة: ص ١١٥.

٤ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦١٥.

٥ ـ تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار: ص ١٠٨.

٦ ـ المصدر نفسه: ص ١٠٨.

٧ ـ الحوادث الجامعة: ص ١٠٦.

٨ ـ رحلة ابن جبير: ص ١٨٠.

٩ـ تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار: ص ١٠٨.

المطلب الثالث: أصناف المبيعات وتقلّب أسعارها

تشمل الأجناس المبيعة مختلف المواد سواء كانت غذائية أو ضرورية أو كمالية، حيث كانت الأسواق عامرة بتلك المبيعات، فتوجد الحنطة والشعير والتمر والعسل والحلويات، وحتى المبيعات الخاصة لعلف الحيوانات مثل التبن، ومبيعات الوقود والطهي حيث يبيعون الحطب ويجعلونها على شكل جزرة أو كارة[١]، أو بيع الماء وغيره إلا أنّ الذي يلاحظ في تلك الأسواق هو التقلّب الكبير في أسعار الأسواق حيث ترتفع الأسعار باستمرار ويسود الغلاء فيها، ففي سنة ٦٤٣ هـ « غلت الأسعار ببغداد، حتى بلغ الكر من الحنطة تسعين ديناراً، والتبن كل ألف رطل[٢] بخمسة دنانير، وكان مع هذا لا يكاد يوجد في الأسواق إلا الخبز الفائق السميذ [٣] »[٤]، وفي سنة ٦٤٦ هـ غلت الأسعار للمواد الغذائية [٥].وتلعب العوامل المناخية كالأمطار دور في ارتفاع أسعار المواد في بغداد وسائر أرجاء بلدان الخلافة العباسية فقد

١- الكارة: مائتان وأربعون رطلاً بغدادياً، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، بدري محمد فهد: ص٣١٥

٢- الرطل: أربعمائة وثمانين درهم. انظر: النقود العربية والإسلامية وعلم النميات: الأب انستاس الكرملي: ص٣١.

٣ـ والخبز السميذ: هو المصنوع من الطحين الأبيض المنقى من النخالة تاريخ بغداد في العصر العباسي الأخير: ص٣٧٧.

٤ـ الحوادث الجامعة: ص١٠١.

٥ ـ المصدر نفسه: ص ١١٣.

عانت مكة أيضاً من الغلاء بسبب الأمطار في سنة ٦٤٩ هـ [١]. وأحياناً يدخل العامل السياسي في التأثير على الأسعار نظير ما حصل في سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ حيث « وقع الغلاء بسائر البلاد، وارتفعت الأسعار بدمشق وحلب وأرض مصر، وأبيع المكوك القمح بحلب بمائة درهم، والشعير بستين درهما، والبطيخة الخضراء بثلاثين درهما، وبقية الأسعار من هذه النسبة» [٢].

ويبدوا أنّ المواد الغذائية كانت متوفرة عند ذوي الثروة والجاه بحيث إن المسؤول عن إعداد الإقامات عرض قائمة بأسماء محتويات مطبخ الإقامات، فكانت تحتوي على كميات كبيرة من المواد الغذائية المتنوعة، الأمر الذي يعكس جانباً من حقيقة الأوضاع الاقتصادية « قال ابن الخازن: قرأت بخط متولي الإقامات بالمخزن ما هذا صورته: المحمول من مطبخ الإقامات الكريمة إلى الباب الشريف برسم المهم المبارك في شهر ذي الحجة سنة أربع وأربعين من الأجناس مائتين وعشرين ألف رطل خبزا فايقاً ألفان وتسعمائة قطعة دجاجاً، وألف وخمسمائة رأس غنم مشوية، خمسون ألف وتسعمائة بيضة، ألف وأربعمائة رطل سكراً أبلوجا برسم الجلاب[٣]، ثلاثة اكـــرار خشكنان وأقـــراص، ألف وسبعمائة صحناً حلوى رطبة، ألف

١ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٨٣.

٢ ـ المصدر نفسه: ج ٢ ص ٤٩٩.

٣- الجلاب: ماء الورد. تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير: ص٣١٤.

وخمسمائة يابسة، خمس كارات دقيق برسم السنبوسج[١]، ثلاثة آلاف وتسعمائة مقلوبة، خمسة آلاف رطل شمعاً وإحدى وستون موكبية، سبعون ظرفاً ماء ورد، صورة فروقة مشاهرة رطبة ويابسة، ابريقاً خزفا مائتا جرة ألف شربة موزوناً رفاعا وخمسون مركنا بالحكاتة خمسون بعاراً خزفاً، ألف وسبعمائة مركنا ماء ورد، خمسون صحنا مهلبية وتسعمائة رطل فستق وبندق، وثلاثمائة سلة فاكهة، ثلاثون قطعة صور سكر غزال وحملان وكبش الجبل وزرافة وفيل وكباش تركية وخمسون توراً ذهبا وفضة، وبخطه أيضاً. الذي وصل إلى مطبخ الإقامات الكريمة من خزانة الحوائج المحروسة في التاريخ المقدم ذكره عشرة آلاف (رطل قند ألفا رطل لوزاً خمسون جرة شيرجا خمسون ألف رطل شمعا خمسون منا اسريجا ألف) ظرف ماء ورد وخمسون ظرفا ماء الليمون ثلاثمائة رطل نشا خمسون ظرفا خل خمر ألف وخمسون رطلاً سماقاً عشرة مطابق ماء الحصرم ثلاثمائة رطل حب رمان خمس مطاوتق مري ثلاثمائة رطل ملحا ونصف رطل زعفران عشرة مطاوتق ماء الاتراج ألف وخمسمائة صحنا خزفا وتسعمائة سداً وسطانياً»[٢].

فهذه المجموعة الضخمة من المواد الغذائية تعطي صورة عن توفر المواد الغذائية المختلفة في بغداد وضواحيها.

أمّا العملات النقدية المتداولة آنذاك فهي الفئات النقدية كالدينار

١- السنبوسج: فطائر مثلثة تعمل من رقاق العجين المعجون بالسمن وتحشى بقطع اللحم والجوز، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير: ص٣١٥.

٢ ـ المصدر السابق: ج ٢ ص ٥٤٥ ـ ٥٤٧.

والدراهم[١]، والحبّة والقيراط[٢]، وقد كان القيراط والحبّة أقل فئتين نقديتين عندهم، وقد كانوا يبيعون الخبز كل ثلاثة أرطال بقيراط[٣]، وقد ضربت الدراهم بدلاً عنها لأنها فئة نقدية ذات قوة شرائية صغيرة إلا أنه لم تقطع الصلة بالتعامل بها في زمن المستعصم، وغالباً ما كان يتعامل بها أصحاب الدخل المحدود من الطبقات الدنيا من المجتمع فيجدون صعوبة في ذلك ثم شاع التعامل بالدرهم،ففي سنة ٦٣٢ هـ « ضُربت ببغداد دراهم، وفُرقت في البلد وتعاملوا بها، وإنما كانوا يتعاطون بقُراضة الذهب، القيراط والحبّة ونحو ذلك فاستراحوا »[٤].

وبعد ذلك بثلاثة عشر عاماً تم إبطال المعاملة بالدراهم، فعند سنة ٦٤٥ هـ «شاع ببغداد أنّ الديوان قد عزم على إبطال المعاملة بالدراهم، وأن يتعاملوا بالقراضة الصورية، وسبب ذلك أنّ الدراهم كثرت في أيدي الناس وقل الذهب وتجافى الناس أخذها حتى بيعت: كل اثني عشر درهماً بدينار، فتألم الناس مما يلحقهم في ذلك من الخسارات فيها، فأمر أن يضرب دراهم جيدة، يتعامل بها الناس كل عشرة دراهم بدينار، وتؤخذ تلك التي تألموا منها كل عشرة دراهم ونصف دينار، فتألموا من ذلك أيضاً، فتقدم أن يؤخذ العتيق كل اثني عشرة درهما بدينار، وتكون الدراهم الجدد كل أحد عشر

١- (والمعروف أن الدينار: قطعة الذهب، والدرهم: قطعة الفضة). النقود العربية والإسلامية: ص٣٠.

٢- (القيراط: طسوجان، والطوسج حبتان، والحبة: هي حبة الحنطة) النقود العربية والإسلامية: ص٣٢.

٣ ـ تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤٧ ص ٣٦.

٤ ـ العبر في خبر من غَبر: شمس الدين الذهبي: ج ٢ ص ٢٢٧.

درهماً ونصف بدينار »[١].

ونلاحظ أنّ ضرب عملات جيدة وجديدة ينعكس أثره على الناس ويشكل مشكلة لهم، كما أنّ الديوان وحلوله لتبديل العملات هي حلول غير مدروسة ومتسرّعة، ولذا يتراجع الديوان إلى حل آخر، وهناك ظاهرة في غاية الأهمية وهي مراعاة الديوان لحال الناس وتحسسه لضيقهم المعاشي فيستجيب لهم.

المطلب الرابع: العوامل الطبيعية وتداعياتها

خلال الفترة الأخيرة من الخلافة العباسية توالت الأمطار والسيول وتغيرت درجات الحرارة، ووقع الناس ضحية لتلك الظروف الطبيعية وانعكس أثر ذلك على الحالة الاقتصادية، فلا تكاد تأتي سنة أو فصل إلا وانعكس أثره الطبيعي والمناخي عليهم.

ومما ساعد على تضخم مشكلات الناس وتداعي أحوالهم المعاشية نحو الأسوأ عدم قدرة الخلافة والمعنيين بالشؤون الاجتماعية والاقتصادية على تخطي هذه العقبة التي يتكرر مشهدها.

وفيما يلي العوامل الطبيعية والمناخية وتأثيراتها:

---

١ ـ الحوادث الجامعة: ص ١١١ ـ ١١٢.

ألف ـ الأمطار

فعندما يأتي الشتاء تكثر الغيوث وترتفع نسبة مياه الأمطار إلى عدة أذرع تتراوح بين ٤ـ ٦ أذرع في أحسن الأماكن ببغداد، وتمتلأ الأزقة بالمياه والمستنقعات، والتنقل من محلة إلى أُخرى يكون بواسطة السفن، ويرتفع مقدار الماء بحيث يحمل الرجال أولادهم على أكتافهم من الغرق وربما يأتي أحدهم سباحة ليصل إلى المحل الذي يريده. ويأتي المطر على بعض القرى فيقوم بتخريبها ويشتد المطر فيقوم بتخريب دور كبار الدولة بما فيهم الخليفة والوزير فينتقلون من محل إلى آخر، فإذا كان هذا هو حال ذوي القدرة والسلطان فما بالك بضعفة الناس وبيوتهم الوهنة، وقد ذكر المؤرخون تفصيلات كثيرة تشير إلى مدى تأزم الأوضاع الاقتصادية.ففي سنة ٦٤٦ هـ « وقع ببغداد وأعمالها مطر كثير، قتل كثيراً من الحيوان قيل: كان وزن البردة[١] حدود ثلاثة أرطال»[٢]، وربما يكون قتل الحيوان من الصعب تصديقه إلا أنّ ذلك لا يمنع أن تكون آثاره التي تتبعه من البرد والمطر عوامل تساعد في أن يفقد الحيوان مناعته وقوته، أو أنّ البرد كان قد سقط بكثرة أو بحجم معين إلا أنّ هناك تضخيماً لهذا الحدث المناخي. ومرّة أُخرى في نفس السنة ٦٤٦هـ تأتي الغيوث بوابلها متتالية «في شوال، تواترت الغيوث حتى امتلأت

١ـ البرد: حب الغمام. الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري، ج ٢ ص ٤٤٦، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار.

٢ـ الحوادث الجامعة: ص ١١٣.

البواليع واستجد عوضها وامتلأت أيضاً، وتعطل على الناس معظم أشغالهم، وكان ذلك عاماً ببغداد وتستر وأربل والموصل وغير ذلك من البلاد حتى منع الناس عن الزرع وغرقت القرى وهدمت الدور وتشثت قلعة أربل، وانهدمت قلعة الكرخيني بالمرة، امتلأت الزابات »[١].

الأمطار الكثيرة كانت ترافقها أو تتلوها آثار حيث قتل كثير من الحيوانات بسبب البردة أو المطر المفصص الكبير الذي يشبه الحصى حين نزوله لتصلبه، وليس هذا فحسب؛ بل أنّ المجاري هي الأُخرى تضررت مما يسبب ذلك انسياب الماء بشكل يصعب السيطرة عليه، أما الناس فمنعوا عن الزروع لطغيان الماء، وفي هذه الحادثة إشارة دقيقة إلى نسبة الأمطار النازلة، حيث أدت إلى غرق القرى وهذا يعني أن معدل ارتفاع مياه الأمطار بلغ حداً ينتصف ارتفاع البيوت أو يعلو عليها بحيث أصبحت تلك القرى من شدة تشبّع أبنيتها بالماء هشة فتهدمت لتكون جزء من الماء، أو أكوام من الأحجار الثقيلة مما بها من الماء وفي سنة ٦٥١ هـ «توارت الغيوث حتى ملأت البلاليع، وصار الماء في الدروب كالغدران حكى القاضي أبو المعالي القاسم بن أبي الحديد أنه رأى غسالاً بقصعة (بين الدربين) يغسل كما يغسل في شاطئ دجله »[٢]. ويتكرر مشهد المطر في سنة ٦٥٢ هـ فقد « وقع ببغداد وأعمالها غيث كثير، تبعه برد كبار كالبندق وأظلم الجو، فتصرع

---

١ ـ الحوادث الجامعة: ص ١١٤.

٢ ـ المصدر السابق: ص ١٣١.

الناس إلى الله تعالى، ولجأوا إلى الاستغفار، فكشف الله ذلك »[١]. وفي سنة ٦٥٣ هـ وقعت غيوث كثيرة ببغداد والموصل[٢]. وحصل في هذه السنة الغرق العام الذي خرب أكثر بغداد لاسيما دار الخلافة، والدور الشطانية من الجانبين وانتقال الناس من دورهم وتضاعف أُجرة المساكن الشيعة في أطراف البلد[٣] وفي هذه السنة أيضاً أتلف سرحاً كثيراً من البقر والغنم والراعيين[٤] وهكذا تستمر الظروف المناخية ويقع الناس ضحية سهلة تحت تأثيراتها.

ب ـ الفيضانات

أمّا فيضانات الأنهار وتحديداً نهري دجلة والفرات والأنهار المتفرعة عنهما مثل نهر عيسى ونهر الملك وصرصر فإنها كانت وبصورة دائمة على زيادة في مناسيب مياهها مما يؤدي ذلك إلى أن يخرج النهر عن مجراه ويدخل إلى الدور والدروب وغالباً ما تكون هذه الزيادة مترافقة مع هطول الأمطار وكانت الفيضانات تؤدي إلى إتلاف المحاصيل الزراعية وتشل الحركة في داخل المدينة بالإضافة إلى أنها تؤدي إلى هدم الدور ويظهر من خلال الأخبار التي دوّنها المؤرخون عن تلك الفترة أن الدولة كانت عاجزة

---

١ ـ الحوادث الجامعة: ص ١٣٤.

٢ ـ المصدر السابق: ص ١٣٥.

٣ ـ الحوادث الجامعة: ص ١٤٧.

٤ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦٠٨.

تماماً عن معالجة هذه المشكلة وتقوم بإجراءات لا تفرق عما يقوم به الناس من الانتقال من مكان إلى مكان، ولا توجد إجراءات لدرء خطر الحوادث المترقبة أو غير المترقبة، سوى تلك التي اشترك فيها الوزير بحمله حزمة حطب لمساعدة الناس، أو قيام أحد المحسنين بمساعدة المتضررين من جراء الفيضانات وقد قدّم مبلغاً نقدياً يناهز عشرة آلاف دينار، وللإطلاع أكثر سنقوم بإيراد تلك الحوادث ففي سنة ٦٤٦ هـ «زادت دجله زيادة مفرطة أعظم من الأولى، فانفتحت في القورج فتحه، وصاحب الديوان فخر الدين أبن الدامغاني هناك فنجا بنفسه مسرعاً ودخل البلد »[١] . ومرة أُخرى في سنة (٦٤٦هـ) تجمر الماء بدجلة وزادت زيادة عظيمة، غرقت الشطانيات بالجانب الغربي من بغداد، ومن فتحة انفتحت فوق قبر أحمد بن حنبل، غرق منها محلة الحربية والكرخ والمارستان والخلد ودار باختيار والسوق بأسره، من رباط الخلاطية إلى القنطرة، وقطعة من محلة قطفتا والشيخ بأسره والجنبشية ؟ ووقع قطعة من جامع فخر الدولة الحسين بن المطلب وقطعة من سور المشهد الكاظمي على ساكنه السلام، وجامع الحربية بأسره، وانتقل الناس من مساكنهم القريبة من دجلة إلى المواضع العالية، وساخ مسجد مجاور رباط ابن جهير على دجلة، يعرف بمسجد عشائر كان به حجرة ورواق وسقاية، ولم يبق له أثر، ولم تبلغ هذه الزيادة تلك التي كانت في سنة أربع عشرة وستمائة، وغرق في الجانب الشرقي ما كان ظاهر السور من مساكن كانت استجدت منذ أيام الخليفة بالله، وبولغ

---

١ ـ الحوادث الجامعة: ص ١١٥.

في عمارتها، وكان بها أسواق مادة، وحمامات وبساتين مثمرة، حتى كادت تشبه حاضر حلب أو سوق التركمان بالموصل، كان ذلك مما يلي سوق العجم، واجتمع بها خلق كثير من الزعماء والأجناد، فهدم الماء معظم ذلك وتلف من الأمتعة والغلات شيء كثير، ونبع الماء من أساس حائط المدرسة المستنصرية ومن دار سنقرجا زعيم خوزستان المجاورة للمستنصرية، ومن مسجد الحظائر المعروف بأم الناصر المجاور لهذه الدار، امتلأت الطريق وامتنع الناس من الجواز إلى هناك من باب سوق المدرسة إلى باب مشرعة الابريين، وكان من حيث تزايد الماء في دجلة، تقدم بأحكام القورج، وخرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمي إلى هناك ونزل عن فرسه حمل باقة حطب[1] فوافقه كافة الناس، واشتد العمل، فاتفق أنّ دجلة نقصت فأنشد الشعراء في ذلك أشعار، فمن جملة من قال في هذا المعنى، موفق الدين القاسم بن أبي الحديد ارتجالاً ولم يورده لكثرة الزحام وهو:

تلقيت دجلة لما طغت	وخـــاف البرية من مائها
بوجه يشابه بدر السماء	وكــف حكــت جود أنوائها
فلمــا رأتــك رأت عالماً	بطـــب المصــالح من دائها
فولــت حياء كما تزوّي	القبيحة من جنب حسنائها [2]

---

١ ـ الأنسب أن يقال: حُزْمَة من حطبٍ، أنظر فقه اللّغة: أبي منصور الثعالبي، ص٢١١.

٢ ـ الحوادث الجامعة: ص ١١٤ ـ ١١٥.

الدور الإجرائي للوزير ابن العلقمي:

كان الوزير ابن العلقمي يقوم بوظائف عديدة سواء تلك التي تختص بتعيين الأفراد وتنصيبهم في مسؤولية معينة، أو تلك التي تتعلق باتخاذ القرار المناسب، أو التي لها صلة في تمشية أُمور الناس.

ففي سنة ٦٥٤هـ وعندما زادت دجلة زيادة عظيمة وانفتح في القورج فتحة كبيرة عجز من يتولى استدراكها، عندئذ ركب الوزير وتبعه كافة الأُمراء والناس وحمل معه الحطب[١] من أجل سد تلك الثغرة أو الفجوة التي يتسرب منها الماء إلى الأماكن المأهولة بالسكان، ويذكر الغساني أن الوزير خرج مسرعاً ونزل عن مركوبه وسار إلى آخر القورج ونبه الناس على المواضع المستضعفة[٢].

إنّ هذا التدبير من قبل الوزير يكشف عن جدية الإجراءات، وأنه يشارك الناس فيما يتعرضون له، بل إنه يكون في مقدمة الذين يعملون من أجل تفادي خطر توسع اندفاع الماء من فتحة القورج.

وكان الوزير له صلاحية تعيين بعض الأفراد من أجل تمشية أُمور الناس المعاشية كما هو في تعيين عبد الله بن يوسف من قبل الوزير حيث قام ابن العلقمي باستدعائه ورتبه محتسباً، وخلع عليه، وتوجه ابن يوسف إلى دار بدر وجلس على دكة الدلوية، وأحضر جماعة من المتعيشين وتعهدهم على

١- الحوادث الجامعة: ص١٥٣.

٢- العسجد المسبوك: ج٢ ص٥٦٥.

البخس إن وجد في ميزان أحد منهم، واعتبر المكاييل وشدد في ذلك[١].

فالوزير من ناحية مادية يتمتع بوضع معيشي جيد إلا أنه لم يكتف بتأمين وضعه وإنما وجه اهتمامه إلى أوضاع الناس الاقتصادية عبر السيطرة على الأسعار، ومحاسبة الذين يرتكبون مخالفات اقتصادية من أجل الوصول إلى مستوى معين في تحقيق العدالة ولهذا قام بتعيين محتسب يتولى عملية مراقبة الأسواق ويدعوهم إلى التزام المعاملات الصحيحة.

فيضانات أُخرى:

وتستمر سلسلة الحوادث الطبيعية سنة (٦٤٦هـ) ففي هذه الحادثة تهدمت دور ومساجد وتلفت كثير من الأمتعة والغلات، وفي شدة طغيان الماء امتنع على الناس الجواز، وكان التدبير الذي اتخذه الوزير ابن العلقمي جدير بالتمجيد كما أشرنا حيث حضر بنفسه وحمل حزمة حطب مما دعا الناس إلى أن يقلدوه ويتبعوه، ويستشف من هذه لخطوة أن الوزير يشارك الناس في همومهم ومشكلاتهم إلا أنها خطوة فقيرة، وتحتاج إلى مثيلاتها من سائر أركان الدولة والناس. وإن كانت هذه البادرة في أثناء زيادة دجلة والمفروض بالخليفة أو الهيئة الإدارية وعلى رأسهم الوزير أن يستبقوا الفيضان قبل وقوعه ببناء سدود من أكياس الرمل، أو الصخر لتفادي هذه الكارثة أو فتح أنهار وجداول جانبية قبل الدخول إلى الحدود المحلية

١- العسجد المسبوك: ج٢ ص٥٢٩.

لبغداد أو بعد تجاوز بغداد للحيلولة دون سراية الماء إلى المدينة، أو التقليل من حجم الفيضان، وهذه الحادثة يظهر منها أن البيوت والعمارات السكنية تقع في مقربة شديدة من نهر دجلة، والمفروض بالشحنة أن يصدر أوامره بعدم المجاورة للأنهار من دون مراعاة فاصلة عادية طالما أنّ حوادث الفيضانات تتكرر في كل سنة، وأفضل من ذلك أن يكون بين الخلافة ومن تحت إمرتها من الأمراء والملوك والناس على وفاق من أجل مواجهة هذه الأخطار التي تنذر الناس بالموت، وبتفاقم المشكلات الاقتصادية.

ومن الفيضانات التي وقعت قبل سقوط الخلافة العباسية ذلك الذي وقع في سنة ٦٥١ هـ حيث « زادت دجلة زيادة عظيمة غرق بها كثير من مزروعات بغداد وغيرها »[١] ويبدوا أن الفيضانات ليست من مختصات بغداد في تلك الفترة، بل شملت أغلب أنحاء العراق، ففي سنة ٦٥٢ هـ زادت دجلة عقيب الغيوث الكثيرة وفتحت في القورج [٢] فتحة غرقت كثيراً من الزروع، وزاد الفرات زيادة عظيمة، غرقت عانة والحديثة وهيت والفلوجة، وانفجرت السدود الفراتية جميعها وغرقت الزروع[٣].

الفيضانات أدت إلى غرق الزروع، وتلف المحاصيل وذلك يجعل الوضع الاقتصادي في تدهور مستمر، وانهارت السدود، وعجزت الخلافة عن

---

١ ـ الحوادث الجامعة: ص ١٣١.

٢ـ القورج: هو نهر بين القاطول وبغداد، منه يكون غرق بغداد كل وقت تغرق وهو مجرى بناحية القورج عمله كسرى. انظر معجم البلدان: ج ٤ ص ٤١٢.

٣ ـ الحوادث الجامعة: ص ١٣٤.

مواجهة الأزمة الاقتصادية، وقد وصف الدكتور عودات سوء الأوضاع في العراق قبل الغزو المغولي وأجرى تقييماً لها حيث أدت إلى اختلال « الأمن وتدهورت الحالة الاقتصادية وخربت الأراضي حتى أنّ نصف أراضي العراق قد أصبح خراباً، هذا بالإضافة إلى أنّ إهمال نظام الري قد أدى إلى تحول أجزاء كثيرة من جنوب العراق إلى مستنقعات بعد أن كانت أراضيها عماد الاقتصاد العباسي »[١].

وفيضان آخر يشبه الفيضان الذي حصل لدجلة والفرات في سنة ٦٥٢ هـ يعود على الناس في السنة القابلة أدى إلى غرق كثير من بغداد وأعمالها، أما نهر الفرات فكان حصته أن غرقت عانه وحديثة وهيت إلى الغرب من العراق، وشمل الحلة والكوفة والنجف[٢] أما سنة ٦٥٤ هـ فقد «غرقت بغداد الغرق الذي لم يسمع بمثله زادت دجلة ما رأى مثلها وغرق خلق كثير ووقع شيء كثير من الدور على أهلها وأشرف الناس على الهلاك وبقيت المراكب تمر في أزقة بغداد وركب الخليفة في مركب وابتهل الناس إلى الله تعالى بالدعاء» [٣]. وهذه الزيادة في نهر بغداد لم تعهد إلا قبل قرن حيث «وقع هذا الغرق ببغداد في سنة أربع وخمسين وخمسمائة أيضاً. وبعد ذلك غير مرّة فقد غرقت بغداد عدّة مرات »[٤]. واستمر الغرق شهر ربيع الأوّل

---

١ ـ تاريخ المغول والمماليك: الدكتور أحمد عودات، ص ١١ ـ ١٢، دار الكندي.

٢ ـ الحوادث الجامعة: ص ١٣٥.

٣ ـ شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي، ج ٥ ص ٢٦٤.

٤ ـ تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي: ج ٤٨ ص ٢٣.

وجمادي «بحيث انتقل الخليفة إلى دار المسناة ودخل الماء إلى دار الوزير ودار الخليفة، وخرج محي الدين ابن الجوزي من دار الخليفة، وهو يومئذ أُستاذ الدار، وضرب له خيمة على تل عالٍ وجلس فيها هو وأهله، وغرقت خزائن الخليفة و الذخائر وجرى ما لم [يجر] قبله مثله، وغرق خلق كثير وذلك في ربيع الأوّل وجمادى »[١].وهناك تفصيلات عن حال الناس وأوضاع بغداد حيث حاول الناس بما فيهم الوزير والأمراء تدارك الفيضان أو الحد من ظغيانه إلا أنه كان « أطغى من السَّيل تحت الليل »[٢] فقد ذكر ابن الفوطي البغدادي عجز الناس في إيجاد مخرج من تمدد الماء فقد «انهزم الناس كلهم والماء في أثرهم فأحاط ببغداد، وغرق الجانبين منها، وهدم دوراً كثيرة بالحريم والمشهد وتلك المحال، وامتلأت أسواق الجانب الشرقي وخرج الماء من حيطان الدور والمنافذ والآبار والبلاليع وامتلأت دار الخليفة كلها ـ ما عدا الدار الشاطئية ـ فانتقل من بها إلى الغرب والسطوح، وتعذر الوصول إلى دار الخليفة إلا في سفينة أو سباحة، ونقل من مكان من أنساب الخليفة محبوساً في دار الشجرة ودار الصخرة إلى ديوان الزمام، وانتقل الوزير من داره إلى دار علاء الدين الطبرسي الدويدار، ثم دخل الماء إلى ديوان الزمان وليس له درج، فصار من بها واقفاً وبلغ الماء إلى صدره، وكل من له ولد صغير حمله على كتفه، وهم يستغيثون ويضجون، فحولوا إلى الحلبة وقد ذهب كل ما كان عندهم، وضربت لهم الخيم بها وكانت

---

١ ـ عيون التواريخ: ج ٢٠ ص ٨٧

٢ـ المستقصى في أمثال العرب: العلامة أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ت ٥٣٨ ص٢٢٣.

السفن والاكلاك[١] تسير في الريحانيين حتى تصل إلى باب العامة، وتحول كل من كان ساكناً في محال دار الخليفة، وتلف من الناس شيء كثير، وكان علو الماء في المدرسة النظامية زيادة على أربعة أذرع»[٢]، ففي هذه الحاتة يشاهد حتى أرباب الدولة بما فيهم الوزير قد وقعوا ضحية الفيضان، بل إن هذه الحادثة تشير إلى عجز الدولة عن اتخاذ إجراءات سريعة حتى أنّ الوزير ابن العلقمي نزح من داره إلى دار أخرى.

نعم هناك إجراءات متواضعة للدولة في نقل المعتقلين إلى أماكن أُخرى اكثر أماناً، ونصب الخيم للمتضررين، والطلب إلى الزعماء بالعودة لمزاولة أعمالهم وما شاكل ذلك.

واستمر فيضان دجلة وآثاره إلى شهر جمادى الآخرة من سنة ٦٥٤ هـ ، بعد أن سبب مشاكل عديدة في داخل بغداد وخارجها « وفي ثاني جمادي الآخرة نقص الماء بدجلة بحيث أمكن مد الجسر وعبر الناس عليه. وفيه أمر الخليفة على أرباب المناصب والزعماء بالعود إلى عوائدهم من الركوب بالطريق ورفع الغواشي وكان منذ ابتداء الغرق قد أطرح الناس ذلك تشبيها بالعزاء. وفي ثاني عشر جمادى الآخرة، صليت الجمعة في جامع القصر بعد أن انقطعت عنه سبع جمع. وفيه نضب الماء في المدرسة النظامية، وكان علوه بها ستة أذرع بالحديد »[٣].

١ـ الكلك: مركب يركب في أنهر العراق. بحار الأنوار: العلامة المجلسي، ج ٤٠ ص ١٦٦، مؤسسة الوفاء.

٢ ـ الحوادث الجامعة: ص ١٥٣.

٣ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦١٩.

ج ـ عامل الريح والحرارة:

أمّا عامل الريح والحرارة فكان له تأثيرات سلبية على الزروع ففي سنة ٦٤٥ هـ «هبّ هواء شديد أحرق كثيراً من الزروع وكسر كثيراً من النخل وقلع جملة من الأشجار »[١] وفي سنة ٦٥٣ هـ «هبّت ريح عاصف ألقت زيادة على ثلاثة آلاف نخلة من نخل الكوفة، وكذلك من نخل السيب»[٢].

وعامل ارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف تصاعدت وتيرته في مناطق العراق، حتى أودى بحياة عدد من الناس، وذلك في سنة ٦٥١ هـ « اشتد الحر حتى مات جماعة ممن كان يخرج من قرية إلى أخرى يكون بينهما دون الفرسخ »[٣]. الحرارة المرتفعة غير مقتصرة على الإنسان واستهداف حياته بل أيضاً على أعماله اليومية التي يقوم بها وأيضاً لها تأثيرات على الحيوانات حيث تحتاج إلى الرعي في الأماكن التي تجاور بغداد.

المطلب الخامس: الضرائب والرسوم

كانت ضريبة الخراج تؤخذ من الأرض، وهي المورد الرئيس لبيت المال

١ ـ الحوادث الجامعة: ص ١١٢.

٢ ـ المصدر السابق: ص ١٣٦.

٣ ـ المصدر السابق: ص ١٣١.

لذلك اهتم العباسيون بتنظيمها وجبايتها. ويقوم ديوان الخراج بالإشراف على هذه الضريبة وجبايتها من المزارعين، من مقدار الحاصل بنسبة تتراوح بين النصف والربع، تبعاً للواسطة التي يسقي بها الزرع وكلما كثرت نفقات السقي أو العمل اللازم له كلما قلت الضريبة التي تستوفيها الدولة، ويستوفي من مال الخراج النفقات الضرورية للخلافة واعطيات الجند والمتبقي يحمل إلى بيت المال ببغداد[١].

وفي العقد الرابع من القرن السابع الهجري بدا العجز في ميزانية الخلافة العباسية بسبب المشاكل التي يواجهها أرباب المزارع فالدولة لا تقدم حلولاً تساعد المزارعين كإيجاد السدود، أو عمليات السقي، وإنما المزارعين هم وحدهم يتحملون تبعات التقلّبات المناخية والكوارث الناجمة من الفيضانات، والمزارعين لا يدفعون الضرائب وكثرت الديون المتعلقة بذمتهم، وقد تذرعوا بعذر مذهبي أو سياسي في عدم دفعهم للديوان وهو وجود الوزير وأقربائه ومؤيديه، الأمر الذي أدى إلى عدم دفعهم الأموال بالكامل مما تسبب في أن تكون خزينة الدولة مصابة بالعجز، ففي جمادى الآخرة

سنة ٦٤٨ هـ « ظهر اختلال المخزن وقلّ حاصله حتى صارت مهام الخليفة تتعذر عليه أكثر الأوقات بعدم الحاصل وذلك بسبب مزارعة أرباب الجاهات وارتفع حساب الديوان بجملة أموال بقيت في ذمة المزارعين من [أرباب]

---

١ ـ تاريخ العرب في القرون الوسطى: ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

الجاهات وغيرهم، واعترف صاحب الديوان بالعجز عن تحصيلها فبرز الأمر إلى إقبال الشرابي حينئذ بإحضار الكاتب، فلما حضر سأله عن سبب تأخير استيفاء ما تضمنته الجريدة المخرجة من الأموال البواقي فعرّض بالوزير وأخيه وولده، وشيخ الشيوخ وجماعة من الخدام والرؤساء، وأرباب المناصب فأمر الشرابي باستخراجها فاستخرجت في أسرع وقت ومنع أرباب الجاهات بعد ذلك من الزرع منعاً كلياً فعادت الحال كما كانت أوّلاً واستاقت الأموال إلى المخزن وكثرت الحواصل »[1].

ويظهر من ذيل الخبر أنّ الديوان سلك سبيلاً جعلهم يدفعون ما بذمتهم بعد ذلك التمنّع، وهو إجراء ضروري عند تعدد الأعذار غير الوجيهة لأنهم عرّضوا بأكثر أعيان الدولة عدا أشخاص من قبيل الدويدار وابن الخليفة وأتباعهم وكان لديوان الخراج الصلاحية في إصدار الأوامر إلى المزارعين بالزراعة ومنحهم الأراضي، أو منعهم من الزراعة فلجأ إلى استخدام صلاحياته مما حدا بأرباب الجاهات إلى دفع الحواصل التي عليهم.

المطلب السادس: الصادرات والواردات

لكل دولة في ذلك العصر علاقاتها التجارية أو السياسية أو العسكرية، والخلافة العباسية كانت لها علاقات تجارية داخل البلدان التابعة للخلافة

١ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٧٧.

يتم من خلالها مبادلة السلع المختلفة سواء كانت عبارة عن ألبسة وأقمشة أو منتوجات زراعية، فقد كان التجار يذهبون إلى مصر حاملين معهم بضائعهم المختلفة، وكان هناك تاجر اسمه (سبحان) ينقل البضائع المصنوعة في بغداد من ألبسة فاخرة ومنسوجات مختلفة ويتردد في أزقة القاهرة، وبعد أن تنفذ بضاعته يقفل راجعاً إلى بغداد حاملاً معه بضاعة من هناك أخرى يرغب إليها الناس في بغداد[١]، ويكرر التجار رحلاتهم التي تستغرق مدة تزيد على شهرين بعد أن تمر في طريق متعرج ومتنوع من التضاريس، ومتعدد المناطق. وذات مرّة تعرضت القوافل التجارية التي كانت تروم بغداد إلى غارة من قبل إحدى كتائب المغول أدت إلى مصادرتها، وقتل أصحابها «وصادفوا قافلة سارت من حران تريد بغداد، فأخذوا منها أموالاً عظيمة، من جملتها ستمائة حمل سكر من عمل مصر، وستمائة ألف دينار »[٢].

وربما تنقل البضائع إلى بلاد أُخرى متخذة البحر مسرى ومرسى لها، فقد ورد في رحلات ماركوبولو عند وصفه لبغداد « ويمر في وسطها نهر عظيم[٣] ينقل التجار بواسطته بضائعهم من بحر الهند وإليه »[٤] وأشار ماركوبولو في رحلته أنّ الأجناس بالإضافة إلى نقلها إلى الهند تنقل أيضاً

١ـ شجرة الدر: ص ٩٥.

٢ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ ص ٤٧٧.

٣ـ يقصد نهر دجلة. بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب: د. عبد الجبار ناجي، وحسين داخل البهادلي، ص ٢٥٠.

٤ـ رحلات ماركوبولو:ترجمها إلى الإنجليزية ونشرها وليم مارسدن، وترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، ص ٣٨.

إلى أوربا مما يشير إلى وجود روابط تجارية بين عاصمة الخلافة العباسية وتلك البلدان « ويقوم ببلداش [١] صناعة الحرير المغزول بخيوط الذهب (القصب)، وكذلك صناعة الدمقس فضلاً عن القطيفة (المخمل) المحلاة بأشكال الطير والحيوان. وتكاد جميع اللآليء المنقولة إلى أوربا والهند أن تجري فيها عملية الثقب في هذا البلد »[٢].

ويظهر أن العلاقات التجارية لا تحتاج إلى معاهدة - بين تلك البلدان يتم خلالها تعيين كمية المواد المتبادلة والمدة المضروبة لها وكيفية نقلها، وتأمين الحماية لها - بل إن التجار في ذلك الوقت يجوبون البلدان من أجل تصريف سلعهم، أو جلب ما يرونه مناسباً لهم في إغداق الأموال عليهم أو ما يناسب مصلحة بلدانهم. وفي بعض الأحيان يلجأ زعماء البلدان إلى إرسال التجار إلى دولة معينة من دون الاتفاق المسبق معهم كما هو بالنسبة إلى تجار المغول الخمسمائة الذين أرسلهم جنكيزخان إلى دولة الخوارزميين في إيران وذهبوا ضحية لسطوة غايرخان فقد قتلهم وأخذ الأجناس التي بحوزتهم [٣]. مما شكل ذلك ـ فيما بعد ـ ذريعة يتوسل بها المغول للاستيلاء على البلاد الإسلامية. وهكذا نشاهد أنّ هناك تبادل تجاري من وإلى البلاد الإسلامية.

---

١ ـ بلداش: بغداد. بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب: ص ٢٥٠.

٢ـ رحلات ماركوبولو: ص ٢٥٠.

٣ ـ سيرت جلال الدين مينكبرني: شهاب الدين محمد نسوى، ص ٥٠ و٥١، تهران بنكاه.

المطلب السابع: دور الخلافة في الاقتصاد

يذكر ابن خلدون في مقدمته أنّ الخلافة الإسلامية تضطلع بدور بالغ الأهمية وهو: «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها»[١].

فدور الخلافة الاقتصادي هو تمكين الأفراد ومساعدتهم في تحسين أوضاعهم الاقتصادية والمعاشية. ويلاحظ أنّ الخلافة في العصر العباسي الأخير أصبحت سلبية في أدائها الاقتصادي، وخاصة فيما يتعلق بالأعراف السائدة فيما بين أعضاء الخلافة وأعيانها، حيث نجد أنّ هناك تكريس للثروة بيد فئة قليلة، وإهمال الفئة الكثيرة وهي غالبية الناس، فنرى الخليفة يقوم بإكرام الدويدار ومعه ولديه بعد أن شُك في ولائه للخليفة ويقومون بنثر طبقاً مملوءاً من الذهب ويقوم بتوزيع الخلع والأموال حيث خلع على نجم الدين خلعة مذهبة وأعطاه خمسمائة دينار ثم خلع على الفراشين الذين جاءوا في خدمته وأعطاهم مائة دينار ثم خلع على جميع أصحاب الديوان ونوابه ومماليكه وحجابه خلعاً جميلة[٢].

وتتمركز القوة الاقتصادية عند بعض الأشخاص كالخليفة، أو حظاياه، كانت شاهان إحدى حظايا الخليفة المستعصم، ولها باب وديوان ووكلاء وحكمت في الديوان وأقطعت القرى وملكت العقارات السنية بالإضافة إلى

---

١ ـ تاريخ أبن خلدون: ج ١ ص ١٩٠.

٢ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦١٩.

أنّ ثروتها النقدية تزيد على مئات الآلاف من الدنانير والدراهم[١]. أما الخليفة نفسه فعندما مَثِل بين يدي هولاكو قدّم جواهر نفيسه ودرراً معبّأة في أطباق ففرّق هولاكو جميعها بين الأمراء[٢]. وكان جديراً بالخليفة أن يفرّقها على أُمرائه أو على غيرهم !!. وكانت الهدايا كثيرة فيما بين أعيان الخلافة من بعضهم لبعض. وتتمثل بالتحف النادرة أو الأخشاب البديعة الصنع، أو الجمال والبغال وجياد الخيل وغيرها[٣].

ومما تقدم يظهر أنّ رجال الخلافة كانوا يتمتعون بإمكانيات مادية عالية وكان بإمكانهم أن يخففوا من حجم الضغوط الاقتصادية على الناس بتوزيع تلك التحف، أو أثمانها على الناس المحتاجين، أو توزيع الأموال المكدّسة في خزائنهم في الأمور الهامة مثل دواوين الجيش، أو تحسين الاقتصاد عبر تشجيع المزارعين إلى غير ذلك من القضايا التي تنعش اقتصاد الخلافة.

---

١ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٩٩.

٢ ـ تاريخ مختصر الدول: العلامة ابن العبري، ص ٢٦٩.

٣ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٧٨.



الفصل الثالث

الأوضاع السياسية
في
عصر ابن العلقمي



الأوضاع السياسية في عصر ابن العلقمي

تطاول عمر الخلافة العباسية، وورث الأبناء في إدارة دفتها وتعاقبت عليها الأجيال، حتى زارتها الشيخوخة في عصر المستعصم بالله، أو أصبحت خائرة القوى فلا تستطيع رد الأعداء ـ شرقاً وغرباً ـ الناهبين لخيراتها، ولا استجماع ما بقي من قوة لتقوم على أقدامها، وهكذا زلزلزت هذه الخلافة ثم زالت عن عمر يناهز خمسة قرون.

وقد ذكر المؤرخون أن « جملة خلفاء بني العباس سبعة وثلاثون خليفة أوّلهم عبد الله السفاح، وآخرهم عبد الله المستعصم وليس منهم إبراهيم بن المهدي ولا عبد الله بن المعتز. وجملة ما ملكوا من السنين خمسمائة سنة، وثلاثاً وعشرين سنة وسبعة أشهر»[1]. وكانت سياسة الخلفاء العباسيون في عصرهم الأوّل – والذي انتهى سنة ٢١٨هـ– تتسم بالقوة ثم بعد العقد الرابع من القرن الثالث الهجري أخذت سياستهم تتأرجح بين القوة والضعف وحتى عصرها الأخير حيث استطابت الضعف والمرض وجلس القيّمون عليها ينتظرون زائر الموت الذي جاءهم على يد المغول الغزاة.

وفيما يلي استعراضاً لأوضاع الخلافة السياسية والإدارية في عصر ابن العلقمي:

---

١ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦٤٦.

المطلب الأوّل: الحدود الجغرافية لبلدان الخلافة في عصر ابن العلقمي

كانت الخلافة العباسية مترامية الأطراف في عصورها الأُولى تشمل بلاد شبه القارة الهندية شرقاً ثم تحاذي بلاد الصين وتنحدر إلى الغرب منها أي شمال بلاد الإسلام لتضم إليها بلاد ما وراء النهر ثم إلى الغرب فتشمل بعض بلاد المغرب.

أمّا في عصر الوزير ابن العلقمي فقد ذهبت كثير من بلدانها لتصبح في حوزة أعدائها من المغول شرقاً والصليبيون في بلاد الشام، فقد ورد أن الأمصار التابعة لها أصبحت محدودة خصوصاً أثناء مجي المغول إلى بلاد إيران، كما أن الملوك والسلاطين أخذوا يستقلون بالبلاد التي يتولون شؤونها فلم يعد للخلافة نفوذ عليهم إلا من ناحية شكلية وذلك ما يفهم مما أورده الكتبي، فقد ذكر سنة ٦٥٤ هـ وتعرّض إلى الأمصار وملوكها «استهلت هذه السنة، وخليفة المسلمين الإمام المستعصم بالله... وصاحب مصر الملك المعز أبيك التركماني الصالحي أول ملوك الترك بالديار المصرية، وصاحب الكرك الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل الصغير، وصاحب دمشق وحلب وحران والرها إلى أرض الخابور، وحدود بلاد الموصل الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن السلطان الشهيد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وصاحب الموصل

وسنجار والجزيرة و[اعمالها] وما أضيف إليها من القلاع والبلاد الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول، وصاحب العجم هولاكو، وهم يفتحون[١] البلاد الإسلامية [أوّلاً] بأول»[٢].

وذكر اليونيني عدداً آخر من السلاطين والملوك لنفس السنة ٦٥٤هـ فقال: استهلت هذه السنة وخليفة المسلمين عبد الله المستعصم... وصاحب حماة الملك المنصور ناصر الدّين محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب وصاحب تل باشر والرحبة وتدمُر وزلوبيا الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن إبراهيم بن شيركوه [ابن محمد بن شيركوه] بن شاذي وصاحب المدينة الشريفة صلوات الله على ساكنها وسلامه الأمير عزّ الدين أبو مالك منيف بن شيحة بن القاسم الحسيني وصاحب مكة شرفها الله تعالى الشريف قتادة الحسني وصاحب ماردين الملك السعيد إيلغازي الأرتقي، وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر وخراسان وما وراء النهر وخوارزم وخلاط وبلد فارس ومعظم الشرف بأسره بيد التتار وصاحب الرّوم السلطان ركن الدين وأخوه عز الدين والبلاد بينهما مناصفة وهما في طاعة هولاكو ملّك التتار[٣]، وبلغة جغرافية أكثر تحديداً أنّ الذي يقع ضمن إطار الخلافة في عصر وزارة ابن العلقمي ولو من ناحية شكلية ما يلي:

---

١ ـ الأنسب أن يقول « يحتلون أو يأخذون...».

٢ ـ عيون التواريخ: ج ٢٠ ص ٨٦

٣ ـ ذيل مرآة الزمان: الشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، ج ١ ص ٣ ـ ٤، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

١) العراق: ويشمل بغداد والموصل وسنجار والكوفة وواسط والحلة.

٢) بلاد الشام: وتشمل دمشق وحلب وحماة وحران والرها.

٣) شبه الجزيرة: وتشمل مكة والمدينة.

٤) اليمن.

٥) مصر.

٦) أما إيران فكانت خاضعة للدولة الخوارزمية، فلم يكن للخوارزميين ارتباط بالخلافة بسبب الخلاف السياسي والمذهبي بين الخلافة والخوارزميين(١)، (انظر ملحق الخرائط، خارطة رقم ٣).

وهكذا يلاحظ أن تلك الأراضي الإسلامية الواسعة، تقلصت مساحتها بسبب الأطماع الأجنبية من جهة ، ونفوذ الملوك والسلاطين واستحواذهم على مقاليد السلطة ضمن حدودهم الإدارية كما هو بالنسبة للموحدين في المغرب من جهة أخرى.

١- أنظر: مغولان وحكومت ايلخاني در إيران: ص٢٩ـ ٣١.

المطلب الثاني: الخلفاء العباسيون المعاصرون لابن العلقمي

بعد وفاة الخليفة المستضي، تولى الخلافة من بعده ابنه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله وذلك في سنة ٥٧٥ هـ ، ويعتبر الخليفة الناصر من حيث التسلسل العددي للعباسيين الخليفة الرابع والثلاثون أما في تاريخ الحكومات الإسلامية فيعد الخليفة الثالث والخمسون، ومدة حكومة الناصر هي ٤٧ سنة وهي أطول فترة تولاها خليفة في بلاد المسلمين فلم يك لها سابقة معهودة من قبل وتوفي في سن السبعين من عمره. وكانت إحدى عيني الناصر كريمة [١] وتمتع الخليفة الناصر بكفاءة عالية في إدارة دفة الأمور وربما ساعده على ذلك انقراض السلسلة السلجوقية، الأمر الذي أدى في النهاية إلى تجديد مكانة الخلافة في حياة المسلمين.

وقد تغلّب على الكثير من المشكلات من خلال إيجاد تشكيلات وشبكات واسعة من الجواسيس في الأقاليم الإسلامية وتشبثه بالحيل السياسية المتنوعة، وبكلمة مختصرة يتدخل كثيراً ويصطدم قليلاً[٢]. أما موقف الخليفة الناصر لدين الله من الغزو المغولي للبلاد الإسلامية الشرقية فيلاحظ عليه أنّه ترك أمر مواجهة المغول في عهدة سلاطين تلك البلاد ولم يحرك جيشاً إليها، وابن الأثير يتحرج من ذكر موقف الخليفة الناصر فيقول: « فأنا أقدم إليه رجلاً وأُأخر أُخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعى

---

١ ـ تاريخ كزيده: حمد الله المستوفي، ص٣٦٦ ـ ٣٦٧.

٢ـ تاريخ حبيب السير: غياث الدين بن همام الدين الحسيني خواند مير، ج ٢ ص ٣٣٢.

الإسلام والمسلمين »[١]، كما أنّ ابن الأثير عندما يأتي إلى ذكر سبب خروج التتر إلى بلاد خوارزمشاه يطوي سبباً سمعه يمس سمعة الخلافة فيقول: فقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يُذكر في بطون الدفاتر:

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر[٢]

وعندما توفي الخليفة الناصر لدين الله أيد ابن الأثير ما ينسب للخليفة من أنه هو الذي أطمع التتر في بلاد المسلمين، فقال: « وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنّه هو الذي أطمع التتر في البلاد، وراسلهم في ذلك، وهو الطامّة الكبرى التي يصغر عندها كلّ ذنب »[٣].

وبعد وفاة الناصر، تولى الخلافة ابنه الأكبر الظاهر بأمر الله وذلك في سنة ٦٢٢ هـ، وكانت سياسته الإدارية والاقتصادية تختلف عن النهج الذي سلكه أبوه، فقد قام بحل شبكات التجسس وأطلق سراح السجناء وألغى الضرائب والعوارض التي كانت تؤخذ من المدن والقرى، إلا أنه توفى بعد مضي تسعة أشهر من حكومته وذلك في سنة ٦٢٣ هـ[٤]. وفي نفس السنة تسلم

١- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ج١٢ ص٣٥٨.

٢- المصدر السابق: ج١٢ ص٣٦٢.

٣- المصدر السابق: ج١٢ ص٤٤٠.

٤ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٤٤٢.

زمام الخلافة أبنه الأكبر أبو جعفر الملقب بالمستنصر وبقى في الحكم مدة سبعة عشر عاماً، واقتفى أثر أبيه في الحكم، وفي زمانه عاش الناس في هدوء نسبي وتخلصوا من القبضة الحديدية والضغوط الكبيرة لعهد الناصر، وحاول الخليفة المستنصر كسب ود الناس له، فهو يذهب لحضور صلاة الجمعة «إن المستنصر بالله كان يواظب على حضور الجمعة راكباً ظاهراً للناس، وإنّما معه خادمان وراكب دار، وخرج مرة وهو راكب فسمع ضجة عظيمة فقال: ما هذا؟ فقيل له التأذين، فترجل عن مركوبه وسعى ماشياً، ثم صار يدفن المشي إلى الجمعة رغبة في التواضع والخشوع، ويجلس قريباً من الإمام »[١].

وكانت الحياة الاقتصادية في عهد المستنصر أفضل بكثير من عهد المستعصم وذلك ما تشهد به كثرة عطاياه وصدقاته [٢] ثم تولى الخلافة بعد وفاة المستنصر ابنه عبد الله المستعصم وذلك في سنة ٦٤٠ هـ وكانت الأوضاع على مختلف الأصعدة في أدنى مستوياتها وانتهت خلافة بني العباس في سنة ٦٥٦ هـ على يد الغزو المغولي.

المطلب الثالث: التراتيب الإدارية في العصر العباسي الأخير

تعددت المسؤوليات الإدارية داخل سلطان الخلافة العباسية، وهذا التعدد

---

١ ـ البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٣ ص ١٣٣.

٢ ـ انظر: المصدر نفسه: ج ١٣ ص ١٥١ و١٦٣ و ١٨٨.

ليس بمعنى أن المسؤوليات كثيرة وبمستوى واحد، وإنّما يعني أن الوظائف متنوعة ولكل منها فلك تدور فيه، وفي الوقت الحاضر يرى القانونيونّ أن تقسيم المسؤوليات من مقومات الدولة، بل إن الدولة تقوم وترسوا سلطتها عبر المؤسسات[١].

إنّ المسؤولية الأُولى تقع على عاتق الخليفة فهو صاحب القرار الأخير في المسائل المهمة أو التي تستدعي تدخله، غير أنّ العصر الأخير لم يكن للخلفاء يداً في إدارة شؤون البلاد لأنهم كانوا محجوبون في قصورهم ولا يظهرون إلا نادراً والحكومة في أيدي غلمانهم[٢] وذكر اليونيني مدى نفوذ أرباب الدولة من أمثال الشرابي والدويدار في أمور الخلافة حتى أنهم هم الذين قرروا الخليفة الذي يتسنم الخلافة وحسب ما تقتضيه مصالحهم الشخصية، « وكان للمستنصر بالله أخ يعرف بالخفاجي يزيد عليه في الشهامة والشجاعة وكان يقول إن ملكني الله تعالى أمر الأُمة لاعبرنّ بالعساكر نهر جيحون وانتزع البلاد من يد التتر وأفنيهم قتلاً وأسراً وسبياً فلما توفي المستنصر بالله لم ير الدوادار[٣] والشرابي وكانا غالبين على الأمر واستبداده بالتدبير دونهم وآثروا أن يليها المستعصم بالله لما يعلمون من لينه وانقياده ليكون الأمر إليهم فاتفق رأي أرباب الدولة على تقليد المستعصم بالله الخلافة بعد أبيه فتقلدها واستبدوا بالتدبير »[٤].

---

١ ـ دولة القانون: ميشال مياي، ص ٢٠٦، المؤسسة الجامعية الدراسات.

٢ ـ محنة الإسلام الكبرى: مصطفى طه بدر، ص ٣٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣ـ الدويدار: كاتب الملك، تعريب دويت دار أي حامل الدواة. هامش العسجد المسبوك:ج٢ ص٥٩١.

٤ ـ ذيل مرآة الزمان: ج١ ص٢٥٥.

إنّ اليونيني يؤكد أن القرار يعود إلى طبقة من الأعيان وذلك يؤدي إلى قيام سلطة القلة كما يسميها القانونيون[١].

والخليفة بدوره هو الذي يستوزر من الناس أياً شاء، ويقوم بتعيين أُستاذ الدار. وتقع باقي المسؤوليات تحت سلطة الوزير، أو أُستاذ الدار ففي ربيع الأوّل من سنة٦٤٢هـ استوزر الخليفة أبا طالب وأمر عوضه في أُستاذية الدار محي الدين يوسف بن عبدالرحمن بن الجوزي[٢]. وعين الوزير ولدي يوسف أحدهما شرفه بتدريس الطائفة الحنبلية في المدرسة المستنصرية حيث استدعى الوزير أبو الفرج عبدالرحمن بن يوسف الجوزي لذلك. وأيضاً استدعى أخوه عبد الله بن يوسف الجوزي ورتبه محتسباً حيث أتى كل منهما إلى دار الوزير وخلع عليه اللباس المخصوص بالوظيفه، حيث يقوم بمراقبة المعاملات التي تجري في الأسواق، وأيضاً ينظر في الموازين ويحاسب على التطفيف أو البخس في الميزان، ويحدد المكاييل، كما أنّ الوزير رتب الحسن بن محمد الصغاني[٣] شيخاً لرباط المرزبانية[٤].

ويقوم الوزير بتعيين قاضي القضاة بعد أن يشافهه ويتم توليته بحضور عدد من الأعيان ويخلع عليه لباسه الخاص وهو أهبة سوداء كما هو بالنسبة إلى السراج عمر بن بركة، حيث تم استدعائه من قبل الوزير سنة

---

١ ـ دولة القانون: ص٢٠٠.

٢ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٢٨.

٣ـ كان الصاغاني أحد تلامذة الدمياطي، وكان إماماً في اللغة، وقد ألف كتاب العباب الزاخر في عشرين مجلداً للوزير ابن العلقمي وتوفى الحسن بن محمد الصاغاني سنة ٦٥٠ هـ وله مؤلفات عديد في اللغة والفقه والحديث تتجاوز سبعة وعشرون كتاباً. نقعة الصديان: محمد بن الحسن الصّاغاني، ص ١٩ ـ ٢٠، دار الكتب العلمية.

٤ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٢٩.

٦٤٩ هـ [١]. كما أنّ الوزير بإمكانه أن يقوم بتشريف الأشخاص الذين يراهم للإمارة نظير ما قام به إلى الأمير كشلوخان بن مجاهد الدين الدويدار أو نظير ولدي الأمير علاء الدين الطبرسي الظاهر وهما عبد الله واسحاق حيث الحقهما الوزير بالزعماء[٢]. والوزير في الغالب له مشرف ونائب وصاحب الديوان والشحنة[٣] ونائب الشرطة وخازن الديوان [٤]. كما أن أُستاذ الدار يقوم بتعيين شخصين للإنشاء والرسائل ولديوان الأبنية بالإضافة إلى النواب والحفاظ على حريم الخلافة واختيار الخدم والحجاب ورعاية الأموال، وهكذا بالنسبة إلى صاحب الشرطة حيث يقوم بتعيين من يريد من المساعدين له والحجاب، ذلك ما يلاحظ في الكتب التاريخية التي أوردت أحداث وخاصة فيما يتعلق بأعيان الدولة ومساعديهم، وفيما يلي تعريفاً لسلسلة المراتب في عصر ابن العلقمي:

١) **الخليفة:** وهو المسؤول الأوّل في سلسلة المراتب، ويكتسب مقامه صفة دينية وسياسية واجتماعية عند الناس، وله القرار الفصل في جميع القضايا التي يتحرك في إطارها أو يبت فيها، ويتولى الخليفة المنصب بشكل وراثي بعد مبايعة وتأييد أركان الدولة له، وفي عصر ابن العلقمي تولى

---

١ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٨٣.

٢ ـ المصدر السابق: ج ٢ ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨.

٣ ـ الشحنة: من فيهم الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان هامش سير أعلام النبلاء، ج٢ ص١٨٩.

٤ـ تاريخ العراق بين احتلالين: المحامي عباس العزاوي، ج١ ص ٢٠٤، منشورات الشريف الرضي.

الخلافة العباسية عدداً منهم وكان آخرهم عبد الله المستعصم والذي ولّاه الدويدار وإقبال الشرابي علْماً منهما بلينه وانقياده وضَعف رأيه، لتكون لهما الكبرياء[١].

٢) **الوزراة:** تعتبر من أرفع الوظائف في الخلافة العباسية، وكان أبو سلمة الخلال أوّل وزير في الخلافة العباسية[٢]، وآخرهم الوزير مؤيد الدين بن العلقمي.

والوزارة كما عرّفها ابن خلدون: هي أُم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأنّ اسمها يدل على مطلق الإعانة[٣]، أما القلقشندي فيعرفها بقوله: الوزارة وهي أجل الوظائف وأرفعها رتبة في الحقيقة وصاحبها هو المستقل بمباشرة الوظيفة نظراً وتنفيذاً ومحاسبة على الأموال[٤].

فالوزير هو عبارة عن الساعد الأيمن للخليفة، وتقع على عاتقه كثير من المسائل الإدارية والسياسية، ويقوم بتنصيب عدد من الوظائف، ويتولى الخليفة إقرارهم عليها، كما هو لوظيفة أُستاذ الدار، وقاضي القضاة، والمحتسب وغير ذلك.

٣) **الأُستاذ داريه:** وهو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان، أو الأمير

١- طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين عبد الوهاب السُبكي، ج٨ ص٢٦٢.

٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: أحمد بن على القلقشندي، ج١ ص١٢٧.

٣- تاريخ ابن خلدون: ج١ ص٢٣٦.

٤- صبح الأعشى: ج٤ ص٢٨ـ ٢٩.

وصرفه، وتنفيذ أوامره[١]، كما أنه يحضر اجتماعات الوزير مع أعيان الدولة في المناسبات الخاصة ويقوم بتحرير الرسائل ويساعد الوزير في استقبال وترتيب السفراء والرسل، وقد شغل هذا المنصب في عصر وزارة ابن العلقمي محيي الدين ابن الجوزي[٢].

٤) **أمير الجيوش:** وتقع في عهدته قيادة جيمع القوات التابعة للخلافة، وكان صاحب الجيوش إقبال الشرابي[٣]، قد شغل هذا المنصب في مدة تزيد على خمسة وعشرين عاماً.

٥) **الشحنة:** وهو الذي يعين من قبل الوزير ويقره الخليفة على منصبه وذلك لإدارة شؤون مدنية معينة، ويقابل هذا المنصب في وقتنا الحاضر أمين العاصمة، أو رئيس البلدية، وشغل هذا في عصر وزارة ابن العلقمي سنجر والذي قتل في أثناء غزو المغول بغداد[٤].

٦) **قائد الجند:** وهذا المنصب يشغله أحد المماليك الأتراك في ذلك الزمان وهو الدويدار، والذي يلقب بالأمير مجاهد الدين، ويقع هذا المنصب إدرارياً تحت سلطة أمير الجيوش غير أنّه تجاوز صلاحياته وأخذ يتسلل

١- هامش البداية والنهاية: ج١٣ ص٢٧٠.

٢- سير أعلام النيلاء: ج٢٣ ص١٧٦.

٣- هو جمال الدولة أمير الجيوش شرف الدين أبو الفضائل الحبشي المستنصري الشرابي، جعل سنة ست وعشرين وستمائة مقدم جيوش العراق، وبقي على هذا المنصب إلى حين وفاته في شوال سنة ثلاث وخمسين وستمائة- سير أعلام النبلاء-

٤- سير أعلام النبلاء: ج٢٣ ص٣٤٥.

إلى أروقة السياسة من خلال علاقته بابن الخليفة الأكبر، وذكر الدكتور مصطفى طه أن الدويدار كان رجلاً أنانياً يعمل لمصلحته، وقد اتبع طرائق شاذة حتى نال الحظوة عند الخليفة وأصبح أمره نافذاً في شؤون الدولة، فجمع الأوباش والعيارين حوله وأخذ يدبر المؤمرات لخلع الخليفة ويأتي بالأعمال المنكرة[١]. وجدير بالذكر أنّ الدويدار كان قد تزوج ببنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ـ والذي تعاون مع المغول في الهجوم على بغداد ـ وقتل مجاهد الدين الدويدار أثناء الغزو المغولي لبغداد[٢].

٧) **صاحب الشرطة:** ويتولى شؤون الأمن الداخلي وقد تولى هذا المنصب قبل سقوط بغداد عز الدين العلوي.

٨) **صاحب الديوان:** ويقوم بوظائف الاستقبال والتشريفات وشغل هذا المنصب أحمد ابن الدامغاني[٣].

٩) **السفارة:** وهي وظيفة يسند إليها من يرى فيه الخليفة علماً وفهماً، ومعرفة بالبلاد الإسلامية وحكامها كي يمثل الخليفة لدى الحكام[٤].

١٠) **مشيخة الشيوخ:** وهي وظيفة عالية المقدار، وموضوعها أنّ صاحبها يتحدّث في رزق الجوامع والمساجد والرُّبط والزوايا والمدارس، وما هو من ذلك على سبيل البرّ والصدقة لأناس معينين[٥]، وقد تولى هذا المنصب صدر

١- محنة الاسلام الكبرى: ص١٩٠.

٢- سير أعلام النبلاء: ج٢٣ ص٣٧١.

٣- العسجد المسبوك: ج٢ ص٥٦٣.

٤- تاريخ بغداد للمؤرخ ابن النجار: ص١٠٥.

٥- صبح الاعشى: ج٤ ص٣٩.

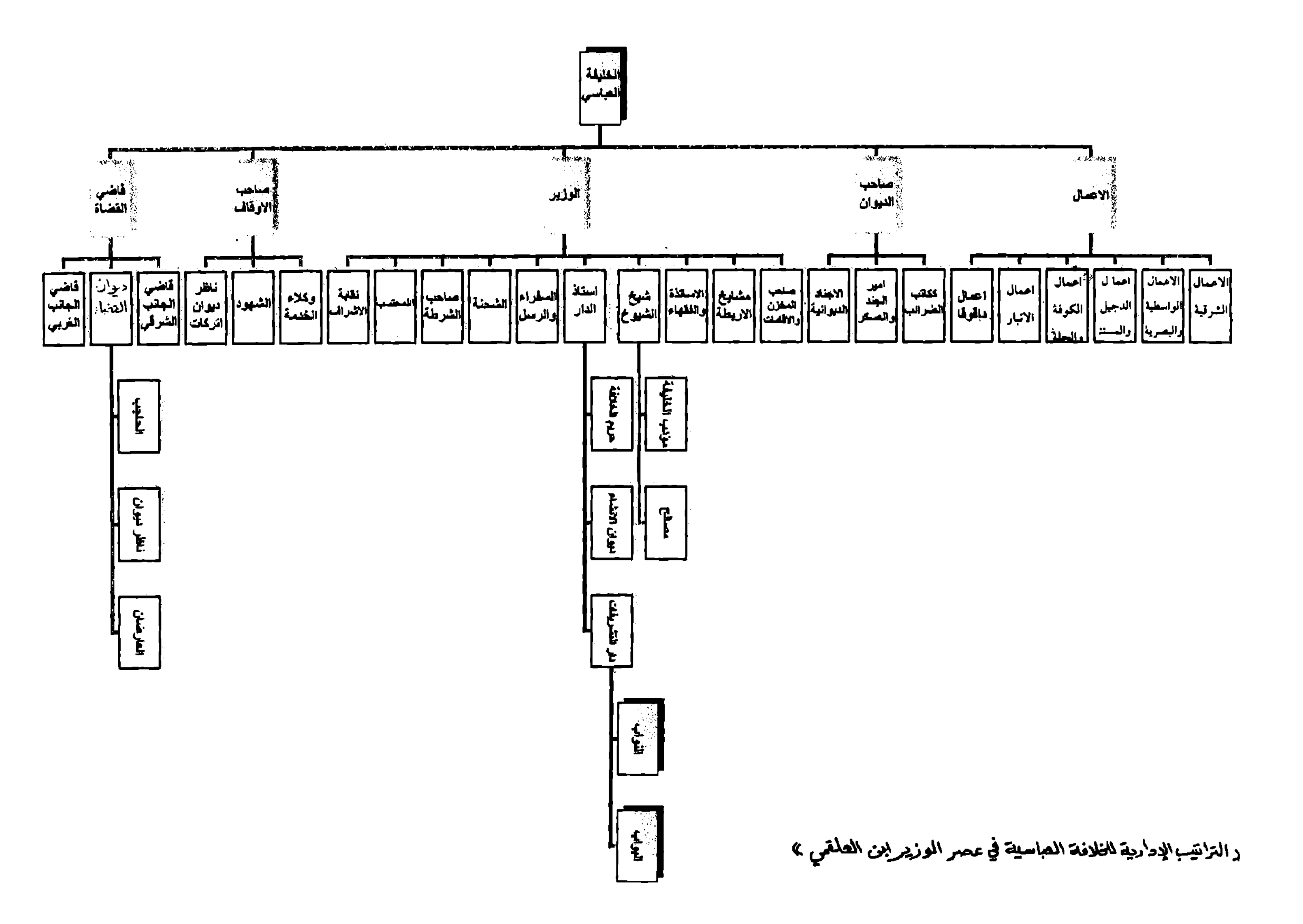
الدين بن النيار[١].

• ١١) **قاضي القضاة:** وهو أحد المناصب الدينية، وموضوعه التحدث في الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها، والقيام بالأوامر الشرعية، والفصل بين الخصوم، ونصب النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه[٢]، وقد شغل هذا المنصب كمال الدين بن اللمغاني.

١٢) **المحتسب:** وهو صاحب وظيفة رفيعة، وموضوعه التحدّث في الأمر والنهي، والتحدّث على المعايش والصنائع، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته[٣]، وغالباً ما يكون في الأسواق وقد رتب لهذا المنصب عبد الله بن يوسف الحوزي[٤].

١٣) **نقابة الأشراف:** وهي من المناصب الاجتماعية، وقد ذكرها القلقشندي بأنها وظيفة شريفة، ومرتبة نفيسة[٥]، وتشمل هذه النقابة العباسيين ويرأسهم أبو طالب الحسين بن أحمد بن المهتدي بالله، ونقابة الطالبيين ونقيبهم أبو الحسن علي بن النسابة[٦]، وإليك جدولاً تخطيطياً للمراتب الأدارية والارتباط بينها:

١- سير أعلام النبلاء: ج٢٣ ص٣٢٢.
٢- صبح الأعشى: ج٤ ص٣٥.
٣- المصدر نفسه: ج٤ ص٣٨.
٤- العسجد المسبوك: ج٢ ص٥٢٩.
٥- صبح الأعشى: ج٤ ص٣٨.
٦- سير أعلام النبلاء: ج٢٣ ص٣٢٢.



« الترتيب الإدارية للخلافة العباسية في عصر الوزير ابن العلقمي »

المطلب الرابع: مكانة الوزير ابن العلقمي بين أجهزة الخلافة

نظر للمؤهلات العلمية، والتجربة السياسية التي يمتلكها ابن العلقمي فقد أصبح رجل الدولة الأوّل فهو من ناحية المستوى العلمي يلاحظ عليه اشتغل عند عميد الرؤساء أيوب في الحلة وكان قد سمع الحديث واشتغل على أبي البقاء العكبري [١]. ويعتبر ابن العلقمي أحد فضلاء عصره [٢]. وقد تحول إلى الحياة السياسية بفضل خاله عضد الدين الضحاك الذي كان أُستاذ الدار في عهد المستنصر وبدأ حياته السياسية في ديوان الأبنية واشتغل بعلم الإنشاء وتدرج في المراتب الإدارية حتى وصل إلى أن يكون وزيراً للمستعصم العباسي [٣]. وقد تجاوزت الفترة التي عمل فيها ابن العلقمي في أروقة السياسية ثلاثة عقود زمنية مما أهلته هذه الخبرة في أن يقوم بوظيفته في عهد المستعصم بشكل ينم عن وجود خبرة إدارية وسياسية، ويدل على ذلك الطريقة الاحترازية والأمنية عندما يذهب الخليفة إلى خارج بغداد حيث يبقى الوزير في داخل بغداد لئلا يقع محذور في غياب الخليفة ولم يحضر الوزير ولا أُستاذ الدار في ترب الرصافة كما هو الحال في حضورهم عند وجود الخليفة في بغداد ففي جمادي الآخرة سنة ٦٤٥ هـ توجه المستعصم بالله إلى واسط وفي نفس الشهر « حضر من جرت عادته بالحضور في ترب الرصافة من أرباب الدولة والزعماء والمدرسين والفقهاء

١ـ الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، ج ١ ص ١٨٦، الناشر فرانز شتايز، ألمانيا.

٢ـ دائرة معارف بزرگ اسلامي: باشراف كاظم موسوي بجنوردي، ج ٤ ص ٣٢٨، وزارت فرهنگ وارشاد اسلامي، تهران.

٣ ـ انظر العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٦٤٠ ـ ٦٤١.

ومشايخ الصوفية والوعاظ والقراء والشعراء ولم يحضر الوزير ولا أُستاذ الدار لأجل سفر الخليفة»[١]. وقد اصبح الوزير ابن العلقمي صاحب مكانة كبيرة من بين أعيان الخلافة، حيث نرى أكثر رجال الدولة يراجعون ويحضرون إلى داره حيث يحضر عنده سائر أرباب الدولة وذوو المناصب وخاصة عندما يذهب على ما هو متعارف آنذاك إلى ترب الرصافة [٢]. ويلاحظ من خلال تتبع الأحداث التاريخية أنّ الوزير ابن العلقمي يقوم بمليء الفراغ في المناصب الاجتماعية مضافاً إلى المناصب السياسية حيث يقوم بتقليد بعض الوجهاء مثل إسماعيل بن الحسن المختار لنقابة الطالبيين[٣]، أو مثل شمس الدين علي ابن النسابة لنقابة العباسيين[٤]، ويقرأ عليهم العهد أو النصّ الذي تم تعيينهم به.

المطلب الخامس: العلاقات السياسية داخل حدود الخلافة العباسية في عصر ابن العلقمي

لتقوية الأوضاع السياسة داخل بغداد وتوابعها لابد من الاعتماد على العناصر ذات النزاهة والكفاءة ومن ذوي الإحساس بالمسؤولية والذين غالباً ما يجنحون إلى العمل ويرغبون فيه، وهناك خصيصة أهملها الخليفة العباسي وهي تنصيب الأفراد الذين ليس لديهم ميول مذهبية، أو شخصية تدفعهم إلى أداء وظائفهم وفق تلك الميول والنزعات، وبعبارة أُخرى أنّ

---

١ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٥٢.

٢ ـ المصدر السابق: ج ٢ ص ٥٦٣.

٣- المصدر السابق: ج ٢ ص ٦٠٤.

٤ـ المصدر السابق.

اختيار أي شخص لتسلم مسؤولية إدارية أو سياسية في أجهزة الخلافة لابد أن يكون شخصية معتدلة ومتعادلة ويهمه مصلحة الدولة لا مصلحة نفسه.

وكان المسؤولون في بغداد إبان عصر ابن العلقمي لديهم نوع من المودة والارتباط فمثلاً كان الركب المستعصمي عند ما يذهب ويتوجه إلى النزهة أو الصيد في شهر جمادى سنة ٦٤٦ هـ ، يذهب مع الخليفة عدد من والأمراء والكبراء مثل شيخ الشيوخ أبو المظفر علي بن النيار، وصدر الديوان ابن الدامغاني وغيرهم وعندما يرجعون من سفرهم توزع الصيود على الوزير وأرباب الدولة[١]. وقد يؤاخذ عليهم لهوهم ولامبالاتهم في الوقت الذي تتعرض فيه بلاد المسلمين إلى الغارة والنهب والإبادة. ويمكن الإشارة إلى أن هناك هدايا وخلع كانت تمنح لأرباب الدولة وفي سنة ٦٤٥ هـ «أنفذ الخليفة إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي دواة فضة مذهبة مع صلاح الدين عمر بن جلدك في جوفة، فخلع عليه ونظم الشعراء في ذلك أشعاراً كثيرة»[٢] وفي غرة شهر رجب سنة ٦٤٦ هـ أرسل الخليفة للوزير بفرس عربي، وجونة فيها ثلاثة كنابيش أبريسم[٣].

غير أن المودة بدأت تتكدر بين أركان الدولة عندما انتهى إلى سمع الخليفة بأن الدويدار الصغير يدبر في قلب نظام الخلافة لصالح ابن الخليفة أبو بكر الطموح، وقد وصلت العلاقة بين الوزير من جهة والدويدار وابن

١ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٦٣.

٢ ـ الحوادث الجامعة: ص ١٠٩.

٣ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٦٣.

الخليفة من جهة أُخرى إلى حد القطعية والعداوة؛ ففي سنة ٦٥٤ هـ نسب إلى مجاهد الدين أبيك العزم على الفتك بالوزير ثم بالخليفة المستعصم بالله فأزعجه ذلك وأنكره، ثم إنه استوحش من الوزير ومماليكه وخدمه وباتوا تلك الليلة مستعدين واستمر حال مجاهد الدين في الانزعاج وعدم الطمأنينة وأمر بملازمة العساكر بملازمة العساكر بابه بان يكونوا مستعدين بالسلاح ليلاً ونهاراً. ثم إن الخليفة آثر أن يزيل ما حصل عند مجاهد الدين من عدم الاطمئنان، وكان يكثر من جوازه في الشبارة مصعداً ومنحدراً، ثم إن صاحب الديوان أحمد بن الدامغاني شرع في ذلك، وتوسط في ترطيب العلاقة بين الدويدار والخليفة، وضمن إصلاح الحال، وترددت الرسل بينهما في ذلك، فاشترط مجاهد الدين شروطاً منها أن يكتب له الخليفة أماناً بخطه ويقرأه في ملأ من الناس فضمن له صاحب الديوان ذلك[1]. إنّ الدويدار كان بإمكانه أن يتخلص من الخليفة فعندما كشف الموضوع كان الجيش إلى جانبه فأصدر أوامره إلى جنده بأن يكونوا في حالة إنذار فقد ذكر الذهبي في تاريخه بأن الدويدار «لبس اللامة جُنده واستوحش من الوزير، فهاشت العامّة وعظم الأمر»[2] والمفروض بابن الدامغاني أن يتوسط في ترميم العلاقة بين الوزير والدويدار، أيضاً.

وهذه الحادثة أسرّها الدويدار في نفسه، وأظهرها للوزير في قضية الفتنة الطائفية في بغداد والتي قادها الدويدار وابن الخليفة في سنتي ٦٥٤ هـ و ٦٥٥ هـ حيث قادوا الجند وعوام الناس ضد الشيعة وقد أدت العداوة بين

---

١ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص٦١٧ ـ ٦١٨.

٢ ـ تاريخ الاسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤٨ ص ٢٤.

الدويدار والوزير إلى سيل من الاتهامات المتبادلة[١].

وهناك قرائن ربما يستفاد منها أنّ الدويدار كان يتعامل مع ابن الخليفة في خلع المستعصم، وهي وجود رابطة وثيقة بين هذين الشخصين تتجاوز الوظيفة المسندة إليهما، كما أن الانزعاج الشديد من ابن الخليفة الأكبر ضد الوزير يثير الشكوك، فليس هناك مبرر يجعل ابن الخليفة يتساوى في كرهه مع الدويدار ضد الوزير، فربما لأن الوزير ضيع عليهم الفرصة !! كما أن هناك أسئلة حول سلوك الدويدار وهو: لماذا لم يذهب الدويدار إلى الخليفة ويثبت براءته ؟ ولماذا اعتصم في بيته وأصدر أوامره للجيش بالتهيؤ والاستعداد ؟ ألا يعد ذلك تمرداً منه في وجه الخليفة والوزير؟ ! ولماذا يطلب أماناً كتبياً قبل أن يثبت براءة ساحته ؟ ولماذا بكى عندما وصل إلى الخليفة ولم يدافع عن نفسه ويعلن أمام الملأ أنه ليس لديه شيء؟! والخليفة اكتفى بذلك السلوك منه، هذه صورة عن العلاقات داخل أروقة الخلافة العباسية في سنينها الأخيرة في داخل العاصمة بغداد.

وأمّا العلاقات الأخرى التي كانت في عصر ابن العلقمي، فيمكن إيرادها بما يلي:

الفرع الأول: العلاقة بين الخليفة وملوك الأمصار

عندما استولى العباسيون على الحكم ظهرت بعض الدول نظير الأمويون

١ـ تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية: فاروق عمر فوزي، ص ٣٦٢.

في الأندلس حيث أعلنوا استقلالهم عن الخلافة، فقد استطاع عبدالرحمن الداخل أن يشكل دولة للأمويين في سنة ١٣٨ هـ بعد أن هزم إلى الأندلس[١].

ثم جاء الأدارسة واستولوا على أفريقيا والمغرب منذ سنة ١٧٣ هـ وبقوا في الحكم لمدة مائتين وسنتين وخمسة أشهر[٢].

وأيضاً ظهرت الدولة الفاطمية أواخر القرن الثالث واستمرت في الحكم على مصر والشام إلى سنة ٥٦٧ هـ.

أما في شرق الخلافة العباسية فقد «أصبحت مختلف أقاليم إيران منذ القرن الثالث تحكمها سلالات إيرانية وتحت نظر الخلفاء في بغداد. فكان الطاهريون ومن بعدهم الصفاريون ثم السامانيون نماذج لتلك الحكومات. فهذه الحكومات حينما أصبحت ذات قوة مستقلّة عن سلطة الخلافة في بغداد، أرغموها على تفويضهم صلاحية حكم تلك الأقاليم التي كانوا يسيطرون عليها. وبذلك أُتيحت لهم فرصة ثمينة لتكريس سلطتهم السياسية والدينية.

وإحدى الحكومات التي ظهرت في القرن الرابع الهجري هي حكومة آل بويه الذين انتهجوا نهجاً مغايراً للنهج الذي سلكته الحكومات التي سبقتهم، وتمثل ذلك بعدم الاكتفاء بحدود الولايات التي كانت خاضعة لسلطتهم بل

١- تاريخ ابن خلدون: ج١ ص٢٩٣.

٢- الأعلام، ج٢ ص٢١٠.

أخضعوا الخلافة وشخص الخليفة لسلطانهم»[١].

وبقي البويهيون في الحكم حتى سنة ٤٤٨ هـ حيث استولى السلاجقة على الحكم[٢] حتى حين مجيء الدولة الخوارزمية في إيران والتي امتدت فترة حكمهم من سنة٥٢٢ هـ إلى سنة ٦٢٨ هـ[٣].

إنّ ولادة الدويلات وانفرادها في الحكم أدى إلى ذهاب هيبة الخلافة العباسية، وإضعاف سلطتها المركزية على الأجزاء الجغرافية الخاضعة لها. وقد ورث الخليفة المستعصم العباسي أوضاعاً غير محمودة إذ أنّ الأجزاء الشرقية من البلاد الإسلامية قد استولى عليها التتر، ومصر وبلاد الشام وشمال العراق واليمن كانت خاضعة لملوك بني أيوب الذين يعترفون شكلاً بالخلافة العباسية وكانت الأندلس في حوزة الأمويين. وبلاد المغرب بيد الموحدين الذين لم يعترفوا بالخلافة العباسية إذ كانوا يرون أنهم أحقّ من غيرهم بالخلافة[٤].

أما العلاقات فيما بين ملوك الأمصار أنفسهم، وارتباطهم بالخلافة فهي متفاوتة في درجاتها، فهناك من يرتبط بالخلافة ويرى في ذلك إسباغ لشرعية إمرته على المصر الذي تحت سلطانه، ففي سنة ٦٥٤ هـ «سار الأمر شمس الدين سنقر الأقرع رسولاً على الخليفة ببغداد، صحبه الشيخ نجم الدين

١- النوادر: فضل الله بن علي الحسيني الراوندي, ص٣٩.

٢- انظر: البداية والنهاية: ج١٢ ص٨٥-٨٦

٣- انظر: تاريخ السلاجقة الروم في آسيا الصغرى: محمد سهيل طقوش, ص٢٤٧.

٤- تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير: ص١٣.

البادرائي أن يلتمس تشرفه بالتقلد والخلع والأولوية للملك المعز، أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر»[١] يستشف من هذه الحادثة أنّ هناك ضعف في أداء الخلافة ومحوريتها، فقد كانت الخلافة العباسية في عصر قوتها هي التي تقوم بتنصيب العمال والأمراء، أما في عصرها الأخير فيأتونها الرسل من قبل ملوك الأمصار يطلبون إقرارهم على ما بأيديهم، ويستشف أيضاً أنّ الخلافة تستجدي الولاء من الملوك لا أنها هي بذاتها تمتلك المؤهلات لأن تصبح مركزاً سياسياً ودينياً فقد ذكر الغساني أنّ الكمال عمر بن أبي جرادة الحلبي رئيس الحنفية وصل في سنة (٦٤٨ هـ) إلى بغداد رسولاً من صاحب حلب وهو الملك العزيز صلاح الدين يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب وخرج إلى لقائه موكب الديوان، فالتقاه ظاهر البلد ودخل معه وقبّل صخرة باب النوبي، على العادة وانكفأ إلى حيث أنزل [٢]، كما يلاحظ أن الخلافة تمارس دوراً عادياً في ظروف استثنائية خطيرة، فلا تبدي رأياً، أو تقدم حلاً، أو تفرض قراراً، وإنما يكتفون بما يعرض عليهم ففي تاسع عشر شعبان سنة (٦٤٣ هـ) وصل الزين علي بن سالم رسولاً من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وتلقي بالإكرام، وحضر دار الوزير، وأدى رسالته وعرض ما صحبه، فقبل منه وخلع عليه، وتوجه مصعداً ونفذ في خدمته جماعة من الأجناد الديوانية[٣].

---

١ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٤٨٩.

٢ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٧٨.

٣ ـ المصدر السابق: ج ٢ ص ٥٣٧.

الفرع الثاني: العلاقات بين ملوك الأمصار الإسلامية

كان التنافس على مناطق النفوذ هو السمة الغالبة على سلاطين الأمصار وقد غابت الروابط بين ملوك الأمضار، واكتفوا بتبادل الرسائل التي تنطوي على التهديد، أو اغتنام الفرصة لتحقيق المكاسب الخاصة بهم على حساب مصالح الطرف الآخر، كما هو بالنسبة للعلاقة بين الغوريين والخوارزميين حيث نجد أنّ بينهما صراعاً على مناطق النفوذ في خراسان ومرو ونيسابور في أواخر القرن السادس وبدايات القرن السابع الهجري[١] وقد استمر التوتر بينهما الى سنة ٦١٢ هـ[٢].

ومن الأمثلة على العلاقات المتأزمة والهشة بين ملوك الأمصار الخلاف بين أولاد الملك المنصور صاحب حماة على الملك، وخروج الملك الكامل صاحب مصر وقد استولى على دمشق وحماة وكان ذلك في سنة ٦٢٦ هـ[٣].

أما العلاقات فيما بين ملوك الأمصار فقد كانت في أدنى مستوياتها، بل إنها تصل فيما بين بعض ملوك الأمصار إلى الصراع والنزاع من أجل السيطرة على الملك غير مكترثين بما حولهم من قوى شريرة تريد الاستيلاء على كل شيء كما هو للمغول الذين كانوا في كل يوم لهم صولة على بلاد المسلمين، وقد حاول الخليفة الإصلاح بين أطراف النزاع فأرسل مبعوثيه لهذا الغرض ومما يؤسف له أنّ الخليفة لا يملك من القدرة والنفوذ غير أن

١- انظر الكامل في التاريخ: ج١٢ ص١٥٥-١٧٢.

٢- المصدر السابق: ج١٢ ص٣١١.

٣- المصدر السابق: ج١٢ ص٤٨٦.

يرسل رسله، وليس له أن يقطع نزاع القوم بعزلهم جميعاً، أو تخطئة الطرف الطامع، فورد في سنة (٦٥٠ هـ) أنّ الأمير حسام الدين أبو علي قدم من الحجاز فنزل في المعسكر من أرض السانح بالصالحية، وقدم من بغداد الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن أبي سعد البادراني، رسولاً من الخليفة للإصلاح بين الملك المعز أيبك والملك الناصر. فتلقاه القاضي بدر الدين الخضر بن الحسن السنجاري من قطيا، ومعه جماعة، وتحدّث معه في ذلك. فأراد الناصر أن تقام له الخطبة بديار مصر فلم يرض الملك المعز، وزاد بأن طلب أن يكون بيده ـ مع مصر ـ من غزة إلى عقبة فيق [١].

ويورد المقريزي حادثة أُخرى حصلت في سنة ٦٥٠ هـ تفصح عن الخلافات القائمة بين سلاطين ذلك العصر فحينما تقدمت جيوش المغول نحو العراق ، فعند ذلك أزال الملك أيبك التركماني المعز صاحب مصر اسم الملك الأشرف موسى بن ابراهيم صاحب الرحبة وتدمر وزلوبيا من الخطبة، وانفرد باسم السلطنة، وسجن الأشرف، واستولى على الخزائن، وشرع في تحصيل الأموال فأحدث الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد بن وهيب الفائزي حوادث، وقرر على التجار، وعلى أصحاب العقار أموالاً، ورتب مكوساً وضمانات سماها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية، وأخذ الجوالي من الذمّة مضاعفة، وأحدث التصقيع والتقويم وعدّة أنواع من المظالم، ورتب الملك المعز مملوكه الأمير سيف الدين قطز نائب السلطة بديار مصر، وأمَّر عدّة من مماليكه فقويت شوكة البحرية وزاد شرهم، وصار كبيرهم الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار الصالحي ملجأهم، يسألونه في

١ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٤٧٧.

حوائجهم، ويكون هو المتحدّث مع الملك المعز[1].

وحاول الخليفة رأب الصدع في محاولة متواضعة فأرسل الشيخ البادرائي ليكون وسيطا بين الملك الناصر والملك المعز وذلك في سنة (٦٥٤ هـ) حيث ورد الشيخ نجم الدين علم عبد الله بن محمد بن الحسن البادرائي، من قبل الخليفة المستعصم بالله ليجدد الصلح بين الأوّل وبين الملك الناصر والملك المعز، فبعث السلطان إلى القائد برهان الدين خضر السنجاري، فسار إلى قطبا، ومعه جماعة من أعيان الفقهاء، حتى قدم به، فقرَّر الصلح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب من الساحل ببلاد الشام، مع مُلك مصر، وأن الملك الناصر لا يأوي عنده أهلاً من البحرية، فمضوا إلى المغيث بالكرك. وتولى الصلح قاضي القضاة بدر الدين السنجاري؛ فلما تم الصلح عاد البادرائي، ورحل الملك الناصر عن تل العجول إلى دمشق، وعاد المعز من العباسية ـ بعد إقامته عليها ثلاث سنين ـ إلى قلعة الجبل[2].

إنّ هذه الخطوة التي كان للخليفة دور كبير فيها، لم يكن لها أثر في تقوية الجبهة الداخلية ضد الأعداء، وإنما في أن يكون بين الطرفين توافق وسلم فقط لا أنهم يتحدون في مواجهة الأخطار المحدقة بهم في حاضرهم ومستقبلهم.

وقد كانت بعض المسائل ذات المسحة الاجتماعية والشخصية الصرفة

١ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٤٧٧.

٢ ـ المصدر السابق: ج ١ ص ٤٨٧.

تترك تأثيرها وآثارها على كامل الحياة السياسية والإدارية من قبيل ما كان مقرراً من زواج الملك المعز، فقد «بعث الملك المعز إلى الملك المنصور بن المظفر صاحب حماة وإلى الملك الرّحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، يخطب ابنتيهما لنفسه. فشق ذلك على زوجته شجر الدر وتغيرت عليه، فتنكر لها وفسد ما بينهما، فأخذت تدبر في قتله»[١].

اما في بلاد الشرق الاسلامي فكان الخوارزميون والغوريون في صراع دائم على مناطق النفوذ في طالقان وغزنه وهراة وسرخس ومرو وذلك في مطلع القرن السابع الهجري[٢]، وجدير بالذكر أنّ بلاد الهند آنذاك كانت واقعة تحت سلطة الغوريين وبعض المماليك التابعين لهم[٣].

ومما تقدم نعرف أنّ العلاقات داخل حدود الخلافة سواء في نفس مركز الخلافة أو خارجها في الأمصار التابعة لها؛ كانت تعاني الضعف والفتور في الارتباط فيما بينهم وخصوصاً بين الوزير ابن العلقمي والدويدار، ولم يقم الخليفة بحسم الخلاف وتقرير الصلح بينهما مما أدى ذلك إلى تشطير المواقف فيما بين الطرفين المتخاصمين وإطلاق التهم على بعضهم واتهامه بالخيانة. أما العلاقات فيما بين أمراء الأمصار فقد كانت هي الأخرى تتأرجح بين القطيعة والحرب وبين الصلح الهش.

---

١ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٤٨٩.

٢- انظر: الكامل في التاريخ: ج١٢, ص١٨٦-١٨٧.

٣- انظر: المصدر السابق: ج١٢, ص٢١٨.

الفرع الثالث: العلاقات الخارجية في عصر ابن العلقمي

علاقات الخلافة الخارجية كانت، ضعيفة، واقتصرت على ما يقوم به ملوك الأمصار في حدودهم الجغرافية ولم نلاحظ ـ وحسب تتبعنا المتواضع- خطوة من قِبَل الخليفة العباسي المستنصر أو المعتصم في تكوين علاقات سياسية مع الدول القائمة آنذاك، وربما يعود السبب الى الأطماع التي تدفع الدول شرقاً وغرباً ففي بلاد مصر والشام كانت هناك حملات صليبية قائمة مستمرة منذ أواخر القرن الخامس الهجري وكانت الحملات يقودها الفرْنج وانكلترا وألمانيا، غير أنّ الدور الأكبر كان للفرنج وقد استمرت الحروب الصليبية حتى بعد سقوط بغداد[1].

كما أنّ الخطائين كانوا في صراع مع ملوك الأمصار الاسلامية كالخوارزميين والغوريين[2]. كما أنّ الكرج تعرضوا لبلاد المسلمين في آذربيجان وكنجة وما يجاورها [3].

أما بلاد المغرب فكانت خاضعة للموحدين الذين بقوا في الحكم الى سنة ٦٦٧هـ فلم يعترفوا بالخلافة العباسية، واستمروا في سياستهم التي تدور في فلك خاص بهم ويرون أنهم أحق بالخلافة[4].

١- انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك: ج١ ص٤١٥ و٤٣٧.

٢- انظر: الكامل في التاريخ: ج١٢ ص١٣٥ و٢٦٩.

٣- انظر: المصدر السابق: ج١٢ ص٢٠٤و ٤٢٥و٤٣١.

٤- انظر: تاريخ العراق في العصر الأخير: ص١٤-١٥.

أمّا في الأندلس التي كانت خاضعة للموحدين فقد خرج محمد بن يوسف بن هود الجذامي على الموحدين وامتلك الأندلس، وقد تم خروجه في مرسيه تاسع رجب ٦٢٥هـ منادياً بالدعاء للخليفة العباسي، وملك مرسية، وغرناطة، ومالقة واشبيلية، والجزيرة الخضراء وغيرها وخطب زعيم آخر للعباسيين في الأندلس وهو جميل بن ابي الحملات مدافع بن الرئيس يوسف بن سعد بن مردنيش وملك بلنسية، ودانية، وجنجالة وغيرها[١].

وتتأثر العلاقات الخارجية بعوامل عديدة منها الموقع الجغرافي، وقوة الدولة التي يراد تأسيس الارتباط معها أو إدامته، كما أنّ المتصدين لشؤون الحكم يلاحظون مقدار النفع الذي يعود على بلدانهم من تلك العلاقة، كما أنّ لبعض الدول أهداف أُخرى غير الأهداف المعلنة فقد تكون دولة تريد تأسيس علاقة وتبغي من ذلك تسيير الأوضاع فيها لصالح منفعتها، أو أنها تريد إقامة علاقات على صعيد واحد كالسياسي، أو الصعيد الاقتصادي وربما تريد دولة إقامة علاقة بأوسع مداليلها من إرسال السفراء والممثلين عنها سواء كانوا في المجال الثقافي، أو الاقتصادي أو ما إلى ذلك، وفي العصر العباسي كانت هناك علاقات خارجية بين الخلافة العباسية وبين دولة الروم، حيث كان هناك إيفاد للسفراء من قبل الروم، وهناك رسوم خاصة لاستقبال الموفدين، ففي الثامن من المحرم لسنة ٦٤٤ هـ «قدم رسول ملك الروم وهو الفريد الرومي، وتلقى بموكب الديوان، فلما دخل قبّل عتبة الباب

١- تاريخ العراق في العصر الأخير: ص١٤-١٥.

النوبي ثم انكفأ إلى حيث أنزل، ثم حضر إلى دار الوزير، وأدى رسالته»[١].

ففي الأعراف السياسية آنذاك إيفاد للسفراء، ويلاحظ أنّ هناك استقبالاً من قبل موكب الديوان على شرف الضيف القادم، ومن ثم ينزل في محل الضيافة ليأخذ قسطاً من الراحة، وبعدها في اليوم التالي يحدد موعد لحضوره عند الوزير ليقدّم رسالته الشفوية أو الكتبية أو ما إلى ذلك.

ومن خلال الأحداث التأريخية يلاحظ أنّ الروم قاموا بإرسال موفد آخر في السنة التالية لزيارة بغداد، وكان الهدف من زيارته تعزيز العلاقات الثنائية الودية القائمة بين الدولتين وذلك عبر إيصال رسالة من ملك الروم، وأيضاً إرسال التحف والهدايا ففي سنة ٦٤٥ هـ «وصل رسول ملك الروم، وتُلقيَ بموكب الديوان وحضر مجلس الوزارة وأدي رسالته، وعرض ما صحبه من تحف وهدايا وسأل قبول ذلك »[٢].

أما علاقة الخلافة العباسية بالمغول فلم تكن علاقة ودية وإنما هي علاقة تنافسية على زعامة الأمصار، فالمغول يقومون بزيارات استطلاعية واستكشافية وهي تختلف عن الزيارات التي يقوم بها الموفدون عن الدول الأخرى، ففي شهر ربيع الأوّل من سنة ٦٤٤ هـ «وصل رسولان من التتر أحدهما بركة والآخر من أحو فركب لتلقيهما كافة الزعماء في عساكرهم إلى ظاهر البلد واصطفوا صفين وجاز الرسولان في وسطهم وكان العسكر

---

١ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٤٢.

٢ ـ المصدر السابق: ج ٢ ص ٥٥١.

كثير العدد جميل العدة»[١].

ولم تتحدث المصادر التأريخية عن فحوى هذه الزيارة إلا أنها تأتي في وقت كان المغول يقومون باحتلال الأراضي الإسلامية الأمر الذي يثير أكثر من تساؤل، كما أنّ كافة الزعماء كانوا مغمورين بالرغبة وحب الإطلاع على ما جاء به هذين الموفدين من أمر، ولذا كان هناك استقبال عسكري حاشد ومنظم وجميل من أجل استعراض القوة أمام هذين المبعوثين اللذين سينقلان كل ما سيشاهدانه إلى زعمائهم. ومن هنا نلاحظ أنّ العلاقات الخارجية للخلافة العباسية علاقات ليست بالمستوى المطلوب، كما أن الخليفة وبطانته لم يقدّموا شيء في توثيق العلاقات مع بلاد الروم، أو مع المغول ولم ينتدبوا، أو يعينوا ممثلين للخلافة يتمتعون بصفات السفير من قبيل الإطلاع الواسع وسرعة البديهة، والمعرفة بالجغرافية، ومحبته لبلاد الإسلام، وحسه الاجتماعي، وشجاعته، ولباقته إلى غير ذلك مما يعد عرفاً متداولاً في تحديد السفير في ذلك الزمان.

واعتمد الخليفة المستعصم في علاقته مع المغول على ما تفرضه الظروف إن أرسلوا موفداً، وإن طلبوا جواباً لرسالة منهم أجاب على ذلك، واعتمد أيضاً على الصدفة من قبيل تلك الوساطة التي سعى فيها أحمد بن الخردادي التاجر ببغداد حيث حاول هذا التاجر المذكور في سنة ٦٤٩ هـ تجسير العلاقة بين المغول والخليفة وإقامة الصلح بينهما وذهب إلى السلطان كيل خان في خراسان من أجل إقامة علاقة وصلح مع الخليفة فأرسل السلطان

---

١ ـ العسجد المسبوك: ج ٢ ص ٥٤٢.

آنف الذكر رسولاً منه يرافقه التاجر أحمد، ثم عاد الرسول والتاجر ومعهم الهدايا والتحف [١]

ولم تكن هناك ضمانات تنفيذية في تقرير الصلح، أو ضمانات تحول دون شهوة السيطرة على البلاد الإسلامية، فذهبت تلك المجاملات الظاهرية أدراج الرياح حيث لم تكن لدى المغول رغبة جادة وصادقة في إقامة علاقات مع الخلافة التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.

---

١ ـ الحوادث الجامعة: ص ١٢٧.



الفصل الرابع

المغول و بغداد



المغول وبغداد

عاشت بغداد عمراً متطاولاً ناهز الخمسة قرون، وبعد ذلك العمر المديد تنقلت بها أقدام الأجل نحو الخراب على يد المغول، وكان مصير بغداد كمصير الأمصار الإسلامية حيث جثت على ركبتيها أمام سلطان القوة الذي لا يعرف إلا الإفراط في إظهارها. وقبل الحديث عن بغداد التي ذهبت ريحها لابد من إيراد صورة عن أولئك المغول من خلال ملاحظة أصولهم الجغرافية والاجتماعية والسياسية وبعد ذلك نتحول إلى قدرتهم العسكرية، ومن ثم ننتقل إلى الخلافة أمرائها وجيشها وسقوط عاصمتها.

المطلب الأوّل: جغرافية المغول

يقطن المغول المناطق الواقعة في قلب آسيا حيث توجد هناك الجبال والصحاري الجافة، وقد ذكر الأشتياني: أنّ هذه البلاد تقع في تضاريس جغرافية متعرجة، فهي تقع بين جبال خينكان وبلنوئى وآلتائى وسايان، أي: أنها محصورة في أراضي بحيرة بايكال[1] وقد وصف ساندرز تلك البلاد بأن القسم الشمالي الغربي منها عبارة عن بحيرة لأنهار متعددة تلتقي ببعضها بالنهر الكبير سلنكا، وهذا النهر بدوره يصب في بحيرة بايكال. أما في القسم الشمالي الشرقي لتلك

١- تاريخ المغول از حمله جنگيز تا تشكيل دولت تيمورى، عباس إقبال اشتيانى، ج١ ص٤.

البلاد فيوجد نهري أونون وكرولن اللذين يلتقيان في جهة الشرق بنهر آمو الذي تغمره المياه.أما في الجنوب الشرقي لبلاد المغول فتشغله الصحراء القاحلة المترامية الأطراف[١] وتوجد صحاري عديدة في تلك البلاد، من قبيل صحراء كُوبى وصحراء قزل قوم وصحراء قراقوم في غرب نهر جيحون وصحراء تكلاما[٢] وهذه البلاد تجاورها الصين وإيران، وتستوطن قبائلها ضفاف نهري (أُرخون) حيث تقوم اليوم (أولان بانور) عاصمة منغوليا[٣] ويتضح من خلال ما أوردنا أعلاه أنّ المساحة الجغرافية كبيرة مترامية الأطراف وتكثر فيها التضاريس المعقدة من الأنهار والصحاري الكبيرة إلى الجبال العالية.

المطلب الثاني: جذور القبائل المغولية

أشار السيد حسن الأمين إلى أن (التتر فرع من المغول خرجوا منهم ثم انفصلوا عنهم مع الزمن انفصالاً تاماً جعلهم شعباً مستقلاً لا تربطه بالمغول إلا رابطة الأصل الواحد البعيد، وإن ظل يجمعه به تشابه الملامح وتقارب بعض الخصائص)[٤] ولا نوافق السيد الأمين فيما يذهب إليه وقد أوضحت

١- تاريخ فتوحات مغول, ج. ج. ساندرز, ص ٥١, ترجمة أبو القاسم حالت.

٢- المصدر السابق, ص٢٢.

٣- خلفاء بني العباس والمغول اسقطوا بغداد, السيد حسن شبر, ص٤٢٣.

٤- الوطن الإسلامي بين السلاجقة والصليبيين, حسن الأمين, ص١٣٢.

الدكتورة شيرين بياني الأصول التي ينحدر إليها التتار وأشهر قبائلهم وقادتهم وذكرت عرضاً مفصلاً في ذلك حيث قالت نظراً للعراقيل والحروب الجزئية التي يقوم بها التتار في بعض الأحيان على حدود أمبراطوية الصين فقد كانت تطلق هذه اللفظة على كل الأقوام الذين يسكنون بلاد المغول.

وكانت قبيلة التتر إحدى القبائل المغولية ذات العداء المستحكم والدائم مع أجداد جنگيز خان، وعند ما تولى جنگيز خان سلطة المغول وضع حداً لهذا العداء بإصداره أمراً بقتل كل من ينتسب إلى التتار وبذلك تخلّص من أعداد كبيرة منهم وبقي جزء منهم نجى من سطوة القتل، فالتحق بركب الخان الأعظم، وبرز منهم قادة عسكريون كبار من جملتهم قوتو قونويان، أو شيكى قوتوقو الذي عمّر دهراً وأصبح مورد تقدير المغول. حتى قيل أن القبائل التترية المحاربة في القرن الخامس والسادس الهجري كانت تعد من أوحش القبائل وأخطرها،وكانت قبائل التتر تقطن شواطئ بحيرتي بويورنور، وكلون. وقد وصلت شهرة القبائل التترية إلى الحد الذي جعل الدول تسمي كل الأقوام الساكنة في بلاد آسيا الوسطى بالأقوام التترية[١] إذن تحقيق السيدة بياني أن الأقوام المغولية كثيرة مركبة من قبائل الأتراك والمغول وقد أدرجت في كتابها أسماء القبائل المنضوية تحت لواء السلطة المغولية من قبيل الايغوريون، واويرات، جلاير، التتر، قُنقرات... إلخ[٢] وقدّمت توضيحاً وافياً عن كل منها.

١- مغولان وحكومت ايلخانى در ايران، شيرين بيانى، ص٣.

٢- المصدر السابق، ص١٠-١٦.

وكان بين هذه القبائل تنافس وصراع مستمر إلى أن ظهرت شخصية جنكيز خان الذي استطاع أن يجمع تلك القبائل ويجعلها تحت سلطته.

والدكتور فاروق عمر فوزي يقول: بأن المغول عرفوا بأسماء مختلفة منها المغول والتتر والتتار وهي مسميات واحدة لشعب واحد،يتكون من قبائل متعدّدة، ويعتبرون جميعاً من الترك[١] إلا أن التحقيق ما ذكرنا في أن المغول عبارة عن مجموعة من القبائل المغولية والتركية اتحدت مع بعضها تحت قيادة جنكيز خان فخضعت لسلطانه بعد أن سنّ فيها قوانين يصعب امتثالها رغم كونها بسيطة إلا أنها أدت الغرض بنحو كافٍ فأصبح على ضوئها فاتح العالم، ووضع الحجر الأساس لتشكيلات الدولة[٢].

المطلب الثالث: سلاطين المغول

يعتبر جنكيز خان المؤسس الحقيقي لدولة المغول الكبرى، فقد بدأ ملكه سنة ٥٩٩ هجرية واستحوذ على الممالك إلى أن مات في سنة ٦٢٤ هجرية[٣]، انظر ملحق الصور (الشكل ١٢).

وتولى الأمر من بعد جنكيز خان ابنه أكتاي‌خان الذي كان يتمتع بصفات تؤهله لأن يستوعب الأحداث كما أنه يتعامل مع أبناء جلدته برحابة صدر

١- تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية ـ الإسلامية, ص٣٥٤.

٢- جنكيز خان, هارلد لمب, ص١٨, ترجمة رشيد ياسمى

٣- البداية والنهاية, ج١٣, ص١٣٨.

بطريقة تجذب له صداقتهم وكان يراعيهم ويفرق عن أبناء جنگيز الآخرين في عداوتهم للمسلمين، في أنه يداري المسلمين، ويرى للأقوام والقبائل الأخرى من غير المغول أولوية خاصة، ولكنه في عين الوقت شديد القسوة وسفاك للدماء، كشأن القادة المغول[١]، (انظر ملحق الصور الشكل ١٣).

وبعد أن توفي أكتاي خان سنة ٦٣٩ هجرية وتولت زمام الأمور زوجته توراكينا خاتون ولمدة أربع سنوات، وبعدها أصبح ابنها كيوك ملكاً على المغول الذي تولى السلطة المغولية حتى سنة ٦٤٧ هجرية، وبعدها تولى زعامة المغول منكو خان الذي يعد أكثر الحكام المغول حنكة سياسية وأكثرهم تدريباً وقام بإصلاحات من ضمنها أنه أعفى رؤساء المسلمين والمسيحيين والبوذيين من الضرائب المالية[٢] في خطوة لاستمالتهم إليه. وفي زمانه تم انتخاب هولاكو لقيادة المغول في احتلال ايران وطي صفحة الخلافة العباسية فقد تفرس منكو خان في أخيه هولاكو العزم والثبات والحزم والاحتياط والحماسة والحمية والحلم والوقار[٣] وانتدب لتلك المهمة الشاقة.

وبعد منكو خان،تولى قيادة المغول قُبيلاي خان حيث كانت حكومته من أطول الحكومات فقد استمرت حكومته من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٩٣ هجرية وكان يعتنق الديانة البوذية فجعلها المذهب الرسمي لأمبراطوريته، وأعطى

١- تاريخ نامه هرات، سيف بن محمد بن يعقوب الهروي، ص٩٥-٩٧.

٢- تاريخ جهانگشاى، ج٣، ص٨٠

٣- المصدر السابق، ج٣، ص٨٩-٩٠.

الحرية للمذاهب الأخرى بممارسة شعائرها. وفي زمنه أصدر أمراً بترجمة المتون البوذية، ونصوص الإنجيل والتوراة إلى اللغة المغولية[١] (انظر ملحق الصور الشكل ١٤).

وبعد وفاة قُبيلاي جاء عدد من الخانات لتولي زعامة المغول حتى مجيء تيمور، وقد استمرت إمبراطوريتهم إلى سنة ٧٣٤ هجرية.

وفيما يلي جدولاً لسلسلة السلاطين المغول:

جنگيز خان، ت ٦٢٤ هجرية.

↓

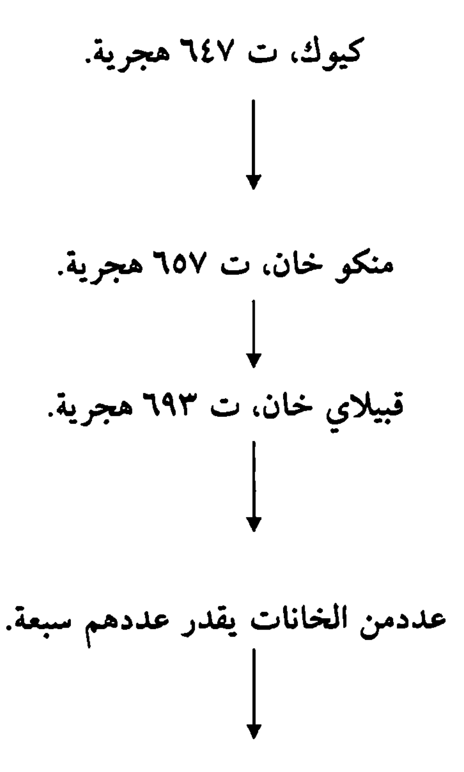
أكتاي خان، ت ٦٣٩ هجرية.

↓

نائبة السلطنة توراكينا خان (تولت الزعامة لمدة أربع سنوات)

↓

١- تاريخ حبيب السير: ج٣, ص٦٥-٦٦.



تيمور حفيد قبيلاي خان، حتى سنة ٧٣٤ هجرية.

المطلب الرابع: ديانات المغول

فيما يرتبط بديانات المغول نستطيع أن نقول إنّهم كانوا مثل القبائل العربية قبل الإسلام كانوا يعتنقون ديانة هشة البناء والقواعد وهي التماثيل التي ينحتونها[1] وقد وضع لهم جنكيز خان الياسا التي يتحاكمون إليها

١- تاريخ ايران اسلامى: ج٣, ص١٧.

ويحكمون بها، وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى، وهو شيء اقترحه من عند نفسه وتبعوه في ذلك، وكانت تزعم أمه أنها حملته من شعاع الشمس[١]. ويبدوا أنّ الياسا لا يصمد معتنقيها أمام الديانات الأُخرى، ولهذا كان المغول وزعمائهم في تقلب مذهبي دائم، وفي تعدد مذهبي بين البوذية والمسيحية والإسلام، ورغم أنّ الياسا هو مجموعة قوانين سنها جنگيز خان لأتباعه، إلا انها اكتسبت صبغة دينية من خلال العمل بها.

وذكرت الدكتورة بياني بناءاً على قراءتها، التأريخية أنّ جنگيز بسبب ذكائه الخاص ونبوغه الذاتي استطاع النفوذ على قومه واعتبروا أنّ السماء ترعى شخصيته وتؤيد اتباعه وأصبح مقدساً عندهم[٢].

وقد أعطت الدكتورة النبراوي تلخيص وصورة موجزة عن الديانة المغولية بقولها «وغلبت الوثنية على المغول، فقدكان منهم من يعتنق البوذية، ومنهم من يعبد الظواهر الطبيعية، أو أرواح أجدادهم، ثم اعتنق عدد منهم المسيحية وأخيراً دخل المغول في الإسلام»[٣] ولخصت أيضاً قصة تعاليم الياسا وأمر جنگيز خان أن يكتب الياسا بخط الاويغوري وأن يحفظ في خزائن الدولة،كما أوصى بتعليم الأطفال هذا الخط ويطلق اصطلاح الياسا الكبير على قوانين جنگيز خان التي دونت وتسمى ياسه نامه ويرجع المغول

١- البداية والنهاية: ج١٣, ص١٣٧.

٢- انظر: مغولان وحكومت ايلخانى در ايران: ص١٩.

٣- العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى, د. فتحية النبراوي، ص٢٧١.

إلى نصوص الياسا في مشكلاتهم الكبرى كاعتلاء خان جديد للعرش، أو عند تسير جيش من جيوش المغول، والياسا في تنظم حياة المغول، وتحد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وتوضح علاقة الفرد بالمجتمع.

يمكن تلخيص أحكام الياسا في أُمور ثلاثة:

١- الخضوع التام لجنگيز خان.

٢- الاتحاد في قبيلة واحدة.

٣- العقاب الصارم لكل مخطئ[١] .

ويمكن الانتهاء إلى نتيجة في خصوص الديانة المغولية وهي أنّ هذا المذهب قد عجن بالخرافات الكثيرة، الأمر الذي جعل هذا الدين عرضة لعدم المقاومة ويفتقد إلى الأساس الذي يستند عليه في مقابل الأديان الكثيرة في ذلك الوقت[٢].

المطلب الخامس: الجيش المغولي

بعد وفاة قوريلتاي تولى زعامة المغول جنگيز خان، وقد اعتنى بتقوية الجيش وتوسع الأراضي المغولية.

١- لعلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى, د. فتحية النبراوي, ص٢٧٢.

٢- تاريخ ايران اسلامي: ج٣ ص١٨.

لقد كان جنگيز لديه قابلية واستعداد كبيرين في إعداد جيش قوي وقد وصف الجويني في تاريخه ذلك في أنهم أثناء الحملة والهجوم مثل الحيوانات الوحشية التي تلاحق ضحيتها بكل ما أوتيت من قوة وفي أيام الصلح والهدوء ينشغلون بتهيئة الألبان والأصواف من الأغنام والأبقار[١].

وينقل الدكتور إبراهيم تيموري عن أحد المحققين الروس ويدعى كركالوف قوله: إن أهم قسم في الجيش المغولي هم الفرسان لكثرة حركتهم كما أنهم يشكلون فئة المشاة والمسح في الصحاري العريضة[٢] .(انظر ملحق الصور الشكل ١٥).

كما أنّ الدكتورة النبراوي بناءاً على مطالعاتها التاريخية ذكرت «أن الجيش المغولي كان منظماً ومقسماً إلى فرق تراوحت بين العشرة والمائة الألف والعشرة آلاف وكان هناك من يقوم على إعداد الأسلحة وحملها،مثل السهام والأقواس وهناك من عليه مهمة الإشراف على الطعام والشراب للجنود، ومن يقوم على رعاية الدواب ومن يشرف على إعداد العجلات الحربية وكان لجنكيز خان حرس خاص يتكون من ثمانين شخصاً يتناوبون الحراسة ليلاً ونهاراً،وقد بلغ حرس جنگيز خان في فترة من الفترات عشرة آلاف، وقد كوّن أفراد هذا الحرس الاستقراطية[٣] العسكرية في الجيش

١- تاريخ جهانگشاى: ج١, ص٢١.

٢- امپراطورى مغول وايران: ابراهيم تيمورى، ص٥١.

٣- الارستقراطية: سلطة الأقلية أو طبقة معينة. انظر: موسوعة السياسة: عبد الوهاب الكيالي, ج١, ص١٤٧.

المغولي. وكان الجيش المغولي مقسماً لثلاثة أقسام: جناحين، أيمن أيسر، وقلب الجيش،تتقدمه الفرقة الأمامية أو الطلائع وكانوا مسلحين بدروع كاملة لوقايتهم من هجمات العدو. وقد أولى خانات المغول جيشهم عناية فائقة، وأنفقوا عليه بسخاء وكانوا يشددون في حمل كل ما يحتاجه عند تحريكه من مؤن وأسلحة وماء حتى الإبر والخيوط كانوا يأخذونها معهم. وكان للجيش المغولي فرق للإستطلاع، تذهب إلى مواقع العدو، وتأتي بالأخبار والمعلومات حتى تسهل من مهام الجيش فتعرف مكامن الضعف في الأعداء وحصونه، ومن ثم يبدأ تقدم الجيش»[١]. (انظر ملحق الصور الشكل ١٦ ، ١٧)

وقد استفادت الدكتورة نبراوي في تقسيمها لمجاميع الجيش المغولي من تاريخ الجويني[٢].

أما عدد أفراد الجيش المغولي فقد تراوح حسب التخمينات منذ بدء تشكيله في عهد قوريلتاي بين مائة ألف وإلى أكثر من ذلك[٣] وكان لهذا الجيش قادة بارزين في فترات مختلفة، ففي زمن جنگيز خان انتخب لقيادة الجيش المغولي شاب يقارب عمره الواحد والثلاثون سنة يدعى سُبتاي[٤]

١- العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى: ص٢٧٣-٢٧٤.

٢- انظر تاريخ جهانگشای, ج١, ص٢٣.

٣- امپراطوری مغول وایران: ص٥٢.

٤- المصدر السابق: ص٥٧.

وقائد آخر في زمن جنگيز خان يسمى شيكي قوتوقو[١] هؤلاء القادة يقومون قبل الحرب بالتفتيش والتحقق من استعداد القوات وتهيئتها للمعركة وإذا وجدوا نقصاً في تجهيزات أحد الجنود يقوم الأمير المسؤول بتلبية طلبه.

أما في زمن الحملة المغولية على بغداد وتوابعها، فكان هناك عدد من القادة الميدانيين يترأسهم هولاكو ومن هؤلاء القادة بايجو نوين، ونجاق نوين، وبوقا تيمور[٢].

ومما تقدم يظهر أن الجيش المغولي ظهر كقوة عسكرية منظمة وكبيرة من حيث عدد القوات، وتنظيمها وقدراتها التسليحية واللوجستية، بالإضافة إلى بروز عدد من القادة الميدانيين من بين صفوفه.

التحركات العسكرية للمغول نحو بلاد المسلمين

أخذ المغول بالتحركات في اتجاه البلاد الإسلامية شيئاً فشيئاً إلا أنه وخلال منتصف القرن السابع أخذت تحركاتهم العسكرية بالتعاظم وخصوصاً عندما تولى منكوخان سنة ٦٤٨ هجرية زعامة المغول.

١- امپراطورى مغول وايران: ص٥٨.

٢- تاريخ مختصر الدول: ص٢٧١.

ويذكر الذهبي في تاريخه نقلاً عن سبط بن الجوزي أن ظهورهم العسكري في البلاد الإسلامية كان في بدئه عند منطقة آسيا الوسطى ومن ثم تمدد إلى المناطق الأُخرى قال سبط بن الجوزي:(كان أوّل ظهور التتار بماوراء النهر سنة خمس عشرة، فأخذوا بخارى وسمر قند، وقتلوا أهلها وحاصروا خوارزم شاه.ثم بعد ذلك عبروا النهر، وكان خوارزم شاه قد أباد الملوك في مدن خراسان فلم تجد التتار أحداً في وجههم فطاروا في البلاد قتلاً وسبياً، وساقوا إلى أن وصلوا إلى همدان وقزوين في هذه السنة)[١] ويكمل الذهبي الأحداث التاريخية عن تحركات المغول فيقول: «فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها إلى بخارى وسمرقند فيملكونها، ويبيدون أهلها، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها هلكاً وتخريباً وقتلاً وإبادة، وإلى الرّيّ وهمدان إلى حدّ العراق، ثم يقصدون آذربايجان ونواحيها، ويخربونها في أقل من سنة (هذا) أمرٌ لم يسمع بمثله ثم ساروا من آذربيجان إلى دربند شيروان، فملكو مدنها وعبروا من عندها إلى بلاد اللاّن، واللّكز، فقتلوا وأسروا ثم قصدوا بلاد قَفْجاق،وهم أكثر من الترك عدداً، فقتلوا مَن وقف وهرب الباقون واستولى التتار عليها.

ومضت طائفة أُخرى غير هؤلاء إلى غزْنة وأعمالها، وسيستان، وكرمان، ففعلوا مثل هؤلاء، بل أشدّ»[٢].

١- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج٤٨ , ص٥٥٤.

٢- المصدر السابق: ج٤٨، ص٥٥٤-٥٥٥.

وقد أصاب الدكتور فاروق كبد الحقيقة عندما كتب أنّ: «السد الذي وقف حاجزاً بين المغول والعراق هو الدولة الخوارزمية. إلا أنّ جنگيز خان استطاع سنة ٦١٦ هجرية أن يحطم قوة خوارزمشاه علاء الدين محمد الذي فرّ إلى إحدى جزر بحر قزوين ومات هناك»[١] . (انظر ملحق الخرائط، خارطة رقم ٤).

كما أنّ الدكتور القزاز أجاد في تحديد الأخطار الحقيقية المحدقة بالأُمة الإسلامية، وقد أشار بشكل مقتضب إلى دور الخوارزميون في حجز المغول عن التقدم نحو البلاد الإسلامية، فكتب: (لقد كان أوّل تهديد لحدود الخلافة من قبل المغول سنة ٦١٨هـ عندما أدركوا حدود أربل ودقوقا وأرسلت الخلافة نجدة كما يقول مظفر الدين كوكبري صاحب أربل لم تزد على ثمانمائة جندي يقودهم مملوك الخليفة قشتمر أكبر أُمراء العراق، ولم يهز هذا الاعتقاد الخليفة الناصر فيوقضه ويجعله يستفيد من إمكانيات صاحب أربل وغيره فيمدهم بالجيوش ليسيروا إلى المغول، ولكنه اكتفى بالدعاء عليهم عند ما أمر الناس بالقنوت في الصلاة.

وجاء التهديد الحقيقي سنة ٦٢٨ هجرية عند ما اختفى الخوارزميون وانتهى دورهم في حجز المغول فدخلت جيوشهم للمرة الثانية أرض الخلافة وتعرضت شهر زور وأربل ودقوقا للأعداء فاهتمت الخلافة بإرسال النجدات التي تدخل في معركة مع المعتدين إنما وقفت تراقبهم حتى على

١- تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية- الإسلامية: ص٣٨٥.

العراق حتى لم تكن تمر سنة إلا وتقوم فاجعة قي أكثر من جزء منه، كما تعرضت أطراف بغداد للأعداء مرتين خلال هذه الفترة، وكانت حمية الخلافة تشتد عند ما يقرب الخطر منها فترسل النجدات إلى المناطق المنكوبة خاصة إذا كانت قريبة منها، كما تقوم بإعلان النفير العام وتستفتي العلماء بإيقاف الحجّ وتجمع المتطوعة من الحواضر والبوادي وتستنجد بأُمراء الأطراف، ثم تعود بعد أن يعود الخطر فتأمر بتسريح الجند والمتطوعة وإعادة من وصل إليها من الأمراء كأن الأمر قد انتهى وإن الخطر زال ولم تفكر طيلة الثلاثين سنة الأخيرة من عمرها في إنتهاج سياسة عسكرية تقرر فيها ما يجب أن تفعله أزاء الخطر الداهم)[١].

إنّ الخلافة بقيت تتفرج على المشهد الحربي الدامي الذي أطبق على بلاد الشرق الإسلامي ولم تتخذ خطوات عملية تصرف المغول عن وجهتهم، أو توقفهم عن تجاوزهم، واكتفت بوصول الأخبار إليها عن الزحف المغولي الذي يتراوح بين السلب والنهب والتخريب. ثم إن الخلافة العباسية كانت في الوقت الذي يزحف المغول كانت تفتقد إلى أمرين، الأوّل: المقبولية من قبل بعض سلاطين البلاد الإسلامية. الأمر الثاني: وتفتقد إلى إعمال نفوذها في الأمصار التابعة لها، وهذان الأمران التوأمان جعلا من الخلافة واقفة ضمن حدود العاصمة أو المناطق القريبة منها وبالتالي تمكن المغول من الزحف دون مقاومة كبيرة.

١- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، ص٣١١-٣١٢.

واستمرت حملات المغول في البلاد الإسلامية، ولم يجد الغزاة مقاومة تقف بوجههم سوى التي قام بها جلال الدين خوارزمي شاه والذي جرت له مع التتر حروب ظفر في أكثرها انتهى أمره بأن كبسوه ليلاً وخالطوا مخيمه فهرب وتعقبوه وقتل في سنة٦٢٨ هـ[١] .ثم توالت الحملات إلى أن جاء الخليفة المستعصم وتولى مقاليد السلطة العباسية في سنة ٦٤٢ هجرية وكان المغول يتحركون ويتقدمون بحرية مما أطمعهم أكثر في البلاد الإسلامية،ففي سنة ٦٤٢ هجرية، «نزل التتر على ميافارقين ونهبوا ديار بكر أشد النهب، وأخذوا حران والرها وملكوا ماردين صلحا، وهرب شهاب الدين غازي منهم قاصداً مصراً »[٢]. ودخلت سنة ٦٤٣ هجرية « فاتفق أن بعض أُمراء بغداد وهو سليمان بن برجم، وهو مقدّم الطائفة المعروفة بالإيواء، وهي من التركمان، قتل شحنة من شحنهم في بعض قلاع الجبل يعرف بخليل بن بدر، فأثار قتلهُ أن سار من تبريز عشرة آلاف غلام منهم يطوون النازل، ويسبقون خبرهم، ومقدمهم المعروف بجكستاي الصغير، فلم يشعر الناس ببغداد إلا وهم على البلد، وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السنة في فصل الخريف، وقد كان الخليفة المستعصم بالله، أخرج عسكره إلى ظاهر سور بغداد على سبيل الاحتياط، وكان التتر قد بلغهم ذلك، إلا أنّ جواسيسهم غرتهم، وأوقعت في أذهانهم أن ليس خارج السور إلا خيام

١- تاريخ ابن الوردي: زين الدين ابن الوردي, ج٢, ص١٥٠.

٢- العسجد المسبوك:ج٢, ص٥٢٧.

مضروبة وفساطيط مضروبة، لا رجال تحتها، وأنكم متى أشرفتم عليهم ملكتم سوادهم وثقلهم، ويكون قُصارى أمر قوم قليلين تحتها أن ينهزموا إلى البلد، ويعتصموا بجدرانه، فأقبلت التتر على هذا الظن، وسارت على هذا الوهم، فلما قربوا من بغداد، وشارفوا الوصول إلى المعسكر، أخرج المستعصم بالله الخليفة مملوكه وقائد جيوشه شرف الدين إقبال الشرابي إلى ظاهر السور، وكان خروجه في ذلك اليوم من لطف الله تعالى بالمسلمين، فإن التتار لو وصلوا وهو بعد لم يخرج، لاضطرب العسكر، لأنهم كانوا يكونون بغير قائد ولا زعيم، بل كل واحد منهم أمير نفسه، وآراؤهم مختلفة، لا يجمعهم رأي واحد ولا يحكم عليها حاكم واحد، فكانوا مظنّة الاختلاف والتفرق، والاضطراب والتشتت، فكان خروج شرف الدين إقبال الشرابيّ في اليوم السادس عشر، من هذا الشهر المذكور، ووصلت التتر إلى سور البلد في اليوم السابع عشر، فوقفوا بإزاء عساكر بغداد صفاً واحداً، وترتب العسكر البغداديّ ترتيباً منتظماً، ورأى التتر من كثرتهم وجودة سلاحهم وعددهم وخيولهم، ما لم يكونوا يظنونه ولا يحسبونه، وانكشف ذلك الوهم الذي أوهمهم جواسيسهم عن الفساد والبطلان.

وكان مدبر أمر الدولة والوزارة في هذا الوقت هو الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد بن العلقمي، ولم يحضر الحرب، بل كان ملازماً ديوان الخلافة بالحضرة، لكنه كان يمدّ العسكر الإسلامي من آرائه وتدبيراته بما ينتهون إليه ويقفون عنده، فحملت التتار على عسكر بغداد حملات متتابعة،

ظنوا أن واحدة منها تهزمهم، لأنهم قد اعتادوا أنه لا يقف عسكر من العساكر بين أيديهم، وأنّ الرعب والخوف منهم يكفي ويغني عن مباشرتهم الحرب بأنفسهم، فثبت لهم عسكر بغداد أحسن ثبوت، ورشقوهم بالسهام، ورشقت التتار أيضاً بسهامها، وأنزل الله سكينته على عسكر بغداد وأنزل بعد السكينة نصره، فمازال العسكر البغداديّ تظهر أمارات القوة، وتظهر على التتار أمارات الضعف والخذلان، إلى أن حجز الليلُ بين الفريقين، ولم يصطدم الفيلقان وإنما كانت مناوشات وحملات خفية لاتقتضي الإتصال والممازجة، ورشقٌ بالنُّشاب شديد فلما أظلم الليل، أوقد التتار نيراناً عظيمة، وأوهموا أنهم مقيمون عندها،وارتحلوا في الليل راجعين إلى جهة بلادهم، فأصبح العسكر البغداديّ، فلم ير منهم عيناً ولا أثراً وما زالوا يطوون المنازل ويقطعون القرى عائدين حتى دخلوا الدربند، ولحقوا ببلادهم»[١]

وفي هذه الحادثة التي أوردناها بطولها واقتفينا فيها أثر ابن أبي الحديد في عرضها يظهر الدور المحوريّ للوزير ابن العلقمي بتوجيهاته السديدة، الأمر الذي حدا بابن أبي الحديد المدائني أن يخلد ويمجد ذلك في قصيدة طويلة، أخذنا منها ما يقتضيه المقام، فقد ذكر ابن أبي الحديد: ((وكتب إلى مؤيد الدين الوزير عقيب هذه الوقعة التي نصر فيها الإسلام ورجع التتر مخذولين ناكصين على أعقابهم أبياتاً أنسب إليه فيها الفتح، وأشير إلى أنه هو الذي قام بذلك وإن لم يكن حاضراً له بنفسه، واعتذر إليه عن الاغباب

١- شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، ج٨، ص٢٣٩-٢٤١.

بمديحه، فقد كانت الشواغل والقواطع تصدّ عن الإنتصاب لذلك - شعراً:

أبقى لنا الله الوزير وحاطه بكتائب من نصره ومقانب
وامتد وارف ظلّه لنزيله وصفت متونُ غديره للشارب
ماغبت ذاك اليوم عن تدبيرها كم حاضرٍ يُعصى بسيف الغائب[1]

ويذكر ابن الفوطي تكملة للخبر الذي أورده ابن أبي الحديد فيقول في حوادثه الجامعة: «ثم ورد الخبر، أنّ طائفة منهم عبرت إلى دجلة، فقتلوا ونهبوا فنفذ إليهم جماعة من العسكر والعرب نحو ثلاثة آلاف فارس، وقدم عليهم الأمير قزمر الناصري فلما عرفوا بعبور العسكر إليهم رجعوا»[2].

وكانت الغارات المغولية يغلب عليها طابع النهب والقتل ففي سنة ٦٤٧ هجرية، وصل الخبر إلى بغداد أن طائفة من المغول كبسوا إيوان خانقين وما يجاورها، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ونهبوا أغناماً كثيرة وأبقراً وغير ذلك، وساروا إلى (راتكاو) وفعلوا مثل ذلك وانقلبوا إلى السب والراذان... فجفل الناس من طريق خراسان والخالص، ودخلوا بغداد، فخاف الناس

١- شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد, ج٨ ص٢٤٢-٢٤٣.

٢- الحوادث الجامعة: ص١٠٠.

وانزعجوا، وتقدم الديوان إلى الأمير والعساكر بالخروج إلى ظاهر البلد برمي النشاب والاستعداد وتعليق السلاح في الأسواق والخانات والدكاكين والمبيت في الأسواق واشعال الأضواء، ففعلوا ذلك بجانبي مدينة السلام، ونفذت الطلائع ومعهم الطيور ليخبوا بصورة الحال، فعادوا وأخبروا أن المغول عادوا ودخلوا الدربند بعد أن قتلوا في (دقوقا) خلقاً كثيراً وأسروا جماعة، وارتكبوا الفواحش بالنساء والصبيان، فحينئذ دخلت العساكر واطمأن الناس)[١].

أخذ المغول يجوبون البلاد الإسلامية، يَعدُون على أهلها سلباً ونهباً، والخليفة وأعيان دولته لا يهمهم سوى بغداد، ولا ينتدبون الناس أو يحشدونهم في مواجهة هذه الهجمات التي تطال كلّ شيء، ولو فعلوا ذلك، أو تحركوا في اتجاه تعبئة الناس لكفي الناس شر القتال والخسائر الفادحة في بغداد والبلاد الإسلامية.

لقد كانت كل الإجراءات التي اتخذها الخليفة وأركان دولته تقتصر على بغداد ولا تتعدى حدودها المحلية، وهي إجراءات لا يمكن الوثوق بنجاحها أو فاعليتها، كما أن المغول خلال حملاتهم السريعة والخاطفة كانوا يرجعون إلى قاعدتهم العسكرية العريضة وهي آذربايجان فقد كانوا ينطلقون منها إلى الأهداف القريبة، أو ذات المدى المتوسط ففي سنة ٦٥٠ هجرية «وصلت عساكر المغول إلى أهل الجبال وأوقعوا بالأكراد وغيرهم،

١- الحوادث الجامعة: ص١١٩.

وقتلوا وأسروا ونهبوا وسلبوا، وسارت طائفة منهم إلى أن بلغوا حران والرها، فأغاروا على ما هناك،ثم عادوا فصادفوا قفلاً واصلاً من الروم نحو بغداد فقتلوا من فيه ونهبوا الأموال، فكتب ابن الصلايا والي أربل إلى بغداد بذلك، فخاف أهلها خوفاً شديداً، وأما المغول فعادوا إلى منازلهم بآذربايجان وغيرها»[1].

ووصل المغول في سنة ٦٥٠ هجرية، أيضاً «إلى الجزيرة ونهبوا ديار بكر ومَيّافارقين، وجاءوا إلى رأس عين وسَروج وغيرها، وقتلوا زيادة على عشرة آلاف إنسان، وصادفوا قافلةً خرجت من حَرّان تقصد بغداد، فأخذوا منها أموالاً عظيمة»[2] وبعد ذلك بدأ الخوف يدب في أوصال أهل العراق وأخذ الناس يتناقلون الأخبار، ويرقبون الساعة، ففي سنة ٦٥٠ «وردت الأخبار بأن منكو خان ملك التتر سير أخاه هولاكو لأخذ العراق»[3].

وشهدت السنوات الخمس التي سبقت سقوط بغداد نشاطاً عسكرياً مكثفاً في المناطق الشمالية والشرقية من بغداد، مثل خانقين، بعقوبة، داقوقا، مما أدخل ذلك الفزع والهلع في قلوب الناس، حتى وصلوا إلى مشارف بغداد في أوائل شهر محرم سنة ٦٥٦ هجرية (انظر ملحق الخرائط، خارطة رقم ٥).

١- الحوادث الجامعة: ص١٢٨.

٢- النجوم الزاهرة: ج٧, ص٢٥.

٣- السلوك لمعرفة دول الملوك: ج١, ص٤٧٧.

موقف ملوك الأمصار من الغزو المغولي

سبقت الإشارة الى أن الحكومة العباسية كانت محدودة النفوذ ولم يكن لها من سلطان على أكثر الأمصار إلا من ناحية شكلية، الأمر الذي سهل على الجيش المغولي أن يتقدم بسرعة على أجزاء البلاد الإسلامية وخصوصاً بعد سقوط الدولة الخوارزمية سنة ٦٢٨ هـ ، وكان سلاطين الأمصار تنقصهم النظرة المسؤولة للظروف التي تحيط بهم فلم يعتبروا من سقوط الدولة الخوارزمية على يد المغول، بحيث يكون ذلك الأمر باعثاً لهم على الاتحاد، أو الانظواء تحت راية واحدة ولم يستلهموا الدرس حتى جاء الدمار والخراب الى بيوتهم وكانت هناك محاولات من قبل الخليفة في توحيد صفوف السلاطين، وتجاوز الخلافات من أجل مواجهة العدو المشترك، إلا أنها لم تكن بالمستوى المطلوب وكانت متأخرة جداً عن وقتها وذلك لأنّ تلك المساعي جاءت في الوقت الذي وصل المغول إلى المناطق المجاورة لعاصمة الخلافة، كما أنّ تقدير الصلح كان ينقصه التعاون والتكاتف تحت راية واحدة، ويمكن اعتبار هذه الخطوة ناقصة فلو ذهب الخليفة إلى الأمصار المجاورة، وشحذ همته وجعل على جيوش الخلافة رجلاً لبيباً حازماً لكانقدصد العدوان أو قلل من تجاوزهم، ففي سنة ٦٥٤ هـ «تواترت الأخبار بوصول عساكر هولاكو إلى بلاد آذربايجان قاصدة بلاد الشام فوردت قصاد الخليفة بأن يصطلح الملك الناصر مع الملك العزيز صاحب

مصر ويتفقا على قتال التتار فأجاب إلى ذلك وعاد إلى الشام»[١].

ورغم أنّ الإجراء الذي قام به الخليفة _ والذي لا يخلو من توجيه الوزير له في ذلك _ كان إيجابياً إلا أنه كان عديم الفاعلية، ولم يدخل حيز التطبيق في مواجهة المغول.

وتخلى كثير من الأُمراء عن المقاومة أو الدخول في مواجهة مع المغول بعد أن رأوا ضعف إمكانهم مقارنة بقدرات المغول الحربية وعندئذ لجأوا إلى تقديم فروض الطاعة لهولاكو كما هو في أُمراء تركستان وماوراء النهر[٢] وبعض الأمراء فشلوا في المواجهة فانهزموا كما هو لصاحب الروم، حيث انهزم صاحبها إلى بلاد الأشكري، فملكت التتار سائر الروم[٣] وهناك من توجه إلى هولاكو، فأبقاه وأمّنه ففي سنة ٦٥٤ هجرية «توجه الملك الكامل محمد بن شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين إلى خدمة هولاكو، فأكرمه وأمنه وأعطاه فرماناً ورجع إلى بلاده»[٤] وفي رمضان من سنة ٦٥٥ هجرية «توجه الملك العزيز من سلطان الملك الناصر يوسف، وهو صبيٌّ مع الأمير الزّين الحافظي وجماعة بهدايا وتحف إلى هولاكو»[٥].

وبعض الأُمراء قدموا طاعتهم لهولاكو وزادوا بأن طلبوا نجدة للتخلص

١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي، ج٥, ص٢٦٤.

٢- تاريخ الإسلام: حسن ابراهيم حسن, ج٤, ص١٥٤.

٣- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي, ج٤٨, ص٢٥.

٤- المصدر نفسه:: ج٤٨, ص٢٥.

٥- المصدر نفسه:: ج٤٨, ص٢٨.

من عدوهم التقليدي ففي سنة ٦٥٦ هجرية «أنفذ الملك الناصر صاحب دمشق ابنه الملك العزيز إلى هولاكو، ومعه عدة من الأُمراء فلما وصل الملك العزيز إلى هولاكو قدّم ما معه وسأله على لسان أبيه في نجدة ليأخذ مصر من المماليك، فأمر هولاكو أن يتوجه إليه بعسكر فيه قدر العشرين ألف فارس، فطار هذا الخبر إلى دمشق فرحل من كان بها من المماليك البحرية»[١] وأثناء تقدم المغول نحو بغداد طلبوا من صاحب الموصل أن يعد لهم السلاح، وكان لا يملك حيلة أو سبيلاً في مواجهة المغول إلا أن يراسل الخليفة بذلك، إلا أنه أخيراً أدى الطاعة إليهم بتهيئة الإقامات والسلاح لهم[٢].

إنّ هذه المواقف التي صدرت من بعض الأمراء، لم تُتخذ لو لا أنهم رأوا أنهم لا يستطيعون الصمود والمقاومة في وجه السيل العارم الذي يكتسح كل شيء، ففضلوا السلامة، وألقوا السلاح الذي صنع لمواجهة أعداء الأمة، وحملوه على الأُمة مكرهين.

إنّ الخيار السلمي كان خياراً صعباً إلا أنه كان خياراً لا محيد عنه بعد الضعف الذي دبّ في كل أعضاء الأمة فأصبحت لا تدفع عنها خطراً، ولا تعرف لها قدراً، ومن هنا لو أنّ هؤلاء الأُمراء ناوروا على المغول بأن أظهروا لهم الطاعة، وعملوا سراً على رصِّ صفوف الجماعة لكان ذلك مستحسناً

١- السلوك لمعرفة دول الملوك: ج١, ص٥٠٠.

٢- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي, ج٤٨, ص٣٥.

منهم، ولو أنهم قدموا الطاعة الشكلية من أجل الحفاظ على الأمة من التلف والضياع والقتل لكان ذلك محموداً، إلا أنهم كانت تتوزعهم الخلافات هذا على ذاك، وذاك لهذا وبعضهم لبعض عدو، فتبلّدت عنهم الحواس، وأدركهم من الشطط ما أدرك الأمم حين ضعفها وضمورها.

ولا يمكن إعفاء السلاطين من المسؤولية فيما جرى على الأمة آنذاك، وهذا التقدير والحكم هو عين الصواب وذكره الدكتور القزاز قائلاً: «لا يمكن أن نخلي الأمراء المعاصرين من المسؤولية فقد كانوا يملكون من القوة والسلطان ما يزيد على ما تملكه الخلافة نفسها ورغم ذلك لم يقدروا الظروف الجديدة التي أحاطت بالعالم الإسلامي من الغرب والشرق بل مضوا في انقساماتهم ولم يأخذوا العبرة من الأحداث التي كانت تقع أمامهم والمصائب التي كانت تحل بالبلاد أمام أنظارهم حتى غلب العدو على البلاد فغلبوا على أمرهم، فمنهم من لقي مصيره جزاء إهماله وتهاونه، ومنهم من استسلم له فعاش ذليلاً، وكان له عوناً على إخوانه الآخرين. وليست مسؤولية هؤلاء جميعاً واحدة، إنما يتوقف ذلك على ما يملك كل منهم من قوة، وما قام به من تقصير أو خيانة، ويمكن اتخاذ الأمراء الخوارزميين في الشرق والأيوبيين في الغرب مثالاً لهؤلاء الذين كانوا يتعلمون مسؤولية الدفاع عن البلاد أمام العدو مباشرة، والذين كان تقصيرهم وإهمالهم سبباً من أسباب وقوع النكبة. فقد انشغل الخوارزميون بالصراع على السلطة فيما

بينهم فلم يترددوا في الاستعانة بالعدو الوثني على بعضهم البعض»[١].

فالملوك تخلّوا عن التفكير في الوحدة فيما بينهم، وجنحوا نحو عدوهم، وتألّبوا ضد بعضهم بعضاً.

الجيش في العصر العباسي الأخير

قبل الدخول في الحديث عن الجيش العباسي قبل سقوط بغداد، يحسن بنا أن نعطي لمحة تمهيدية عن الجيش في فترة العباسيين في عصرهم الأوّل والتركيبة التي يتكون منها وأقسامه، والأسلحة التي كانت يستعملونها والتحصينات الحربية التي تساعد الجيش في الهجوم والدفاع، وقد ذكر ذلك عدد من الأساتذة وأوضحوا الصورة التي عليها الجيش العباسي، وبشكل مختصر من بدأ نشوئه وحتى قوة شوكته، فقالوا: «لقد أدل العباسيون على الجيش تغييرات جديدة اقتضتها ظروف الدولة الجديدة فبعد أن كان الجيش عربياً بفرقه، أدخل العباسيون فيه فرقاً خراسانية لأن الخراسانيين كانوا من مؤيدي العباسيين وقد حاول الخليفة المنصور أن يحفظ التوازن بين العرب وغيرهم في الجيش فأدخل فرقتين عربيتين من اليمانية والقيسية بالإضافة إلى الفرق الخراسانية، فقد استخدم العباسيون العرب في الجيوش التي وجهوها على البيزنطيين.

١- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير: ص٣٢٣.

ولما ولي المعتصم الخلافة بدأ يستخدم الأتراك في الجيش فقل نفوذ العرب والفرس فيه. وقد أنشأ العباسيون جيشاً دائماً مدرباً يكون تحت السلاح ويستلم رواتبه بانتظام ويكون على استعداد دائم لخوض الحروب. وكان الجيش العباسي في دور قوته يتألف من ثلاثة أقسام:

١- الحرس وهم نواة الجيش وأكثره نظاماً وأكمله عدة، ورواتبه أعلى من رواتب طبقات الجيش الأخرى.

٢- عامة الجيش النظامي.

٣- المتطوعة وهؤلاء ينضمون إلى بعض الجملات رغبة في الجهاد أو طمعاً في الغنيمة.

ويتألف الجيش النظامي في العصر الأوّل من المشاة «الحربية» وأسلحتهم الحراب والسيوف والدروع، ومن الفرسان وهؤلاء يرتدون الخوذ والدروع ويحملون الرماح الطويلة والفؤوس. ثم النشابون ويصحب كل فرقة منهم جماعة من النفاطين يرمون المواد الحارقة على العدو ويصحب الجيش المهندسون والصناع الذين يساعدون الجيش في عمليات الحصار. وكانوا يستعملون المنجنيق في رمي الحجارة أو المواد المحرقة عند ضرب الأسوار. وكانوا يستعملون الأسوار ذات الأبواب الحديدية والخنادق والقلاع والأبراج لحماية المدن من مهاجمة العدو. وكانت الجيوش العربية في العصر العباسي من أحسن الجيوش عدة ونظاماً »[1].

١- تاريخ العرب في القرون الوسطى: ناجي معروف, ص٢٠١-٢٠٢.

وفي عصر أُفول العباسيين تداعى الجيش وذهبت هيبته، وأضحى على غير أمسه الناصع، حيث أصبح عبارة عن قوة غير منظمة يستدعونهم حين الحاجة، ويستغنون عنهم عند زوال التهديد المفروض، وذلك ما ذكره الدكتور فوزي في تقييمه للأوضاع العسكرية والإدارية قائلاً: «ورغم تكرار التهديدات والهجمات من قبل المغول خلال الثلاثين سنة الأخيرة قبل سقوط بغداد فإن الخلافة استمرت على نهجها السابق وهو تجنيد الجند كلما دعت الحاجة إلى ذلك ثم تسريحهم بعد زوال الخطر !! وقد دفع ذلك بطبيعة الحال الجند إلى الهرب من جيش الخلافة بل إنّ معظمهم من الذين سرحوا ولم يجدوا عملاً انظموا إلى جيش المغول»[١].

إنّ الدكتور فاروق وضع يده على الجرح عندما أشار أن الجيش يتم تجنيده وتسريحه حسب الظروف، ولا يوجد جيش مدرب وثابت، وهذا يعني أنّ الجيش الذي أثاروا ضجة في وجوده زمن المستنصر وتم تسريحه في زمن المستعصم هو بالأساس يسري عليه قانون (الإستدعاء والإستغناء) وحسب الحاجة وكانت هذه الطريقة في تعبئة الناس سارية المفعول منذ عهد المستنصر وأيضاً عمل بها ابنه من بعده، ففي سنة ٦٤٣ هجرية وعند ما قصد طائفة من المغول خانقين وبعقوبا أمر الخليفة بالخروج إلى السور، وتم استنفار الأعراب من البوادي والرجالة وتم تعبئة العساكر وترتيبها ميمنة وميسرة[٢].

١- تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية- الإسلامية: ص٣٦٢.

٢- الحوادث الجامعة: ص١٠٠.

وكان الخليفة يفتقد إلى القدرة الإدارية، والتدبير السليم في الحفاظ على الجيش وحرياً به أن يولي عناية خاصة بالقدرة العسكرية لخلافته، وأن يجري تقييماً لها، ويزيد من تعداد أفراد القوات المسلحة، ويقوم بتقسيم الوحدات العسكرية، ويهيىء المعدات والآلات والأسلحة العسكرية، كما كان عليه أن يستخدم المشورة في تولية أُمراء القطعات العسكرية ويجري اتصال مع الأمصار في عملية تجنيد الأفراد، وتحسين رواتبهم، وإعداد الخطط العسكرية الدفاعية والهجومية لصد الاعتداءات المحتملة، أو لدرء الأخطار المغولية والتي تصل أخبارها باستمرار إلى الناس وأركان الدولة، غير أنّ أياً من ذلك لم يحصل، وإنما حدث عكس ذلك: «وكان الخليفة أهمل حال الجند وتعثروا وافتقروا، وقطعت أخبازهم، ونُظم الشعر في ذلك»[1].

وذكر ابن شاكر الكتبي ذلك بقوله: «وكان الخليفة قد أهمل حال الجند ومنعهم أرزاقهم، فآلت أحوالهم إلى سؤال الناس وبذل وجوههم في الطلب في الأسواق والجوامع»[2].

ووصل الحال بهم أن ضجوا وشكوا من الأوضاع المزرية ففي شعبان من سنة ٦٤٠ هجرية حصلت وقعة الأتراك حيث حضر جماعة من المماليك الظاهرية والمستنصرية عند شرف الدين إقبال الشرابي وطلبوا الزيادة في معايشهم وبالغوا في القول والجد في الطلب فرد عليهم، وقال: ما نزيدكم بمجرد قولكم بل نزيد منكم من نزيد إذا أظهر خدمة يستحق بها فنفروا من

١- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج٤٨, ص٣٢.

٢- عيون التواريخ: ج٢٠, ص١٢٩.

فورهم إلى ظاهر السور وتحالفوا وتعاضدوا وطالت المسألة إلى أن حسمت وحلت برجوعهم واعتذارهم(١).

إنّ مشكلة أرزاق الجيش كانت قائمة قبل أن يأتي ابن العلقمي للوزارة، وكان يتصدى لشؤون الوزارة آنذاك أحمد بن الناقد فكيف تنسب هذه المشكلة الخاصة بالعسكر إلى ابن العلقمي، وهل له يد عليهم؟!

فالمشكلة أنّ الخلافة «لم تعط الجيش حقه من العناية والاهتمام، واقتصرت في تكوينه على المماليك الذين كان أغلبهم من الأتراك الذين نشأوا في قصور الخلفاء أنفسهم وكان عددهم لا يتجاوز بضعة آلاف وكانوا يمثلون الحرس الخاص للخليفة أكثر من كونهم جيشا لهم؛ لحماية الناس. فكانت الخلافة تعتمد على جيوش هؤلاء الأمراء في القضاء على الاضطرابات الداخلية التي تقوم بها بعض العشائر كما كانت تعتمد عليهم وتفتح باب التطوع وتستنفر الأعراب من البوادي وتستنجد بأمراء المسلمين الآخرين عند ما تتعرض للخطر، لذلك بقيت الخلافة عاجزة عن القيام بأي عمل عسكري لتحقيق سيادتها على بعض أجزاء العراق ... وعندما تغيرت الأوضاع السياسية في العالم المحيط بها لم تتغير سياستها وكانت الفرصة مؤاتية لها لتقوم بواجبها الحقيقي في زعامة العالم الإسلامي، فتتصدى للدفاع عن البلاد أمام الخطر المغولي قبل استفحاله، وتضع خطة دفاعية مدروسة لاستعادة مكانتها السابقة فينساق وراءها الأمراء المسلمون يأتمرون بأمرها،

١- الحوادث الجامعة: ص٨٦

وينفذون تعاليمها لا يستطيعون النكوص إذا ما رأوا جديتها في العمل وحزمها في التنظيم، ولكنها أغمضت عينيها عن المذابح التي قام بها هؤلاء وأصمت أُذنها عن سماع أنين المستغيثين فعجلت بنهايتها وأصبحت وجهاً لوجه أمام المغول»[١].

وبسبب غياب التخطيط والاهتمام بالجند وقطع أرزاقهم، اتفق عدد من الجند وذهبوا للحضور في صلاة الجمعة لبث شكواهم ومعاناتهم، وكانت ذخيرة الصبر قد نفذت فثاروا في سنة ٦٤٨ هـ ذكر ذلك الذهبي في تأريخه قائلاً: «ثارت طائفة من الجند ببغداد ومنعوا يوم الجمعة الخطيب من الخطبة، واستغاثوا لأجل قطع أرزاقهم»[٢].

ولما وجد الجنود أنّ عسر العيش قد أحكم خناقه عليهم، وأخذ الطوى بأجسامهم إلى رمسهم، فارقوا بغداد لا عن قلى؛ بل لمنعهم أرزاقهم وعدم تلبية طلبهم أو الاهتمام بهم، ففي سنة ٦٥١ هجرية «نزح خلقٌ من الجند من بغداد إلى الشام لقطع أرزاقهم»[٣]، وفيما يلي نتناول كيفية سقوط بغداد وما أَلَمَّ بها من ظروف وأحداث.

١- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير: ص٣١٠-٣١١.

٢- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي, ج٤٧, ص٦٣.

٣- المصدر السابق: ج٤٨, ص٨

المطلب الأوّل: كيفية سقوط بغداد عام ٦٥٦ هجرية

كان المغول مضافاً إلى تحركهم نحو الشرق الإسلامي يرسلون موفدين إلى بغداد ففي سنة ٦٤٣ هجرية «وصل إلى بغداد رسول من المغول، وأعيد ونفذ معه القاضي ابن الرشيد المذكور وفلك الدين به بكتمر أمير آخور حاجب علاء الدين الطبرسي الدويدار الكبير»[١].

وفي سنة ٦٤٤ هجرية « قدم رسولان من التتر أحدهما من بركة، والآخر من باجو، فاجتمعا بالوزير مؤيد الدين بن العلقمي، وتعمت على الناس بواطن الأمور»[٢].

من الأعراف في ذلك الوقت أن يتولى إقامة مراسم الاستقبال صاحب الديوان، وبعد استقبالهم يتم إرسالهم إلى الوزير ليرى ما بحوزتهم أو ما أرسلوا إليه، ومن ثم يعرض ذلك على الخليفة، فلا يوجد في البين شيء يخفى وإذا كان ذلك فكيف للخليفة أن يبقي الوزير في منصبه علماً أنّ الوزير في ذلك الوقت تربطه بأكثر أرباب الدولة علاقات وثيقة؟!

وفي سنة ٦٥٤ هجرية وصل عدد من المغول إلى بغداد ... وكما هو متعارف آنذاك فلابد أن يلتقون بالوزير وبالفعل فقد التقوا مع الوزير وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من أُمراء بغداد مواعيد[٣].

١- الحوادث الجامعة: ص١٤١.

٢- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج٤٧، ص٢٩.

٣- السلوك لمعرفة دول ملوك: ج١، ص٤٩١.

ولا ندري لماذا لا يفصح المقريزي عن نوع الحديث الذي دار بين ابن العلقمي ورسل المغول ؟ وما هي الوعود التي قطعوها للأُمراء؟!

إنَ هذا يعني أنّ الحديث دار بين ابن العلقمي في محضر من الأُمراء وليس خفية وإننا لنربأ بابن العلقمي من الخيانة إذ كيف له أن يقدّم النصح للخليفة في الوقت الذي يخونه سراً، وكانت نصيحته عين الصواب إلا أنه لم يؤخذ بها ! وكان هولاكو يبحث عن مسوغ يتعلل به ليقوم بغزو بغداد، فقد أرسل إلى الخليفة أن يمده بالعساكر ليكون شريكاً له في التخلص من الإسماعيلية في قلعة الألموت وحذر الخليفة من مغبة عدم إرسال الجند إليه وبعد أن قضى على الإسماعيلية أرسل رسالة تهديدية إلى الخليفة يدعوه فيها أن يرسل أشخاصاً من أصحاب المسؤولية في خلافته وقد ذكر ابن العبري تفصيل ذلك بقوله: «وكان في أيام محاصرة قلاع الملاحدة قد سيّر رسولاً إلى الخليفة المستعصم يطلب منه نجدة فأراد أن يسير ولم يقدر ولم يمكنه الوزراء والأُمراء وقالوا: إن هولاكو رجل صاحب احتيال وخديعة وليس محتاجاً إلى نجدتنا وإنما غرضه إخلاء بغداد عن الرجال فيملكها بسهولة، فتقاعدوا بسبب هذا الخيال عن إرسال الرجال. ولما فتح هولاكو تلك القلاع أرسل رسولاً آخر إلى الخليفة وعاتبه على إهمال تسيير النجدة»[1].

إنّ هولاكو كان يملي على الخليفة من موقع القوة ولذا أمر «أن يخرج

١- تاريخ الزمان: ابن العبري، ص٣٠٧، ص٣٠٨.

إليه الدويدار وسليمانشاه وأما الخليفة إن اختار الخروج فليخرج وإلا فليلزم مكانه»[١].

وعندما رأى هولاكو أنّ الخليفة يتثاقل عن إجابته ويرسل له الهدايا القليلة، وجد في ذلك فرصة في التحرك نحو بغداد، فتوجه إليها في شهر شوال سنة ٦٥٥ هجرية، ورحل عن همدان قاصداً بغداد[٢].

المطلب الثاني: مشهد بغداد النفسي والإعلامي

وكان الرعب يسير أمامه: « وأجفل أهل السواد من بين يديه إلى بغداد حتى امتلأت شوارعها، فضاقت على وسعها عنهم، فقعدوا في الطرقات والدكاكين، وغلت الأقوات ووقع الناس في الخوف الشديد والويل العظيم»[٣]، هذه صورة من مشهد بغداد الإعلامي والنفسي.

وعندما اقترب المغول: « كثر الارجاف ببغداد، وخرج الناس منها إلى الأقطار»[٤] وأخذ الناس يبحثون عن مأمن، واستغل المغول هذا الانكسار فترددت رسلهم إلى بغداد، ففي سنة ٦٥٥ هجرية: «ترددت رسل التتار إلى بغداد، وكانت الفرامين منهم واصلة إلى ناس من بعد ناس من غير تحاش

١- تاريخ مختصر الدول: ص٢٧١.

٢- المصدر نفسه: ص٢٦٩.

٣- الحوادث الجامعة: ص١٥٥.

٤- السلوك لمعرفة دول الملوك: ج١، ص٤٩٦.

منهم في ذلك ولا خيفة، والخليفة والناس في غفلة عما يراد بهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً»[١].

ويبدو أنّ الخليفة قد فقد السيطرة على بغداد قبل أن تأتي عساكر المغول إذ كيف تأتي هذه الرسل ويقومون بتوزيع رايات الأمان المغولية على الناس، ولا يقوم بإجراء مضاد لذلك؟ !

نعم لقد ذهبت ريح الدولة ومكانتها من نفوس الناس، وبدأوا يتطلّعون إلى النجاة بمهادنة المغول الجفاة.

لقد أخذ الناس يموج بعضهم في بعضهم، وأخذت تدور أعينهم من الخوف، وقد تسلل هذا الانهزام حتى إلى رجال الدين فاخذوا يتحدثون عن الموت القادم، والقدر الحتم «وكان آخر خطبة خطبت ببغداد: قال الخطيب في أولها: الحمد لله الذي هدم بالموت مُشَيَّدَ الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار»[٢].

وكان الأولى بمثل هؤلاء الخطباء أن يحثوا الناس إلى الجهاد إن كانوا قد اختاروا هذا الطريق، أو الحديث عن التكليف الشرعي في مثل تلك الظروف المفروضة على الأمة.

ولأجله نجد أنّ روح الهزيمة قد جرفت الناس إلى الهروب من بغداد نحو الأقطار الأخرى كما أشرنا سابقاً.

وما أحوج الأمة في ذلك الوقت إلى الشعراء الذين يبعثون فيها روح

١- تاريخ الإسلام: الذهبي، ج٤٨، ص٢٨.

٢- تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي، ص٥٥٦.

الأمل والحماس والثورة، إلا أنّ شعراء ذلك العصر كانوا لا يفصلهم شيء عن أُولئك المنكسرين. ورقدوا وداخلهم البكم فانعقدت ألسنتهم، ولم تحل عقدتها إلا بعد واقعة بغداد ليفرغوا غيضهم الطائفي على الوزير ابن العلقمي!!

وبعد ثلاثة أشهر من تحرك المغول من همدان، وصلوا إلى بغداد في ثاني المحرم سنة ٦٥٦ هجرية، وقد شبّه الذهبي جموع الجيش المغولي وهولها بقوله: «وأقبلت المغُلُ كالليل المظلم»[(١)].

وكان التوازن العسكري فيما بين الجانبين يرجح لصالح المغول الذين اكتسبوا خبرة عسكرية، وخطط حربية تفوق ما عند جيش الخلافة، إضافة لأعدادهم الغفيرة.

والخطوة العسكرية الأُولى التي اتخذها جيش الخليفة أن: «سيّر مائة رجل إلى الدربند يكونون فيه ويطالعون الأخبار، فمضوا فلم يطلع لهم خبرٌ لأن الأكراد الذين هناك دلّوا التتار عليهم فقتلوهم أجمعين فيما قيل»[(٢)].

أما الخطوة العسكرية الأُولى للمغول في التقدم نحو بغداد فقد هجموا واحتلوا المناطق المجاورة لبغداد، ومن ثم تعبئتهم في خدمة الجيش المغولي كما فعلوا مع صاحب الموصل[(٣)]. وكانت القوات كبيرة، فقام هولاكو بتوزيع هذه القوات على محورين وحدد السير الجغرافي، والموقع

١- تاريخ الإسلام: ج٤٨, ص٣٢.

٢- المصدرنفسه: ج٤٨, ص٣٥.

٣- المصدر نفسه: ج٤٨, ص٣٥.

الذي تربض فيه القوات حيث ينتهي أحدهم وهو هولاكو إلى جهة الشرق، فيما يصل الجيش الآخر إلى جهة الغرب: «وأمر هولاكو بايجو نوين وسونجاق نوين ليتوجها في مقدمته على طريق أربل وتوجه هو على طريق حلوان. ولما بلغه أنّ بايجو نوين عبر دجلة ونزل بالجانب الغربي ظن أن هولاكو قد نزل هناك فرحل عن بعقوبا ونزل بحيال بايجو وقلي يزك[1]. وأسر المغول أميراً من أمراء الخليفة يقال له أيبك الحلبي فحملوه إلى هولاكو فأمّنه إن تكلم بالصحيح، وطيّب قلبه فصار يسير أمام العسكر ويهديهم»[2].

وكان المغول قد استخدموا تكتيكاً عسكرياً حين وصولهم قريباً من بغداد فلم ينزلوا بمحاذاة الدور والمنازل والحصون بحيث يكون أهل بغداد في منازلهم أكثر تسلطاً من المغول الذين يستقرون في أرض مكشوفة، وإنما نزلوا من بغداد على بعد مرحلتين[3] وقد استطاعوا بهذه الخطوة أن يجمعوا معلومات مهمة عن بغداد ليقوموا بالخطوات العسكرية الأصلية، كما أنهم أخرجوا عسكر بغداد من تحصيناته في داخل بغداد وتصادموا مع الدويدار فذهبت معظم قوته.

واستخدموا المناورة العسكرية، ففي الوقت الذي ذهب الدويدار وعبر

١- رئيس العسس.

٢- تاريخ مختصر الدول: ص٢٧٠.

٣- تاريخ الإسلام: ج٤٨. ص٣٥.

دجلة، ونزل قريباً من بعقوبا[١] سمع الدويدار أن التتار قد توجهوا نحو الأنبار، فسار إليهم ولقي عسكر سونجاق نوين وزغم أنّ الدويدار هزمهم بادي الأمر إلا أنّ المغول انتصروا عليه فقتل أكثر عسكره ونجا هو في نفر قليل من أصحابه ودخل بغداد[٢].

وعند ذهاب الدويدار إلى خارج بغداد في عسكر الخلافة، أمر الخليفة مرشداً الخصي المنسوب إلى إقبال الشرابي أن يخرج في باقي العسكر للقاء السلطان بخانقين، فامتنع الأُمراء من المسير تحت لوائه[٣].

وهذا يعني أنّ الخليفة لم يحدد المسؤوليات مسبقاً وإنما في ظروف الحرب، الأمر الذي يعد خطأً كبيراً، كما أنّ الحادثة أعلاه تنم عن أنّ الجيش يرفض أهلية بعض الأفراد لقيادة الجيش المتبقي.

ونعود إلى تحركات المغول، ففي منتصف شهر المحرم من سنة ست وخمسين وستمائة «نزل هولاكو بنفسه على باب بغداد، وفي يوم وليلة بنى المغول بالجانب الشرقي سيباً،أعني سوراً عالياً وبنى بوقاتيمور وسونجاق نوين وبايجو نوين بالجانب الغربي كذلك وحفروا خندقاً عميقاً داخل السيبا ونصبوا المنجنيق بإزاء سور بغداد من جميع الجوانب ورتبوا العرادات وآلات النفط»[٤].

١- الحوادث الجامعة: ص١٥٤.

٢- تاريخ مختصر الدول: ص٢٧٠.

٣- الحوادث الجامعة: ص١٥٤.

٤- تاريخ مختصر الدول: ص٢٧٠-٢٧١.

هذه الخطوات تكشف مدى الإمكانات التسليحية التي للمغول وأنهم يسيرون بخطى حثيثة نحو اسقاط بغداد، ودخلوا إلى بغداد بعد خرق تحصيناتها، وبعد أن رفض هولاكو العروض التفاوضية المتأخرة من قبل الخليفة «فلما عاين الخليفة العجز في نفسه والخذلان من أصحابه أرسل صاحب ديوانه وابن درنوش إلى خدمة هولاكو ومعهم تحف نزرة، قالوا: إن سيَّرنا الكثير يقول: قد هلعوا وجزعوا كثيراً فقال هولاكو: لم ما جاء الدويدار وسليمانشاه فسير الخليفة الوزير العلقمي وقال: أنت طلبت أحد الثلاثة وها أنا قد سيّرت إليك الوزير وهو أكبرهم، فأجاب هولاكو إنني لما كنت مقيماً بنواحي همدان طلبت أحد الثلاثة والآن لم أقنع بواحد. وجد المغول بالقتال بازاء برج العجمي وبوقاتيمور من الجانب الغربي حيث المبقلة وسوق نجاق نوين وبايجو نوين من جانب البيمارستان العضدي. وأمر هولاكو البيكتجية ليكتبوا على السهام بالعربية: إن الاركاونية والعلويين والدانشمدية وبالجملة كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحريمه وأمواله. وكانوا يرمونها إلى المدينة، واشتدّ القتال على بغداد من جميع الجوانب إلى اليوم السادس والعشرين من محرم»[1].

وبعد أيام من بدء المعركة، وبعد انكسار الدويدار وجنده في المعركة، «ملك المغول الأسوار وكان الابتداء من برج العجمي. واحتفظ المغول الشط ليلاً ونهاراً مستيقضين لئلا ينحدر فيه أحد»[2].

١- تاريخ مختصر الدول:: ص٢٧١.

٢- المصدر السابق: ص٢٧١.

إنّ هذا الاختراق ما كان ليحصل لو لا أنّ المغول قاموا باستدراج الدويدار إلى خارج بغداد، مما أدى إلى أن يهلك منهم خلق كثير ودخل من نجا إلى بغداد بصورة مزرية انهلعت لها قلوب الناس، وتخلى من به بقية عزم عن عزمه، وأقفلوا إلى أهلهم مذعورين: «ودخل من نجا منهم مع الدويدار على أقبح صورة، وتبعهم الأمير بايجو وعسكره يقتلون فيهم وغنموا سوادهم وكل ما كان معهم، ونزلوا بالجانب الغربي، وقد خلا من أهله، فشرعوا بالرمي بالنشاب إلى الجانب الشرقي، فكانت السهام تصل إلى الدور الشطانية، وكان الخليفة جالساً في رواقه وبين يديه صغيرة من مولدات العرب تسمى «عرفة» كانت مدللة مطبوعة مضحكة، فأصابها سهم دخل من بعض الشبابيك فقتلها، فانزعج الخليفة لذلك وأحضر السهم بين يديه»[١].

وتستمر المعركة الدامية والتي يخوض فصولها طرف واحد وهم المغول، أما أهالي بغداد فكانوا لا يستطيعون دفع شيء مما أُحيط بهم، وأرادوا أن يخلصوا نجياً فلم يكن لهم ذلك فيد الهلاك والعطب أخذتهم حتى في بيوتهم فجعلتها قبوراً لهم: «ووضع السيف في أهل بغداد يوم الاثنين خامس صفر وما زالوا في قتل ونهب وأسر وتعذيب الناس بأنواع العذاب واستخراج الأموال منهم بأليم العقاب مدة أربعين يوماً، فقتلوا الرجال والنساء والصبيان والأطفال فلم يبق من أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل

١- الحوادث الجامعة: ص١٥٦.

السواد إلا القليل، ما عدا النصارى فإنهم عين لهم شحان حرسوا بيوتهم، والتجأ إليهم خلق كثير من المسلمين فسلموا عنهم، وكان ببغداد جماعة من التجار الذين يسافرون إلى خراسان وغيرها قد تعلقوا من قبل على أُمراء المغول وكتب لهم فرامين، فلما فتحت بغداد خرجوا إلى الأُمراء وعادوا ومعهم من يحرس بيوتهم، والتجأ أيضاً إليهم جماعة من جيرانهم فسلموا»[١].

المطلب الثالث: مصير الخليفة وأركان دولته أثناء سقوط بغداد

بعد اختراق أسوار بغداد، قام هولاكو بخطوة كبيرة من شأنها أن تنزل الهزيمة الكاملة بالخليفة والأهالي، وهي اصداره أمراً بأن يخرج إليه الخليفة وبعض الأفراد الذين حدد هولاكو هويتهم، ليتمكن بذلك من حجزهم، أو قتلهم، أو ما شاء له أن يفعل: «وأمر هولاكو أن يخرج إليه الدويدار وسليمانشاه، وأما الخليفة إن اختار الخروج فليخرج إليه وإلا فليلزم مكانه. فخرج الدويدار وسليمان شاه ومعهما جماعة من الأكابر.ثم عاد الدويدار من الطريق بحجّة أنه يرجع ويمنع المقاتلين الكامنين بالدروب والأزقة لئلا يقتلوا أحداً من المغول فرجع وخرج من الغد وقتل... ولما رأى الخليفة أن لابد من الخروج أراد أو لم يرد استأذن هولاكو أن ينزلوه بباب كلواذ وشرع

١- الحوادث الجامعة: ص١٥٨.

العسكر في نهب بغداد ودخل بنفسه إلى بغداد ليشاهد دار الخليفة وتقدَّم باحضار الخليفة فأحضروه ومثل بين يديه وقدم جواهر نفيسة ولآلئ ودرراً معبّاة في أطباق ففرق هولاكو جميعها على الأمراء »[١].

وبعد أن استولى هولاكو على الأموال وما حوته القصور أصدر أمراً بقتل الخليفة، وقتل أيضاً ولد الخليفة الأكبر[٢] وقتل مجاهد الدين الدويدار، والشرابي، والأستاذ دار محيي الدين ابن الجوزي وولداه، وسائر الأمراء والحجّاب والكبار» [٣].

وهكذا يلاحظ أن الخليفة وأعيان دولته ذهبوا بأرجلهم إلى هولاكو، وقُتلوا بعد أن القوا السلاح، وأسروا الندامة على الاقتراح الذي قدّمه عليهم ابن العلقمي، وأخيراً أعطوهم كل شيء المال والأعراض والأنفس، وأصبحت بغداد وتوابعها أسيرة بأيدي المغول.

المطلب الرابع: الخسائر التي لحقت ببغداد

كانت الخسائر التي لحقت بغداد جسيمة وكانت كالتالي:

١- الخسائر بالأرواح تتراوح بين ٨٠٠ ألف نسمة إلى ألف وثمانمائة

١- تاريخ مختصر الدول: ص٢٧١.

٢- الحوادث الجامعة: ص١٥٧.

٣- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج٤٨، ص٣٧.

نسمة، وقد رجح الذهبي أن يكونوا ثمانمائة ألف [١] من غير الجرحى والذين يقدر عددهم بالآلاف.

٢- وكان القتل قد شمل الجميع، النساء والأطفال والشيوخ ورجال الدولة، وقد عبر الذهبي عن ذلك وقال: ولم ينج إلا من اختفى أو تخبأ وهم قليل من كثيرٍ[٢] ومن كان في الآبار والقنوات[٣].

٣- الخسائر المادية كانت كبيرة حيث: «أحرقت معظم البلد وجامع الخليفة وما يجاوره واستولى الخراب على البلد» [٤].

٤- التلوث البيئي، والوضع الصحي المتدهور والذي أعقب احتلال بغداد فقد كانت القتلى في الدروب والأسواق كالتلول، ووقعت الأمطار عليهم ووطئتهم الخيول فاستحالت صورهم[٥].

٥- السبي والأسر وتعذيب الناس لاستخراجهم الأموال[٦].

٦- أُلقيت كتب العلم التي كانت في خزائن بغداد بدجلة معاملة بزعمهم لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن[٧] إضافة إلى تدمير الآثار الحضارية التي كانت قائمة ببغداد آنذاك.

١- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج٤٨, ص٣٦.

٢- المصدر السابق: ج٤٨, ص٣٦.

٣- الحوادث الجامعة: ص١٥٩.

٤- المصدر السابق.

٥- المصدر السابق.

٦- تاريخ الإسلام: ج٤٨, ص٣٩.

٧- تاريخ ابن خلدون, ج٥, ص٥٤٣.

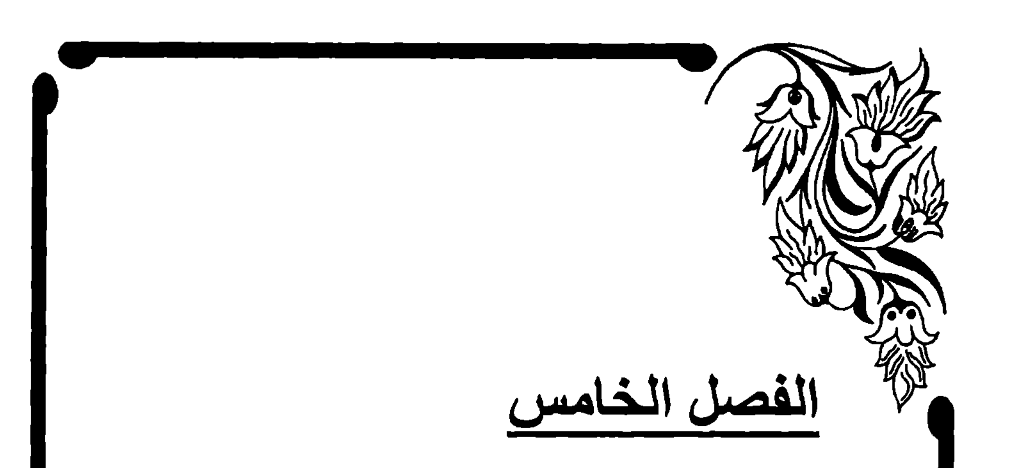
جدير بالذكر أنّ الهجوم المغولي بدأ من ١٤ محرم واستمر أربعين يوماً في قتل وسلب وأسر وتعذيب[١].

وفي رابع عشر من صفر رحل هولاكو عن بغداد بعد أن عين فيها عدداً من الأُمراء منهم علي بهادر وصاحب الديوان والوزير وابن درنوش[٢].

غير أنّ الوزير ابن العلقمي توفي في ظروف غامضة بعد ثلاثة أشهر من الغزو المغولي أي في سنة ٦٥٦ هـ

١- الحوادث الجامعة: ص١٥٨.

٢- تاريخ مختصر الدول: ص٢٧٢.



الفصل الخامس

ابن العلقمي
و
المؤرخون



ابن العلقمي والمؤرخون

استمرت الخلافات الطائفية الى ما بعد الغزو المغولي، وقد كانت تلك الخلافات يقودها الأكثرية ويؤيدهم من له سلطان على الناس في مقابل أُولئك الذين يطالهم طيش التعصب، وفي هذه المرّة حيكت قصص من شأنها أن تذهب بمكانة ابن العلقمي وتضعه في صفحة الذين أساؤوا للأُمة، و كان المشرف على إخراج القصص هم عين أُولئك الذين فتكوا بالشيعة قبل الغزو المغولي، والآن أرادو صرف الانظار عن هزيمتهم، أو القاء تبعة الهزيمة المنكرة على ابن العقلمي. و كان حري بأُولئك المؤرخين أن يعلموا طبيعة الظرف الذي عاشته الأُمة، و ان لا يحددوا الهزيمة بعامل واحد أو (شخص واحد) قام بنشاط منقطع النظير فحقق النصر للمغول!!

وفي هذا الفصل سنتناول دور الوزير والخليفة وأعيان الدولة في أحداث بغداد ثم نعطف البحث حول اقوال و احكام المؤرخين في ذلك و ابداء ملاحظاتنا بهذا الصدد.

الوزير ابن العلقمي و التهم الموجهة اليه

كثرت التهم التي وجهت نحو ساحة ابن العلقمي، و أخذ بعض المؤرخين ينسج من خياله أوهام للنيل من الوزير ابن العلقمي، و قد

أضحت تلك التهم عبارة عن قصص لا تصمد أمام النظرة العابرة، أو التأمل البسيط.

و فيما يلي نسلط الضوء على ذلك و بيان وجه الحقيقة فيها و إماطة اللثام عنها:

أ- الشبهة حول تعصب الوزير ابن العلقمي للشيعة [١]

أشرنا سابقاً الى حملات قمعية ضد الطائفة الشيعية قام بها ابن الخليفة الأكبر، والدويدار الصغير قائد الجند و قد حصلت خلال ثلاثة سنوات ٦٥٣ـ٦٥٥هـ وقتل خلالها عدد كبير من الشيعة وقد سبيت نسائهم و بيعت في أسواق الرقيق، ونهبت ديارهم و انتهكت أعراضهم. كل ذلك حصل من دون أن يكون هناك أي تطييب لخواطر الناس و تهدأتهم، وبدل الاعتذار إلى الذين أصابتهم مصيبة الناس، نقلوا حملتهم صوب ابن العلقمي, واتهموه بأنه يحرّض الشيعة ويمنّيهم الأماني، واتهموه أيضاً بالغلو والتعصب والخبث وغير ذلك من التهم الرخيصة، التي تليق بمطلقيها . ولكن هل كان ابن العلقمي متعصباً وغالياً في تشيعه كما يدّعون ؟

إنّ ابن العلقمي كان رجلاً فاضلاً كاملاً لبيبا كريماً وقوراً [٢]. وقد تلقى تعليمه على يد سيد الرؤساء ابن أيوب الذي كان يروي عنه جمع من علماء

١- انظر النجوم الزاهرة: ج٧, ص٤٧, تاريخ ابن الوردي: ج٢, ص٢٧٩, تاريخ الخميس: ج٢, ص٢٧٦.

٢ - الفخري في الآداب السلطانية: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، ص٢٣٧.

الشيعة، مثل القاسم بن معية، والسيد ابن زهرة ووالد العلامة وغيرهم[١]، وكان ابن العلقمي إمامي المذهب صحيح الاعتقاد رفيع الهمة، محباً للعلماء[٢]، وكان له علاقة بالسيد رضي الدين ابن طاووس [٣]، ويمكن أن ندرج هذه العلامة للمشابهة والمقاربة العقائدية، مضافاً إلى أنّهما من بلدة الحلة التي عاش فيها كبار علماء الشيعة آنذاك، وما قيل من أن نسب ابن العلقمي قمي أو فارسي الأصل [٤]، لا صحة له، حيث يرجع نسبه إلى قبيلة بني أسد، وهي من أكثر القبائل العربية في الحلة عدّة وعدداً [٥]، وما أن دخل حوزة العمل السياسي والإداري حتى غلب عليه ذلك فقد كان يؤدي وظائفه بشكل جيد، وينبذ التعصب لمذهبه، فيقوم بالحضور في محافل أهل السّنة ومساجدهم، ويستمع إلى خطبهم، ويحضر معه بعض الرتب الإدارية في الخلافة العباسية إلى جامع القصر [٦].

وكان ابن العلقمي يدعوا إلى تغيير الأساليب التي تثير حساسية الناس،

---

١ - الكلباسي، أبو المعالي محمد بن محمد، الرسائل الرجالية، ج٢ ص٥٦٨، تحقيق محمد حسين الدرايني، دار الحديث ـ قم.

٢ - القمي، عباس، الكنى والألقاب، ج١ ص٣٦٢.

٣ - السيد ابن طاووس، جمال الأسبوع، ص٨، تحقيق جواد قيومي الأصفهاني، مؤسسة الآفاق، ط١ ـ ١٣٧١ش.

٤ - النائيني، علي بن حسين، أنوار المشعشعين في ذكر ورود الطالبيين إلى القميين، ج٣ ص٣٩٧.

٥ - العلامة الحلي، إرشاد الأذهان، ج١ ص٣١، تحقيق فارس حسون، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين ـ قم، ط١ ـ ١٤١٠ق.

٦ - العسجد المسبوك: ج٢, ص٥٦٣.

وتهدد وحدتهم، فقام بتوجيه المذاهب الإسلامية نحو إلتزام الاعتدال، وذلك في منتصف القرن السابع الهجري، بأن دعى الأساتذة إلى داره وتقدّم إليهم في انتهاج سبيل واقعي ومعتدل، فيذكروا كبار المشايخ بإجلال وتقدير، وأن لا يتعدي بهم السرف إلى الاستغناء عنهم، والاستخفاف بهم، وإنما عليهم أن يلزموا الطريقة الوسطى، وقد قبل الأساتذة الأساتذة ممثلين للوزير، وممثلين لمذاهبهم، فيما عارض آخرون عرض الوزير، وقبلوا بعد - على كُره ؛ بعد أن تدخل الخليفة في حسم نزاع القوم ؛ ففي سنة ٦٤٥ هـ «أحضر مدرسو المستنصرية إلى دار الوزير، وتقدّم إليهم أن لا يذكروا شيئاً من تصانيفهم، ولا يلزموا الفقهاء بحفظ شيءمنها، بل يذكروا المشايخ تأدباً معهم وتبركاً بهم، وأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي مدرس الحنابلة بالسمعوالطاعة، ثم مدرس المالكية سراج الدين عبد اللّه الشرمساحي، وقال» ليس لأصحابنا تعليقة، فأما النقط من مسائلالخلاف فمما أرتبه « فبان بذلك عذره، وأما شهاب الدين الزنجاني مدرس الشافعية وأقضى القضاة عبدالرحمن بناللمغاني مدرس الحنيفة، فأنهما قالا ما معناه «أن المشايخ كانوا رجالاً ونحن رجال» ونحو ذلك من إيهام المساواة، فأنهيت صورة الحال، فتقدم الخليفة أن يلزموا بذكر كلام المشايخ واحترامهم، فأجابوه بالسمع والطاعة»[١].

---

١ - الحوادث الجامعة: ص١٠٨.

فالوزير ابن العلقمي يمارس دور التهدئة والنصح إنطلاقاً من موقعه في الدولة، ولم يلاحظ عليه في إجرائه أي ميول مذهبية بل يحاول أن يجعل الخطاب الديني أكثر قبولاً، ويبعده عن الإثارة التي تؤدي إلى الخلاف، وأنّه حاول حصر الموضوع مع المدرسين دون عرض القضية عليهم في مشهد من الناس، ولو كان لديه نوايا يبيتها لاستغل هذه الفرصة للايقاع بهم في شراك مكره، إلا أنه ليس من دأبه وخلقه ذلك.

ابن العلقمي من العدل الاجتماعي إلى الاعتدال الديني

كان الوزير ابن العلقمي يتعامل حتى مع غير المذاهب الإسلامية بروح العدالة، وهذه الحادثة تؤيد ما ندّعي حيث أرسل إلى نسيبه بالحضور عنده ليترافع مع أحد اليهود حيث قدّم شكوى ضد نسيبه ومن ثم يبت في الدعوى لصالح الطرف المحق، وكان ذلك في سنة ٦٤٨ هـ ، فقد «صلب حسين بن تاج الدين بن العلقمي نسيب الوزير مؤيد الدين بن العلقمي نفسه، وكان شاباً، وسبب ذلك أنه تنابذ هو ويهودي بقال، فأهانه فشكا منه، فطلب ليحضر إلى دار الوزير فامتنع من الحضور وصلب نفسه»[1].

ولو عرف غلظته وخبثه المذهبي - كما يدعي بعض المؤرخين[2] لما تجرأ أحدٌ أن يشكوا نسيبه وقريبه، ولن يأتي إليه أحد ظناً به على المعروف،

١- الحوادث الجامعة: ص١٢٢.

٢- النجوم الزاهرة: ج٧, ص٤٧, وتاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي, ج٤٨, ص٣٤.

ويسأله ترتيبه رأساً على اليهود[١] ثم إنّ ابن العلقمي لم يقم بأعمال متطرفة أو غالية حتى يوسم بذلك.

وقد تأملنا في الوزير ابن العلقمي فلم نشاهد خبثاً ظاهراً أو مستوراً، بل رأينا منه اتخاذ التدابير الصحيحة في كثير من مواقفه.

موقف ابن العلقمي من الفتن الطائفية

وجاءت شبهة غلظته وخبثه بناءاً على الأحداث والفتن التي حصلت في بغداد من سنة ٦٥٣ هـ الى سنة ٦٥٥ هـ حيث قام بعض المؤرخين بتفسير ذهاب الوزير ابن العلقمي الى أهل الكرخ بأنه تعاطف معهم لوجود خلفية مذهبية تجمع ابن العلقمي وأهل الكرخ.

إنّ ابن العلقمي ذهب الى الناس وهدأ من روعهم لأنهم ضحية المهاجمين، بعد أن ذاقوهم الويل: «ارتكبوا من الشيعة العظائم, فحنق الوزير, وأضمر الشر وأمر أهل الكرخ بالصبر والكف»[٢].

ويعد ذهاب الوزير الى أهل الكرخ من صميم عمله كرجل مسؤول, إذ أن الناس الذين داخل مسؤولية الخلافة قد تعرضوا للحيف والظلم حيث قام عناصر من نفس إدارتها بالأعمال المشينة التي لا تليق برجال الدولة:

١- الحوادث الجامعة: ص١٢٢.

٢- النجوم الزاهرة: ج٧, ص٤٧.

«فأمر أبو بكر ابن الخليفة ركن الدين الدواتدار العسكر فنهبوا الكرخ وركبوا من النساء الفواحش»[١].

وهل يلام أي مسؤول في الدولة إذا غضب من هذه الأعمال؟! وهل يعد ذلك تعصباً؟

إنّ تجاهل قتل الشيعة في الفتنة الطائفية والانتقال بالأحداث الى نوازل أُخرى ينسبونها الى ابن العلقمي ما هي إلا خطوة لصرف الأنظار عن التعصب الذي عليه بعض أركان الدولة من قبيل الدويدار وابن الخليفة، وأيضاً لإلقاء تبعة سقوط بغداد وما يجري فيها على ابن العلقمي ومن شاكله.

ب- الوزير ابن العلقمي لا صلة له بالمغول

ذكر بعض المؤرخين[٢] إنّ هناك مراسلات بين المغول و بين ابن العلقمي، وذلك محض تجاوز للحقائق التاريخية وتغافل عنها، وقد أشرنا سابقاً إنّ من الاعراف السائدة في ذلك الزمان عندما يأتي رسول من أحد الأمصار، أو من بلد معين أن يكون هناك استقبال رسمي في سور البلد خارج بغداد، ويقوم باستقباله أُستاذ الدار ومعه جماعة من الجند، وبعد ذلك يأتي الى الوزير ليعرض ما عنده.

١- تاريخ ابن الوردي: ج٢, ص٢٧٩.

٢- تاريخ ابن الوردي: ج٢, ص٢٧٩, شذرات الذهب: ج٥, ص٢٥٥, السلوك لمعرفة دول الملوك:ج١ص ٤٩٠-٤٩١.

ففي سنة ٦٤٣هـ وصل الى بغداد رسول من المغول وتم استقباله من قبل رجال الدولة[١]. وفي سنة ٦٤٤هـ قدم رسولان من التتر واجتمعا بالوزير ـ ثم يضيف الذهبي تعليقاً قارصاً ـ وتعمّت على الناس بواطن الأمور[٢].

ولنا ان نتساءل و نقول متى علم الناس أُمور الخلافة؟ أو أشركوهم في أُمورهم؟ حتى يطّلعوا على بواطن الأمور!. وكيف للخليفة أن يبقي الوزير في منصبه الى سنة ٦٥٦هـ علماً أنّ الوزير تربطه بأكثر أرباب الدولة علاقات وثيقة.

وفي سنة ٦٥٤هـ جاءت رسل المغول، وقد اجتمعوا و تحدثوا مع الوزير ابن العلقمي[٣].

إنّ الاجتماع المذكور بالوزير ذكر عند مؤرخين آخرين نظير ابن العبري حيث قال: بأن هولاكو أثناء حصاره لقلاع الملاحدة بعث الى الخليفة يطلب نجدة فأراد ان يسير ولم يقدر، ولم يمكنه الوزراء والأُمراء[٤].

وعندما أراد هولاكو أن يتوجه الى العراق في سنة ٦٥٥هـ ارسل رسولا

١- الحوادث الجامعة: ص ١٤١.

٢- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤٧ ص ٢٩.

٣- السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٤٩١.

٤- تاريخ مختصر الدول: ص ٢٦٩.

آخر الى الخليفة وعاتبه على إهماله تسيير النجدة[١] [٢]. وكان الرسل عندما يأتون يدخلهم استاذ الدار الى الوزير.

ومن هنا ترفع التهمة في تردد الرسل على الوزير.

ولكن لو تنزّلنا وقلنا إنّ رسل المغول كانوا يترددون على ابن العلقمي فهل هناك حاجة لابن العلقمي الى أن يرسل رسالة بحلق رأس أحدهم وكتابة رسالة الى هولاكو؟! أنّ ذلك مما يقضي منه العجب !

ومع ذلك كتب بعضهم قصة عجيبة لاتوجد إلا في عالم الأوهام، قاصداً الصاق التهمة بابن العلقمي، فالصفدي والكتبي توافقا على إذاعة القصة فقالوا: «وحكي انه لما كان - ابن العلقمي- يكاتب التتار تحيّل مرة الى أن أخذ رجلا وحلق راسه حلقا بليغا وكتب ما أراد عليه بوخزِ الأُبر كما يُفعل بالوشم ونفض عليه الكحل وتركه عنده الى أن طلع شعره وغطّى ما كتب فجهّزه وقال إذا وصلت مرهم بحلق رأسك ودعهم يقرأون مافيه وكان في آخر الكلام قطّعوا الورقة فضربت رقبته وهذا غاية في المكر والخزي والله أعلم»[٣].

ويذكر حسن الأمين هذه الحادثة المضحكة بعد استعبار، ويتسائل ومن

١- تاريخ مختصر الدول: ص ٢٦٩.

٢- النجدة: إرسال قوات عسكرية من الخليفة لمساعدة هولاكو في القضاء على الاسماعيلية في قلعة ألموت.

٣- عيون التواريخ: ج ٢٠ ص ٧٦، والوافي بالوفيات، ج ١ ص ١٨٦.

ثم يورد تعليق الدكتور مصطفى جواد فيقول: «نسي ابن شاكر أنّ يبين لنا كيف استطاع صاحب الرأس المكتوب عليه بالأبر، كيف استطاع تحمّل آلام الأُبر وهي تغرس في رأسه في الرسالة الطويلة!.

ويعلق الدكتور مصطفى جواد على هذا القول مستهزئاً: فليت شعري من خبّر بهذا الفعل ـ لو صح ـ أبن العلقمي؟ أم الذي قُطع رأسه؟ أم المغول الذين يعتبرون هذا من أهم أسرارهم؟!»[١].

ووصل الحال ببعض المورخين أن يوسع من التهمة لتشمل أتباع الخليفة، فقد قال الكتبي في وصف الخليفة والمكاتبات والمراسلات بين أتباعه وبين هولاكو أنّ: «الخليفة غافل في خلوته ولهوه، والوزير مؤيد الدين واتباع الخليفة يكاتبون هولاكو والرسل بينهما»[٢].

وعلى هذا الادعاء لم يبق غير الخليفة لم يكاتب المغول وربما كاتبهم هو أيضا!!.

وهناك شبهة تندرج في ضمن إطار تعاون ابن العلقمي مع المغول وهي الشبهة القائلة بانّ الوزير: «لايوصل مكاتبات صاحب الموصل ولا غيره الى الخليفة»[٣]، وهذه تتهافت بمجرد أن يتابع القارئ الأحداث من نفس المؤرخ الذهبي وآخرين؛ فقد ورد أنّ صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ قد تعاون مع هولاكو، وأرسل مدداً من الموصل برفقة ولده الملك الصالح ركن

١- الإسماعليون والمغول ونصير الدين الطوسي: حسن الأمين ص ٢٨١.

٢- عيون التواريخ: ج ٢٠ ص ٧٤.

٣- تاريخ الإسلام: ج ٤٨ ص ٣٥.

الدين وكان لؤلؤ قد هيأ لهم الإقامات والسلاح[١].

فأي رسائل لصاحب الموصل كان الوزير يخفيها عن الخليفة؟ وما مدى أهمية تلك المعلومات التي يقدّمها؟! وهل تستحق أن يأخذ بها الوزير؟!.

علماً أنّ مكاتبات لؤلؤ صاحب الموصل الى الخليفة كانت في نفس الوقت الذي طلب منه المغول التعاون معهم حيث قدّم لهم الإعانات بعد ذلك «وتأهبوا –المغول- لقصد بغداد وكاتبوا لؤلؤ صاحب الوصل في تهيئة الإقامات والسلاح, فكاتب لؤلؤ الخليفة سرّاً وحذرّه, ثم هيّأ لهم الآلات والإقامات »[٢]

ج- ابن العلقمي ينصح الخليفة

ابن العلقمي ومن خلال تجربته الإدارية والسياسية والتي تزيد على ثلاثة عقود استطاع أن يستشرف المستقبل الذي ينتظره الناس، وأشار الى التراجع الخطير الذي عليه الأمة في طيات رسائله التي كان يبثها الى ابن الصلايا. وكان الوزير يصول لوحده في تلك الحلبة التي اكتظت بمناوئيه الذين ألحقوا الخليفة بأوهامهم فأصبح لا يستطيع أن ينهض بعقله الى مستوى تفكير الوزير، وآثر أن يرد مورد الدويدار، و تحت ضغط الأكثرية.

وصدق قول الفخري بأن الخليفة على النقيض من هولاكو فكان: «كلما سمع عن السلطان من الاحتياط والاستعداد شيء ظهر من الخليفة نقيضه من

١- تاريخ الإسلام: ج ٤٨ ص ٣٥.

٢- النجوم الزاهرة: ج٧, ص٤٨.

التفريط والإهمال، ولم يكن يتصور حقيقة الحال في ذلك ولا يعرف هذه الدولة، يسّر الله إحسانها وأعلى شأنها، حقّ المعرفة. وكان وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي يعرف حقيقة الحال في ذلك ويكاتبه بالتحذير والتنبيه ويشير عليه بالتيقظ والاحتياط والاستعداد، وهو لا يزداد إلا غفولا، وكان خواصه يوهمونه أنه ليس في هذا كبير خطر ولا هناك محذور، وان الوزير انما يعظم هذا لينفق سوقه ولتبرُز إليه الأموال ليجند بها العساكر فيقتطع منها لنفسه»[١].

وكانت العداوة بادية في أفواه خصوم ابن العلقمي، فعندما أبدى نظره في قضية التعامل مع المغول اتهمه غرمائه بأنه يدبّر أمر نفسه مع أنّ المسألة هي في طور النظر في الخيارات. وكان بإمكانهم أن يبدو وجهة نظرهم من دون أن يغمزوا الوزير عند الخليفة، ويلاحظ أنّ الوزير كان كيساً لبيباً .. وذلك أنه لم يرد عليهم بالمثل, أو التعريض بالخيار الذي أبدوه؛ فعندما شاوروا الوزير فيما يجب أن يفعلوه قال: لاوجه غير إرضاء هذا الملك الجبار بإرسال الأموال الكثيرة والمجوهرات والمرصعات وبذل التحف الفاخرة وارسال الخيول والبغال والغلمان والجواري والجمال وتقديم الاعتذار له. ووافق الخليفة على رأي الوزير وبدأ بالإعداد لذلك إلا أنّ الدوات دار الصغير ومعه عدد من الأعيان قالوا إنَ الوزير إنما يدبر امر نفسه مع التتار والخليفة ركن الى رأيهم وجمعهم[٢].

١- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: ص ٣٣٥.

٢- تاريخ جهانگشاى (نسخة مرحوم نصير الدين الطوسي): ج ٣ ص ٢٨٠ـ٢٨١.

ونتسائل أفي مثل تلك الظروف والأخطار يتهم الوزير لمجرد إبداء نظره؟ وهل في هذا العرض الذي قدّمه الوزير خدمة لنفسه أم خدمة للخليفة وأركان دولته؟ والعجيب من بعض المؤرخين أن يقولوا: «ركن المستعصم الى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي، فاهلك الحرث والنسل، ولعب بالخليفة كيف أراد، وباطن التتار وناصحهم»[١].

ولا ندري عن أي ركون للمستعصم الى وزيره يتحدثون؟ ثم لماذا يقلبون الأحداث بهذه الطريقة المهلهلة حتى كأن ابن العلقمي هو الذي قاد الحملات ضد أهل السنة، ونسوا أنهم قادوا حملاتهم التي لا تفرق بشيء عن حملات المغول ضد الشيعة؟! وتغافلوا عن أنّ الخليفة ركن الى رأي الدويدار واشباهه وقدّموا الناس طعمة الى المغول ليضعوا السيف فيهم. وقد جرّبوا سفاهة الدويدار وتدبيره الذي جر الويل والخراب على بغداد.

إنّ ابن العلقمي طرح الخيار السلمي؛ لأنّ قدرة الخلافة العباسية تنعدم أمام قدرة المغول المتعاظمة، ولذا اختار ابن العلقمي مسالمة ومداراة المغول، للحيلولة دون وقوع مزيد من إراقة الدماء[٢].

وعلى هذا وانطلاقا من الانحسارية والطائفية لم يقبل أعضاء الحكومة في خلافة بني العباس رأيه ولم يكتفو بالرفض بل زادوا فاتهموه بتدبير الأمور لمصالحه الشخصية فهذه الحادثة ومثيلاتها تكشف عن وجود أزمة ثقة –

١- تاريخ الخلفاء: ص ٥٤٩.

٢- دائرة معارف بزرگ اسلامي: ج ٤ص ٣٢٧.

من طرف واحد- ضد الوزير. والطامة الكبرى تكمن في الخليفة، فهو غير مؤهل لتولي هذا المنصب الخطير، ولا نحتاج الى سوق الأدلة على ذلك لأنّ الشواهد شاخصة في كتب التاريخ.

قلنا إنّ المشكلة الأُولى تكمن في الخليفة، فكان الأولى به أن يستخدم الحزم وباعتباره الشخصية رقم واحد في عالم المسلمين فإنّ حزمه سيشق طريقه في صفوف أتباعه.

فيضع أوامره بينهم ويرفع الخلافات إلا أنّ ذلك لم يحصل. واستمر الخلاف قائماً الى اللحظات الأخيرة وذكر ابن الطقطقي تلك الخلافات وتداعياتها قائلاً:«وكان خواص الخليفة جميعهم يكرهونه ويحسدونه، وكان الخليفة يعتقد فيه ويحبه، وكثروا عليه عنده، فكفَّ يده عن أكثر الأُمور، ونسبه الناس الى أنه خامر، وليس ذلك بصحيح»[1].

ومن هنا فإن النوازع النفسية التي تتقلّب قرارات الاعيان في طبقاتها هي السبب في وجود المشكلة، والمهد الذي احتضن تلك النوازع هو الطائفية المقيتة وقد أشار حسن الامين الى ذلك بأن الأوباش والعوام هم أصل التهمة وأُسها ضد ابن العلقمي وتبنى المؤرخون موقفهم وترجموه في طيات كتبهم[2].

١- الفخري في الآداب السلطانية: ص ٣٣٨.

٢- الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي: ص ٢٧٩.

د- شبهة نقل الخلافة الى العلويين

ورد في أخبار بعض المؤرخين شبهة مفادها أنّ ابن العلقمي يريد نقل الخلافة الى العلويين فقد ذكر الدياربكري أنّ الوزير ابن العلقمي كان يقصد من مجيء هولاكو الى بغداد أن ينقل الخلافة من بني العباس الى العلويين فلم يتم له ذلك من عظم شوكة بني العباس(١).

إنّ الدياربكري يتحدث وكأنّ الجيش المغولي أداة طيعة لتحقيق أهداف ابن العلقمي، او أنه استغفل هولاكو بقصد اقامة خليفة علوي!!.

وابن تغري بردي هو الآخر يشاطر الدياربكري مقولته وزعمه(٢). كما أنّ ابن العماد الحنبلي هو الآخر ضم عبارته الى عبارة الدياربكري وبردي، فردد فكرتهم المزبورة(٣).

ولم يتحدث هؤلاء المؤرخون عن المرشح لمنصب الخلافة من العلويين أو يحددوا اسمه، وأطلقو القول جزافاً فأصبح دعوى من غير دليل ومصداق وهذه الدعوى الواهية قد فندها الدكتور حسن ابراهيم في تاريخه قائلاً: «إنّ هذه الآراء لاتتفق مع الحقيقة التاريخية وهي أنَ فتح المغول بغداد كان جزءاً من مشروع سياسي يهدف الى اتساع رقعة امبراطورية المغول بعد أن تم فتح امبراطورية الصين الشمالية وأواسط آسيا وإيران وجورجيا والقوقاز

١- تاريخ الخميس: ج ٢ ص ٣٧٧.

٢- النجوم الزاهرة: ج ٧ ص ٤٨.

٣- شذرات الذهب: ج ٥ ص ٢٧٢.

وروسيا وبولندة وغيرها»[١].

وهكذا يتضح تهافت هذا الادعاء الذي استظهره بعض المؤرخين.

هـ - شبهة ان الوزير ابن العلقمي أراد التخلص من اهل السنة

وهذه الشبهة تلحق برفيقتها السابقة، فقد ادعى نفس هؤلاء المؤرخين ان ابن العلقمي اراد ان يضع السيف في أهل السنة واخذ بعض المؤرخين يوحي بعضهم لبعض ذلك فاختمرت الشبهة، وأُخذت على محمل الجد والحقيقة.

ولو كان ابن العلقمي يريد التخلص من أهل السنة لإنبرى لذلك حينما هجم عوام أهل السنة والجند على الاحياء السكنية للشيعة، او كان قد تخلص من كل شخص ينتسب الى أهل السنة والواقع التاريخي يقول إنّ هناك عدد من أعيان الدولة من أهل السنة كانوا على ود ومحبة مع الوزير ابن العلقمي، وقد أشرنا الى ذلك سابقاً.

كما أنّ ابن العلقمي لو كان يريد أن يضع السيف في أهل السنة لكان قد خطط لذلك، وحرك الشيعة ممن وقع عليهم جرم العوام ليأخذوا بثأرهم إلا أنّ الوزير كان أكبر من هذه الظنون والأوهام، فهو لايستطيع أن يدفع عن أحد القضاء الذي جلبه جهل أعيان الدولة ليصل الى رقاب الناس، و كانت القضية أكبر من أن يردّها أحد من المسلمين فالمغول كان لديهم اندفاع

١- تاريخ الإسلام: ج ٤ ص ١٦٢.

عجيب في قتل الناس ونهب أموالهم، وليس ذلك محل للاستماع الى رأي الوزير أو غيره.

ولهذا عندما قدموا ووصلوا الى بغداد رفضو كافة الحلول والعروض السخية التي قدمها الخليفة، وأبوا على الخليفة إلا الاستسلام وأظهروا الغلظة والشدة ضد الخليفة واركان دولته، والذي أنقذ الوزير هو تشفع نصير الدين الطوسي له وإلا كان الهجوم الكاسح قد شمله مثل غيره.

وافضل دليل على بطلان الشبهة في رغبة الوزير بالتخلص من أهل السنة عن طريق المغول، هو أنّ المغول بذلوا السيف مطلقاً فشمل السنة والشيعة وأمم لايحصون[1] ونفس معنى العبارة يذكرها الغساني في أنّ التتر بذلوا السيف مطلقاً فإنه راح تحت السيف الرافضة والسنة وأُمم لا يحصون[2].

وكرر ابن بردي القول أيضاً أنّ التتار بذلوا السيف مطلقاً في أهل السنة والرافضة معاً, وراح مع الطائفتين أيضاً أُمم لا يحصون كثرة[3].

وذكر الدكتور القزاز قولاً يفند الشبهة الملصقة بابن العلقمي ورغبته في التخلص من أهل السنة وذلك بقوله: «إنّ المغول الوثنيين آنذاك لم يميزوا بين طوائف المسلمين المختلفة لينصروا طائفة على أُخرى، وكانوا يطلبون من الناس الطاعة والخضوع لهم دون اعتبار لمذهب أو دين. بل إنَ كثيرين

١- تاريخ الإسلام: شمس الدين الذهبي، ج ٤٨ ص ٣٧.

٢- العسجد المسبوك: ص٦٤١.

٣- النجوم الزاهرة: ج٧, ص ٥٠.

من الذين استسلموا لهم لم يخلصوا من بطشهم، ولما دخلوا بغداد لم يميزوا بين المسلمين في الذبح فقد كان السيف يخطف رقابهم جميعاً دون تمييز»[1] وهكذا لاتجد مثل هذه الشبهة صدى إلا عند المتعصبين.

و- قصة عجيبة: زواج في ظرف الحرب

ورد في أحداث سقوط بغداد قصص عجيبة ضد ابن العلقمي، ولعلّها وصلت لبعض المؤرخين من أُولئك الذين دفنوا أنفسهم في الحفر أو أختبأوا في الآبار، أو وصلت إليهم من أُولئك الأُمراء الذين وضعوا أيديهم في أيدي المغول لصرف الأنظار عن الجريمة التي اقترفوها أو للتمويه عليها، ومن يدري لعلّ واحداً من أُولئك الذين جرتهم دسومة حفلة زواج ابن الخليفة قد كتب ذلك للمؤرخين قبل أن يعاجله الاجل!!.

لقد قدّم لنا بعض المؤرخين قصصاً لايمكن تحققها إلا في عالم الافتراض، حيث ذكر ابن الوردي أنّ ابن العلقمي قال للمستعصم: «إنّ هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك ابي بكر وحسن له الخروج الى هولاكو فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه فأنزل في خيمة، ثم استدعى ابن العلقمي الفقهاء والأماثل، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسين ومنهم ملك الامراء ركن الدين الدويدار المستنصري أحد الشجعان وأُستاذ دار الخلافة العلامة

١- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير: ص ٣١٨.

محي الدين بن الجوزي واولاده. وكذلك صار يخرج الى التتر طائفة بعد طائفة موهماً لهم إنهم يحضرون عقد ابن الخليفة على بنت هولاكو، فلما تكاملوا قتلتهم التتر عن آخرهم»[١].

كما أنّ السيوطي كرر القصة بألفاظها كاملة غير منقوصة[٢].

وهؤلاء المؤرخون أرادوا النيل من الوزير ابن العلقمي فنالوا من أربابهم ومن أعيان الدولة عموماً، وقَبِلَ بعضهم هذه القصة تحت سطوة التعصب!! إذ كيف يعقل أنّ هولاكو يريد تزويج ابنته مع ابن الخليفة وهو على أبواب بغداد، وقد أحكم طوقه عليها وهي في قبضته!! أم كيف يستسيغ الخليفة والأماثل الذين معه أنّ هولاكو الذي أخذ يرعد ويتوعد وهو في همدان، وقطع طريقاً طويلاً مع جيشه يقنع بهذا الزواج أنها طريفة ندر أن يتثائب الدهر عن مثلها إلا مع وجود ابن العلقمي الذي طفق يزف لهم البشرى بزواج الضعيف المنكسر من ابنة القوي المنتصر!! إنّ هؤلاء مضافاً الى أنهم استخفوا بعقول العلماء والأماثل عندما قنعوا بهذه القصة! أنهم عرضوا صورة عن الخليفة وأركان الدولة في أنهم أعطوا أنفسهم إعطاء الذليل، وأقروا لهم إقرار العبيد فتقدموا للموت بأرجلهم.

نعتقد أنّ هذه القصة مختلقة وكررها بعض المؤرخين بدوافع طائفية.

إنّ طبيعة الصراعات المذهبية التي كانت قائمة آنذاك تشجع على تبادل

١- تاريخ ابن الوردي: ج ٢ ص ٢٨١.

٢- تاريخ الخلفاء: ص ٥٥٥ـ٥٥٦.

التهم فيما بين الأطراف محل النزاع؛ بل إنّ هناك مجموعة من أتباع الدويدار كانوا يذيعون بين الناس شائعات ضد الوزير غير مكترثين بتداعيات تلك الشائعات الخطيرة على نفوس الناس فقد ذكر رشيد الدين ذلك قائلاً: لما كان الدويدار في تلك الفترة خصما للوزير، فان أتباعه من أوغاد المدينة وطغامها كانوا يذيعون بين الناس أنّ الوزيرمتفق مع هولاكوخان، و أنّه يريد نصرته وخذلان الخليفة، فقوي هذا الظن[١].

وعلى أيّة حال فقد عبّر أكثر المؤرخين عن آرائهم في دور ابن العلقمي، وذكروا معلومات مماثلة عن هذه الشخصية بسبب تقليد بعضهم بعضاً، مع أنّ قسماً منهم قد أوغل في كذبه وطفق يسرد القصص والحكايات لتضخيم دور الوزير[٢].

خلاصة أقوال المؤرخين القدماء في ابن العلقمي

تضاربت الأقوال في ابن العلقمي، ووردت اخبار كثيرة حول الأحداث التي عاصرها. ففي الوقت الذي يؤكد بعض المؤرخين بنزاهة ابن العلقمي، وإخلاصه ونصحه، ينبري آخرون لابراز مساوئ ابن العلقمي وزجه داخل أحداث متعددة.

١- جامع التواريخ: ج ٢ ص ٧٠٤.

٢- الشيعة في إيران: رسول جعفريان، ص ٣٩٥.

وفيما يلي نأتي لذكر مواقف المؤرخين حول الوزير ابن العلقمي وهي على قسمين:

القسم الأوّل: الرعيل المعارض لتهمة خيانة ابن العلقمي وهم:

١ـ علاء الدين الجويني ت ٦٥٨هـ: في كتابه تاريخ جهانگشای لم يورد أي تآمر من قبل الوزير ابن العلقمي كما أورد في ذيل كتابه المذكور نسخة الخواجه نصير الدين الطوسي حول حادثة سقوط بغداد و كيف أبدى الوزير ابن العلقمي نصحه بعد طلب المشورة منه، وقبل الخليفة رأيه إلا أنّ الدويدار وبعض الأعيان في الدولة اتهموا الوزير بتدبير أمر نفسه، ولا يوجد في هذه الحادثة أياً من التهم التي أثارها بعض المؤرخين[١].

٢ـ غريغوريوس الملطيّ المعروف بابن العبري ت ٦٨٥: يورد حادثة سقوط بغداد بتفاصيلها ويذكر خروج الوزير الى هولاكو باذن الخليفة فيقول: «فسيّر الخليفة الوزير ابن العلقمي»[٢] كما أنه يتابع سير المغول وتحركهم من همدان باتجاه العراق، ولم يورد أي إتصال، أو تحالف بين المغول وبين الوزير ابن العلقمي[٣].

٣- رشيد الدين فضّل الله الهمداني (ت ٧١٨ هـ): ذكر سقوط بغداد على يد هولاكو بجزيئات كثيرة ونزّه ابن العلقمي من تهمة الخيانة ويقترب من

١- تاريخ جهانگشای: ج ٣ ص ٢٧٨ـ٢٨٥.

٢- تاريخ مختصر الدول. ص ٢٧١.

٣- المصدر السابق، ص ٢٦٩ـ٢٧٢.

الطقطقي في وصف ابن العلقمي بأنه رجل يقدّم النصح والطاعة للخليفة ويرى الدواتدار هو الذي أذاع تهمة الخيانة بسبب العداء الذي يكنّه ضد الوزير[١].

٤ـ عبد الرزاق بن الفوطي ت ٧٢٣ : أتى على ذكر الأحداث التي سبقت سقوط بغداد وقد ذكر مشورة الوزير للخليفة ونصحه له إلا أنّ الدويدار ومن شاكله «قالوا: إنّ غرض الوزير تدبير حاله»[٢]. والقى باللوم على الخليفة في التقليل من الجند وإهمالهم فقال: «وكان الخليفة قد أهمل حال الجند ومنعهم أرزاقهم وأسقط أكثرهم من دساتير ديوان العرض، فآلت أحوالهم الى سؤال الناس وبذل وجوههم في الطلب في الأسواق والجوامع»[٣] وذكر خروج الوزير الى هولاكو ولم يذكر قصة الزواج التي أوردها بعض المؤرخين وادعوا فيها: إنّ الوزير دبّر خديعة مع هولاكو وهي أن يزوج ابن الخليفة من ابنة هولاكو فخرج الخليفة وأركان دولته طبقاً لهذه الخدعة. إنّ شيئاً من هذه القصة لم يذكرها لكنه ذكر محاسن ابن العلقمي حين وفاته فقال: «كان عالماً فاضلاً أديباً يحب العلماء ويسدي إليهم المعروف»[٤].

١- أنظر جامع التواريخ: ج٢, ص٧٠٤-٧٠٧.

٢- الجوادث الجامعة: ص ١٥٤.

٣- المصدر نفسه: ص ١٥٥.

٤- المصدر نفسه: ص ١٦٢.

٥ـ ابن طباطبا المعروف بان الطقطقي (ت ٧٠٩): ذكر حادثة بغداد بتفاصيلها، وقد ذكر ابن الطقطقي حقائق تخالف ما اشتهر عند بعض المؤرخين، فقد ذكر أنّ الوزير ابن العلقمي كان يشرح للخليفة طبيعة الظروف، وحقيقة الحال، ويشير عليه باتخاذ تدابير الحيطة و الحذر في حين هناك بطانة و حاشية داخل أروقة الخلافة يوهمونه على خلاف ذلك فقال: «و كان وزيره مؤيد الدين بن العلقمي يعرف حقيقة الحال في ذلك، ويكاتبه بالتحذير والتنبيه ويشير عليه بالتيقظ والاحتياط والاستعداد وهو لا يزداد الا غفولاً وكان خواصه يوهمونه أنه ليس في هذا كبير خطر و لا هناك محذور، وأن الوزير إنّما يعظم هذا لينفق سوقه و لتبرز إليه الأموال ليجند بها العساكر فيقتطع منها لنفسه»[1].

كما أنه ذكر أنّ الخليفة طلب من الوزير أن يخرج إليهم بعد أن طلب هولاكو أشخاص حددهم، وقد أشرنا الى ذلك سابقاً، ولا يوجد في الأحداث التي أوردها شيء مما قيل من بعض المؤرخين.

القسم الثاني: الرعيل المؤيد لتهمة خيانة ابن العلقمي وهم:

١ـ قطب الدين اليونيني (ت ٧٢٦ هـ): اتهم ابن العلقمي بشتى التهم، وأنه كان على توافق مع المغول في غزو بغداد فيقول: وكان الوزير ابن العلقمي قد أطمعته نفسه بأن الأمور تكون مفوضة إليه، وكان قد عزم على

١- الفخري في الاداب السلطانية و الدول الإسلامية: ص ٣٣٥.

أن يحسن لهولاكو أن يقيم ببغداد خليفة فاطمياً فلم يتم له ذلك، وأطرحه التتر و بقي معهم على صورة الغلمان فمات بعد قرب كمداً و ندم حيث لا ينفعه الندم، ولقاه الله فعله[١].

٢ـ محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ): يلقي تبعة إهمال حال الجند ومنعهم أرزاقهم في عهدة الخليفة، وحصل ذلك أن أُشير على الخليفة في قطع أرزاقهم وأن يصانع التتر و يحمل المال إليهم[٢]. وفي هذا إشارة واضحة الى الوزير ابن العلقمي، كما أن الكتبي يتهم الوزير بالتعاون مع المغول، وكان يراسلهم و قد حلق رأس أحدهم وكتب عليه ما كان يريد إبلاغه لهم[٣].

٣ـ زين الدين عمر الشهير بابن الوردي ت ٧٤٩ هـ: وجّه نباله في جميع الاتجاهات للانتقاص من ابن العلقمي فيقول: و كاتب التتر و أطمعهم في بغداد و طمع الخبيث الغوي في إقامة خليفة علوي[٤]. وأيضاً يرى ابن الوردي أن ابن العلقمي حسّن للخليفة تقليص عدد العسكر فصار دون عشرين ألفاً بعد أن كان مائة ألف في زمن المستنصر العباسي. ويرى أنّ ابن العلقمي نفذ خدعة لاخراج الخليفة والأمراء و الفقهاء من بغداد، وتم القضاء

١- ذيل مرآة الزمان: ج ١ ص ٩٠ ـ ٩١.

٢- عيون التواريخ: ج ٢٠، ص ١٣٢ ـ ١٣٤.

٣- انظر المصدر نفسه: ج ٢٠، ص ١٣٢ ـ ١٣٤.

٤- تاريخ ابن الوردي: ج ٢، ص ٢٧٩.

عليهم من قبل هولاكو [١].

٤ــ الملك الأشرف الغساني (ت ٧٦١ هــ): عند ما يأتي الى ذكر ابن العلقمي ينفعل و يسيىء إليه في تعريفه فيقول: و كان وزير الدولة يومئذ مؤيد الدين بن العلقمي رافضياً جلداً خبيثاً ذا هيبة[٢]. كما يرى أنّ المغول قدموا العراق بسبب رسائل الوزير ابن العلقمي الى هولاكو. وكتب إليه الوزير مؤيد الدين يطمعه في البلاد و يسهل عليه فتح العراق و طلب أن يكون نائبه فيها فوعده بذلك[٣]. وأورد قصة الزواج من ابنة هولاكو التي خدع الوزير بهما رفاقه في دوائر الدولة فكان التدبير و التنفيذ بين الوزير و هولاكو[٤] . وسقطت بغداد بعد ذلك.

٥. صلاح الدين الصفدي (ت ٧٩٧ هـ): أعاد نفس الأقوال التي كتبها المؤرخون السابقون فوجه أصبع الاتهام الى الوزير ابن العلقمي فيقول: و أخذ يكاتب التتار الى أن جرّ هولاكو و جرّأه على أخذ بغداد و قرر مع هولاكو أُموراً انعكست عليه و ندم حيث لا ينفعه الندم وكان كثيراً ما يقول عند ذلك: وجرى القضاء بعكس ما أمّلته[٥].

١- تاريخ ابن الوردي: ج ٢، ص ٢٧٩.

٢- العسجد المسبوك: ص ٦٢٥.

٣- المصدر نفسه: ص ٦٢٦.

٤- المصدر نفسه: ص ٦٣٠ ـ ٦٣١.

٥- الوافي بالوفيات: ج ١، ص ١٨٤.

وردد القصة التي أوردها الكتبي ـ بحلق رأس أحدهم وكتب عليه للتتر ما أراد ـ بشيء من التضعيف عند ما يقول: وحكي ... والله أعلم[١].

٦. ابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ): كرر نفس أخبار السابقين و تشابهت تراكيب ألفاظه بعبارات مَن سبقه فيصب جام غضبه على الوزير ابن العلقمي فيقول: «كان حريصاً على زوال دولة بني العباس ونقلها الى العلويين وكان يرسل الى التتار في السر والخليفة المستعصم لا يطلع على باطن الأمور»[٢] كما انه يرى أنّ ابن العلقمي كان قد تآمر مع هولاكو ضد الخلافة العباسية[٣].

٧. أحمد بن يوسف القرماني (ت ١٠١٩هـ): اتخذ موقفاً مناهضاً للوزير ابن العلقمي وقد لخصه بقوله: و لعب الوزير بالخليفة كيفما أراد، وباطن التتار وناصحهم وأطمعهم في المجيء الى العراق و أخذ بغداد وقطع الدولة العباسية ليقيم خليفة من آل عليّ. وصار إذا جاءه خبر من التتار كتمه عن الخليفة وطالع التتار بأخبار الخليفة[٤].

٨- عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامه (ت ٦٦٥ هـ), عندما يأتي على حادثة بغداد يقول استولى التتار على بغداد بمكيدة دبرت مع

١- الوافي بالوفيات: ج ١، ص ١٨٦.

٢- النجوم الزاهرة: ج ٧، ص ٢٠.

٣- انظر: المصدر نفسه: ج ٧، ص ٤٩ ـ ٥٠.

٤- أخبار الدول: أحمد بن يوسف القرماني، ج٢, ص ١٩٥، عالم الكتب.

وزير بغداد, ويتمثل ببيت لابن التعاويذي:

بـــادت وأهلوها معاً فبيوتهم ببقاء مولانا الوزير خراب[١]

وهناك مواقف أُخرى لعدد آخر من المؤرخين من أمثال ابن خلدون والذهبي وابن كثير والسيوطي والدياربكري وآخرون غيرهم ممن كان بعضهم لبعض ظهيراً في تهشيم ابن العلقمي.

لكننا نسأل ماذا لو كان مذهب ابن العلقمي هو مذهب أُولئك الذين سلقوه بألسنة حداد أكان ممكناً أن تقع عليه كل هذه التهم؟! لقد أخذ بعضهم يتميز من الغيظ، و يذكر ابن العلقمي بعبارات مثل رافضياً خبيثاً أو «فخرج الكلب وتوثق لنفسه», جلداً فضاً غليظاً الى غير ذلك من العبارات التي تتخطى حدود عرض الحدث التاريخي الى شحذ التأريخ، وجعله طائفياً.

١- ذيل الروضتين, أبي شامه ج٥, ص٣٠٤.

ابن العلقمي عند المؤرخين المعاصرين

أدلى المؤرخون المعاصرون بوجهات نظرهم في التهمة المنسوبة الى ابن العلقمي في أنه تعاون مع المغول وينقسم المؤخون الى قسمين:

القسم الأوّل: المؤرخون المعارضين لتهمة خيانة الوزير ابن العلقمي:

١ـ الدكتور حسن إبراهيم حسن: استعرض الأقوال المتضاربة والسجال الدائر حول ابن العلقمي، وكان يتحفظ في إبداء وجهة نظره في ذلك، وقد انتقد الآراء المتطرفة في ابن العلقمي كما هو بالنسبة للجوزجاني المتسنن وابن طباطبا في تشيعه. كما أنه أورد الأقوال التي تمدح ابن العلقمي وقد أظهر ميلاً إليها في إيرادها و قال أنّ المسألة تتعدى الأُطر المذهبية الى المشروع المغولي الذي يطمح الى السيطرة على الأراضي الإسلامية[١].

٢ـ حسن الأمين: فند الزعم القائل إنّ ابن العلقمي هو الذي فرّق جيش الخلافة في أطراف البلاد[٢]. كما أنه أتى على التقوّلات ضد الوزير الأسدي فنسفها بعد مناقشتها واحدة إثر أُخرى ابتداءً من تهمة التعصب التي ألبسوها زوراً, و مروراً بالمراسلات الوهمية بينه و بين التتار الى قصة الدور

١- انظر تاريخ الإسلام: ج ٤، ص ١٥٤ ـ ١٦٢.

٢- انظر الاسماعيليون و المغول و نصير الدين الطوسي: ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧.

المحوري له في سقوط بغداد[1].

٣ـ الدكتور محمد صالح داود القزاز: أجرى الدكتور القزاز تقييماً لمجمل الأوضاع في العصر العباسي الأخير ثم لوى عنان الحديث صوب ابن العلقمي وبعد ذلك نفذ الى طبيعة المشاكل القائمة السياسية منها والاجتماعية، وأتى الى السجل التاريخي ليقاضي الأقوال في ابن العلقمي و يتبلور عنده رأي قال فيه: اعتقد أن تحقيق هذا الاتهام أو نفيه لا يرتبط بعدد المؤيدين له أو المعارضين انما يتم بدراسة طبيعة الأوضاع السياسية التي كانت سائدة أنذاك، ودور الانقسامات المذهبية، والخصومات الشخصية التي كانت تؤثر كثيراً في صنع الحقائق أو الأكاذيب كما لا يجب أن نغفل أنّ شدة النكبة التي مني بها المسلمون بسقوط الخلافة، وما رافقها من مذابح وفضائع جعلت الناس يصبون لعنتهم على المغول، ومن كان يتعاون معهم من المسلمين الذين بقوا على قيد الحياة بعد مجزرة بغداد.

و من هؤلاء ابن العلقمي مؤيد الدين نفسه الذي استخدمه المغول في نفس منصبه للاستفادة منه في إدارة البلاد لذلك تركزت هذه التهم في عنقه حتى أصبحت كأنها حقائق ينقلها مؤرخ عن آخر على أنني لا أبريء العلقمي من تهمة التقصير والإهمال واعتقد أن المغول لم يكونوا بحاجة الى أن يستدعيهم العلقمي إذا علمنا أنهم كانوا في زحف عام وفق خطة موضوعة للسيطرة على العالم وكانوا في هذا الزحف ينفذون الشطر الثاني

١- المصدر السابق: ص ٢٧٧ ـ ٢٨١، و انظر: الغزو المغولي: ص ٨٩ ـ ١٠٦.

منها[١].

٤ـ رسول جعفريان: يبريء ساحة ابن العلقمي مما سطّره بعض المؤرخين ضده فيقول: الحقّ أننا ينبغي أن لا نتهم الوزير بالتواطؤ مع هولاكو في ضوء الافتراض القائل بوجود الاقتراح الّذي قدّمه في إقرار الصلح والذي كان بإمكانه أن ينقذ الحاكم العباسي ودولته على نحو الاحتمال. و كانت نبوءة الوزير النابه صائبة تماماً. و جر الحاكم نفسه وحكومته الى الهلاك إذ منعوه من العمل بنصيحة الوزير[٢].

٥- الدكتورة شيرين بياني: ترى أنّ المغول أثناء تقدمهم باتجاه بغداد، وما يجاورها وقعت اختلافات عميقة بين أركان الحكومة العباسية وانقسموا الى فريقين في مواجهة الزحف المغولي. فريق يرى مصالحة ومداراة المغول عن طريق إرسال الهدايا والتحف الثمينة وإعلان المماشاة الشكلية وهذا الفريق يمثله ابن العلقمي وأصحابه بالاضافة الى الخليفة في بادئ الأمر.

أما الفريق الآخر فيمثله الدواتدار وأمراء العسكر حيث يرى هذا الفريق المواجهة العسكرية هي السبيل الافضل, وقد خضع الخليفة لرأي الدواتدار رغم رغبته برأي الوزير. كما أن الطرف الذي اختار مواجهة المغول أخذ على عاتقه مهاجمة المخالفين له واتهامهم بالتآمر مع المغول وكان الخليفة في تلك المرحلة رجل عديم الهمة والعزم[٣].

١- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير: ص ٣١٧.

٢- الشيعة في إيران: ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

٣- انظر: مغولان وحكومت ايلخانى در إيران: ص١٥٣-١٥٤.

القسم الثاني: المؤرخون المؤيدون لتهمة خيانة الوزير ابن العلقمي

١ـ الشيخ محمد الخضري بك: يورد الأقوال المختلفة إلا أنه يركز على الأقوال التي تتهم ابن العلقمي في مخامرته للمغول. ويورد ما يقوله ابن الوردي، ويورد ما يقوله ابن طباطبا في سلامة موقف الوزير ابن العلقمي إلا أنه يعقب عليه و يقول: و الله أعلم بمقدار هذا البرهان في الإنتاج[١], وهذا يظهر أنه يميل الى الرأي الذي يتهم ابن العلقمي.

٢ـ الدكتورة فتحية النبراوي: تحمّل ابن العلقمي الفوضى التي عاشتها بغداد قبيل الغزو المغولي. كما أنها تستظهر مظاهرة ابن العلقمي للمغول وفقاً لما طالعته من المصادر التأريخية على أنّ موقف الدكتورة النبراوي يكتنفه الخجل إذ يلوذ بالمصادر التأريخية لا الى دليل في إبرازه فتقول: و يبدو أنّ الوزير ابن العلقمي و كان من كبار رؤس الشيعة قام بدور خطير في تسهيل عملية دخول الجيوش المغولية الى بغداد وتذكر المصادر أنه كاتب التتر و أطمعهم في دخول العاصمة العباسية[٢].

٣ـ أنور الجندي: يعلن بصوت عال، وبجرأة وإرتجال, و يتخطى حتى على المؤرخين الأوائل أنفسهم ويقول: تعاون الوزير العلقمي مع القوى الصليبية واليهودية على الخلافة التي كانت وصلت الى مرحلة من

١- الدولة العباسية: الشيخ محمد الخضري بك. ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠، دارالقلم.

٢- العلاقات السياسية الإسلامية و صراع القوى الدولية في العصور الوسطى: ص ٢٧٥.

الضعف[١].

٤ـ حتى غير المتخصصين في المجال التاريخي لم تفوتهم فرصة النيل من الشيعة وابن العلقمي و نذكر على سبيل المثال لا الحصر.

أـ الدكتور ناصر بن عبدالله القفاري: اتهم الوزير بالمؤامرة فقال: فكان هذا الوزير الرافضي يخطط للقضاء على دولة الخلافة وإبادة أهل السنة، وإقامة دولة على مذهب الرافضة فاستغل منصبه و غفلة الخليفة لتنفيذ مؤامرته ضد دولة الخلافة وكانت خيوط مؤامرته تتمثل في ثلاث مراحل:

المرحلة الأُولى: اضعاف الجيش و مضايقة الناس...

المرحلة الثانية: مكاتبة التتار:

يقول ابن كثير: ثم كاتب المغول وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك وحكى لهم حقيقة الحال وكشف لهم ضعف الرجال.

المرحلة الثالثة: النهي عن قتال التتار و تثبيط الخليفة و الناس[٢].

ب- الشاعر الرصافي هو الآخر أخذ يتحدث عن التأريخ و يقرر ما شاء تصويره أن يقتنصه لينشده بشعره:

١- الضربات التي وجهت للانقضاض على الامة الإسلامية: ص ٨٥

٢- أصول مذهب الشيعة: الدكتور ناصر بن عبدالله بن علي القفاري، ج ٣، ص ١٤٦٩ ـ ١٤٧٠.

جرت فتنة من شيعة الكرخ جلحت ... على شيعة في الكرخ بالقتل و النهب
فقامت لدى ابن العلقمـــي ضغائن ... تحجرن من تحت النياط على القلــب
فأضمر للمستعصم الغدر و انطوى ... على الحقد مدفوعاً الى الغش والكذب
وخادعه في الأمــــر و هو وزيره ... واربـــه اذ كان مستضعــف الأرب
فأبعد عنــه فـــي البلاد جنــوده ... وشتتهـــم مـــن أوب أرض الى أوب
ودس إلى الطاغي هلاكو رســالةً ... مغلغلـــة يدعـــوه فيهـــا الى الحرب
وقال لـــه إن جئت بغداد غازياً ... تملكتها من غير طعن و لا ضـــرب[١]

وهناك فريق متحفظ حول قضية ابن العلقمي واتّهامه ونذكر على سبيل المثال لا الحصر:

الدكتور فاروق عمر فوزي: استعرض أقوال المؤرخين المتقاطعة في ابن العلقمي والتي نثرت و بعثرت الحقيقة التاريخية فيقول في ذلك: إنّ اتصال ابن العلقمي بالمغول قبل دخولهم بغداد ظاهرة اختلطت فيها الروايات الموضوعة بالروايات الثابتة ولعبت الانقسامات السياسية في البلاط العباسي والخصومات الشخصية والنزاعات المذهبية دوراً واضحاً في طمس الحقيقة التأريخية[٢].

وهناك أقوال أُخرى عزفنا عن إيرادها واكتفينا بهذه المواقف في قضية الوزير ابن العلقمي.

١- تاريخ العراق بين احتلالين: ج ١، ص ٢٢٤.

٢- تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية: ص ٣٦٧.

الخاتمة

عاش ابن العلقمي أكثر حياته في بغداد، وخبر أوضاعها، واشترك في قضاياها، وقد اصطلحت اسباب عديدة في صياغة بعض الأحداث ومنها زوال الخلافة العباسية التي ما برح ابن العلقمي يعاصر تفصيلاتها أوّلاً بأوّل، وفيما يلي نستعرض خلاصة النتائج التي وردت في طيات الموضوع وهي:

١. من خلال دراستنا للجغرافية التي عاش فيها ابن العلقمي حياته الاجتماعية، عرفنا المجتمع بكثافته السكانية والتركيبة القومية والدينية فيها والعلاقات القائمة بينهم وأحاطنا بعادات وتقاليد ذلك المجتمع حيث وجدنا هناك أعراف اجتماعية متنوعة بحسب الطبقات الاجتماعية، كما أنّ المجتمع كان يسوده التوتر بين طوائفه الدينية، فقد كان فيما بين المذاهب الإسلامية حساسية مفرطة ناتجة من بعض العوامل كطبيعة التعليم والتربية الدينية، والظروف الاقتصادية السيئة، كما كان للسياسة دور في تركيز الانحسار الديني.

٢. انفلات الأوضاع كان من الظواهر البارزة في بغداد حتى كانت هناك مجاميع أخذت تمارس عمليات السرقة في وضح النهار، ولعلّ الدافع من وراء هذه الجرائم هو تردي الأوضاع المعاشية للناس فلجأ رهط منهم الى عمليات السطو، ونحدس بأن الذين كانوا يقومون بعمليات السرقة هم الجند الذين تم تسريحهم، وساءت أحوالهم، فاخذوا يقومون بتلك الأعمال.

٣. لعبت العوامل المناخية والطبيعية دوراً بارزاً في تأزيم الأوضاع

الاقتصادية المتدهورة اساساً. ووقفت الخلافة وأركانها عاجزة أمام ما يحدث من كوارث طبيعية وكانت هناك محاولات للتغلب على الحوادث غير المترقبة قام بها الوزير بن العلقمي وتبعه الناس في ذلك، فرصد الديوان التابع - إدارياً الى نفوذ الوزير- مبلغاً مالياً للناس من أجل السيطرة على اندفاع الماء المنهمر والإبقاء على عدد من الناس هناك ليلاً ونهاراً من أجل مراقبة فتحة القورج الواقعة أعلى بغداد كي لا يتدفق الماء منها.

٤. الإدارة الاقتصادية كانت تفتقر الى التخطيط والإصلاح فمثلاً كانت تُجبى الضرائب من المزارعين دون تشجيعهم على العمل الزراعي، ودون تقديم خدمات تذكر. ثم إنّ المزارعين كانوا يمتنعون عن دفع الضرائب لسوء ظنهم بالوزير ابن العلقمي، وغيره من أعوان الدولة.

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أنّ السلطة الحاكمة كانت تحتكر الأموال لطبقتها السياسية دون الناس حيث إنّ التوزيع غير العادل للثروة من صفات تلك الطبقة السياسية، وكان في بغداد مهن صناعية متعددة، وتبادل تجاري محدود مع اوربا وبلاد الهند إلا أنّ ذلك لم يكن ليخفف عن كاهل الأعباء الاقتصادية المتراكمة.

٥. كان الجو السياسي فيما بين أركان الخلافة - بداية خلافة المستعصم- سليماً من الحزازات والوشايات؛ إلا أنّه وفي بداية الخمسينيات من القرن السابع الهجري بدأ التوتر يتصاعد بين الدويدار وابن الخليفة من جهة، وبين الوزير من جهة أُخرى وأدى هذا الخلاف الى توجيه تهم عديدة الى ابن

العلقمي كاتهامه بالتعصب لصالح الشيعة، ومخامرته المغول وغير ذلك. وكان الوزير يعرف خطورة الأوضاع، فلم يدخل في مواجهة دعائية ضد أعدائه الذين كانوا يذيعون الشائعات في تلك الظروف.

اما العلاقات بين أُمراء الأمصار فكانت تتسم بالتنافس على السلطة، وكان الوزير قد دفع الخليفة لإرسال بعض الأشخاص من أجل إيقاع الصلح بين الأطراف المتنازعة وتمتين الوحدة في مقابل الاعداء؛ الا أنّ الصلح قد فقد الارضية الصلبة التي يقف عليها؛ فعادوا لما نهوا عنه من التنازع مما جعلهم لقمة سهلة أمام المغول بالاستفراد بهم واحداً تلو الاخر، وانتهوا الى الهلاك.

٦. إنّ التحركات العسكرية ناشئة من رغبة زعماء المغول في توسيع امبراطوريتهم على حساب البلدان المجاورة بعد نهب ثرواتها وقتل أبنائها، ولم تكن رغبه المغول ناشئة من دعوة أحد المسلمين لهم، إلا أنّه يمكن ان يكون لتقصير الخليفة والأُمراء والملوك دور في تشجيع المغول على التقدّم نحو البلاد الإسلامية.

٧. قبل تقدم هولاكو الى بغداد تبادل كل من الخليفة وهولاكو الرسائل المتعددة، غير أنّ رسائل هولاكو اتسمت بالاستعلاء والإملاء على الخليفة في إرسال قوات لمساعدته تارة، أو تعيين الرسل والممثلين الذين يأتون إليه نيابة عن الخليفة تارة أخرى+.

وقام بعض المؤرخين بتفسير الرسل الذين يأتون حسب العرف السائد

آنذاك الى الوزير، ومن ثم للخليفة في أنهم يتآمرون على الخليفة!!.

٨. قبل تقدم المغول الى بغداد تعرّض الشيعة الى مصادرة حقوقهم من قبل قائد الجند الدويدار وابن الخليفة الأكبر، وقد قاموا بتحريك العوام والجند، فبرز القتل إلى الشيعة وهم في مضاجعهم، وسبوا نساءهم واستبيحت أعراضهم، وبيعوا في أسواق الرقيق بثمن بخس، وقد اكتفى المؤرخون بالإشارة الى ذلك.

وفوق ما وقع على الشيعة جاءت النوبة ليتهموا الوزير ابن العلقمي بكونه متعصباً، وأنه ذهب الى الشيعة وهدّأهم وصبرّهم، وللاستمرار في تعصباتهم المذهبية قاموا بتأويل ذهاب ابن العلقمي إليهم بأنه وعدهم أخذ الثأر بمساعدة المغول!! وهل لعاقل ان يتحدث في محفل عام عن نية سيئة طويت بين جوانحه، وأعدائه من حوله يتربصون به الدوائر؟!

إنّ مسؤولية الوزير ابن العلقمي كرجل دولة جعلته يذهب لتهدأة خواطر الفئة المغضوب عليها والتي تستجيب دون غيرها، أما الدويدار وأصحابه فلا يمكن ان يستمعوا له.

٩. بعد التهديدات المتكررة من هولاكو، طلب الخليفة من الوزير إبداء رأيه في التحديات الخطيرة التي تتعرض لها بلدان الخلافة ومن ضمنها بغداد، فأشار الوزير ناصحاً معلناً أن تبذل له الأموال والهدايا لينصرف راجعاً بتلك الهدايا ويقنع كما قنع بما بُذل له من قِبَل بعض الملوك، وكانت هذه المشورة قبل أن يقصد هولاكو بغداد إلا أنَ بعض المؤرخين نقلوا هذه

المشورة موهمين القارئ بأنها بعد وصول هولاكو الى بغداد في محاولة للحط من شأن الوزير.

١٠. كان الوزير ابن العلقمي ينظر الى هولاكو بأنه رجل جبار وطامع في خيرات بلاد المسلمين، وعلى هذا أشار الوزير ببذل الأموال له كما أنّ نصح الوزير فيه اشارة ضمنية على ولائه للخليفة وإلا لما أبدى له خياره المرحلي، وهو اللجوء الى المناورة السياسية ببذل الأموال.

ولو كان الوزير ابن العلقمي يريد التخلص من الخليفة لاختار رأي الدويدار في محاولة منه لمسايرة الدويدار وللتغطية على ما يضمره للخليفة. لاسيما وأن رأي الدويدار يهيئ الأرضية الخصبة لمجيء المغول.

١١. الوزير ابن العلقمي لم يخرج الى هولاكو وكان قد رفض الخروج إليه إلاّ أنّ الخليفة طلب من الوزير وبإصرار بالخروج إلى هولاكو من أجل إيجاد مخرج للأزمة الشديدة التي وقع الخليفة بها، أو للتخفيف من غلواء غضب هولاكو بعد أن تباطأ الخليفة في إرسال الأشخاص الذين أراد هولاكو مجيئهم اليه. وقد فسر بعض المؤرخين ذلك بأن الوزير ابن العلقمي خرج إليهم من تلقاء نفسه، وذلك يقلب الأحداث التأريخية من الأساس.

١٢. كانت التهمة التي وجهت الى الوزير ابن العلقمي بأنه كاتب التتر تهمة باطلة وذلك أنهم استدلو بقصة عجيبة وهي حلق رأس أحدهم وكتابة رسالة سرية للمغول! وقد ابطلنا هذا الزعم حيث إنّهم من جانب يقولون إنّ

رسل المغول كانت تتردد على الوزير، وإذا كانت كذلك فما ضرورة أن يقوم بهذا العمل العجيب؟! ومَن الذي أنبأهم بذلك هل المغول؟! ام الشخص الذي قتل؟!.

١٣. واتهموا ابن العلقمي بأنه كان يكتم الأخبار عن الخليفة وكان لايطلع الخليفة على ما فيها من تحذيرات!! وكأن المغول جاؤوا خلسة وتحت ستار الليل والأمراء يبعثون برسلهم ورسائلهم الى الخليفة!!.

لقد جاء المغول في وضح النهار، ويعلم الخليفة ماذا يريدون ثم لو كان الوزير يكتم الأمر أما كان حرياً بهم أن يرسلوا رسلهم الى الخليفة بصورة مباشرة؟! وعجيب كيف علم الناس أنه لا يوصل الرسائل والخليفة لايعلم؟ ثم كيف علم عوام الناس، والخليفة لا يعلم بما يضمره الوزير له!!

كما أنّ المؤرخين يقولون إنّ صاحب الموصل كان يحذّر الخليفة من المغول ووقف الوزير كالجدار بوجه تلك التحذيرات. في حين ينقل المؤرخون أنّ صاحب الموصل تعاون مع المغول وقدّم لهم السلاح والمدد!!.

١٤. الشائعة التي أُثيرت ضد ابن العلقمي في أنه قام بتسريح الجند هي تهمة إرتجالية وغير صحيحة، حيث إنّ كثيراً من المؤرخين أعلنوا أنّ الخليفة كان قد سرّح الجند وقطع أرزاقهم لبخله، ونصح بعض الأُمراء له بعدم ضرورة وجود عدد كبير من الجند.

إنّ مشكلة قطع أرزاق الجند هي مشكلة قائمة قبل أن يأتي الوزير ابن العلقمي لتسلّم منصب الوزارة ولم يكن للوزير سلطان على الجند بل إنّ أمرهم كان بيد قائد الجند وهو الدويدار الصغير.

أما العدد الكبير للجند الذي يتبجح به المؤرخون والذي كان في عهد المستنصر، حيث يقول المؤرخون بلغ تعداده مائة ألف مقاتل فأعتقد أن المؤرخين لو لم يذكروا ذلك كان أفضل لهم فهم يريدون تلبيس التهمة ووضعها في رأس ابن العلقمي لكنهم نزعوا جلباب الحياء إذ أن هذا الكم الكبير قد قبع في بغداد ولم يبعث به المستنصر للدفاع عن المسلمين في الوقت الذي كانت حملات المغول البربرية تخوض في بلاد المسلمين! ولا ندري ماهي فائدة هذا الزبد الجفاء حتى يأتي على ذكره المؤرخون!!

١٥. أمّا الإدعاء التاريخي الذي يقول بأن ابن العلقمي كان يريد أن يقيم خليفة علوياً فذلك ما تفنده الحقائق حيث إنّ الشيعة والسنة وقعوا ضحية للمغول!! ولم يذكر أصحاب هذا الإدعاء مَن هو الشخص المرشح لهذا المنصب!!.

١٦. توزّعت أقوال المؤرخين بين (الانصاف والاجحاف والتحفظ) في البت في هذه القضية وملابساتها وقد تعدّى المؤرخون ـ الذين يتهمون ابن العلقمي بالتآمر ـ النقل التأريخي الى الشحذ التأريخي عبر إطلاق الكلمات البذيئة من قبيل كلمة (الخبيث ـ الكلب رافضياً غالياً – فضاً جلداً ... ألخ) بل إنّ بعض المؤرخين يقول : إنّه كان فاضلاً وبعد ذلك وفي الصفحة نفسها

يقول عنه (كان غالياً) فكيف يصح ذلك؟!

و يمكن الإشارة الى أنّ أكثر المؤرخين القدماء كانوا قد اتهموا ابن العلقمي بارتباطه بالمغول. وخالفهم في نزاهة ابن العلقمي عدد قليل منهم. وعلى عكس ذلك فإن كبار المؤرخين المعاصرين و المتخصصين قد برأوا ساحة ابن العلقمي في حين بعضهم اتهمه بالخيانة وبعضهم الآخر تحفظ عن البت في تلك الأحداث.

١٧. إنّ التهم المنسوبة الى الوزير ابن العلقمي هي امتداد للعداء الطائفي ضد الشيعة وقد انتقل العداء الى الوزير بعد حصول خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات المادية، فلابد من صب جام غضبهم على الوزير، لاسيما وأنهم حانقون مما ألمَّ بهم ويرون الوزير الشيعي عاد الى الحياة السياسية مرة ثانية.

والحمد لله ربِّ العالمين



ملحق الصور
(١)

تم نسخ وجمع هذه الصور من الكتابين التاليين:

الكتاب الأوّل: بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب، الدكتور عبدالجبار ناجي.

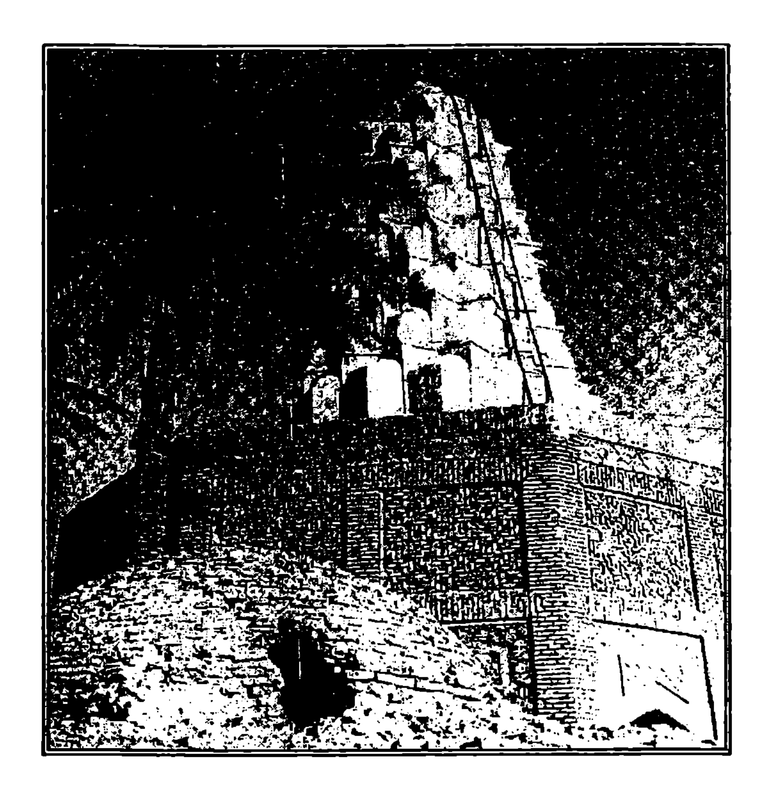
الكتاب الثاني: خلفاء بني العباس والمغول أسقطوا بغداد، السيد حسن شبر.





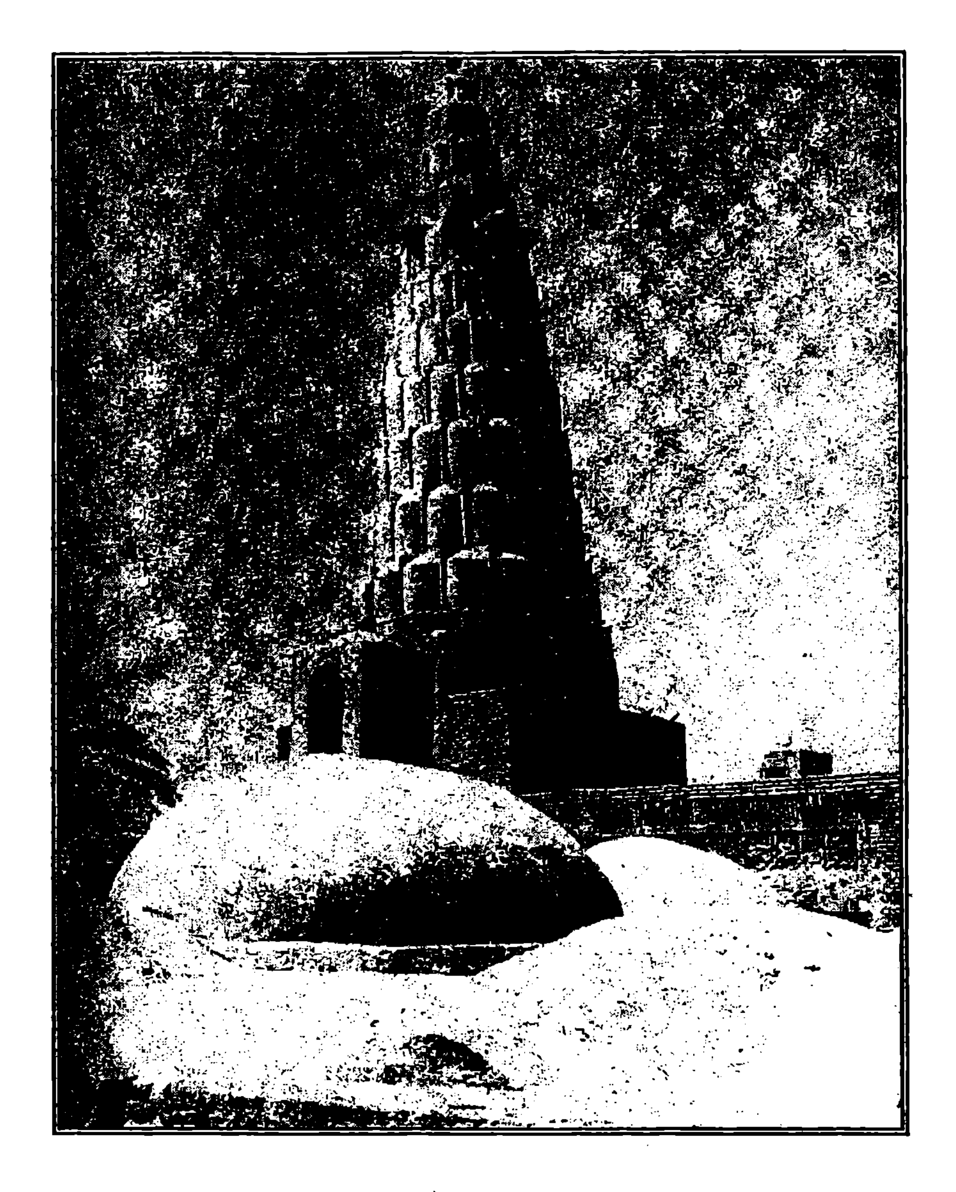
شكل رقم (١)

يمثل خارطة بغداد كما رسمها الرحالة الهولندي اوليفر دافر سنة ١٦٨٠م، ويظهر فيها سور بغداد الشرقي والأبواب الأربعة والجسر الذي يربط جانبي المدينة



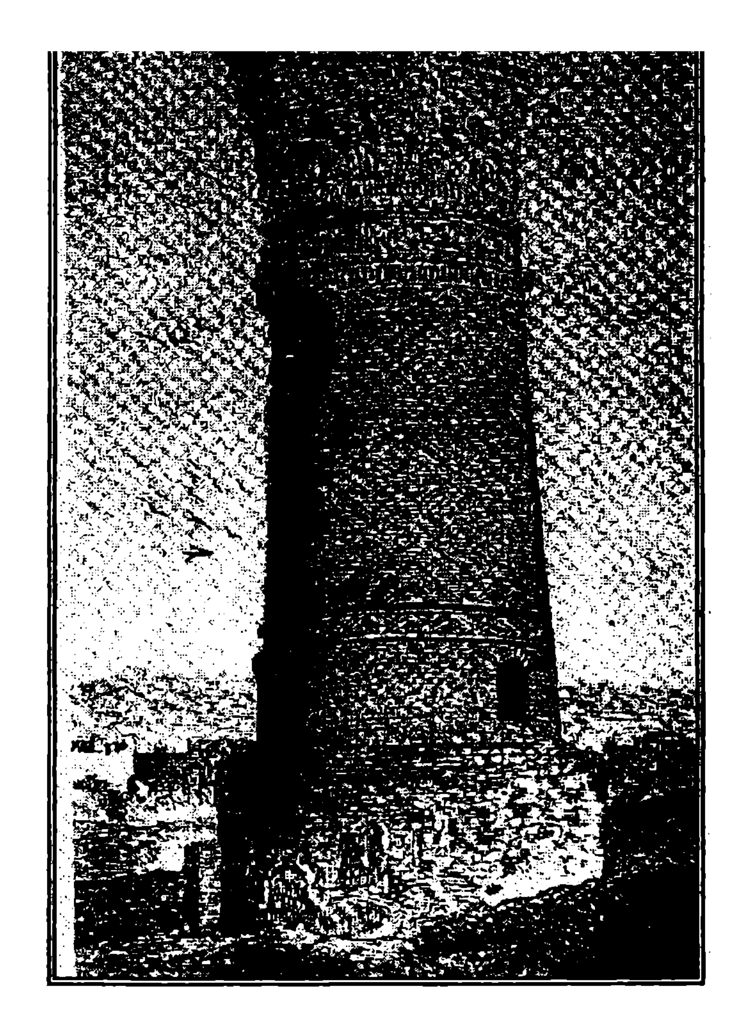
شكل رقم (٢)

من المعالم التاريخية الباقية في بغداد قبة زمرد خاتون التي تعرف خطأ عند الناس بقبر السيدة زبيدة، إذ انه من المعروف تاريخيا ان السيدة زبيدة (أمة العزيز بنت جعفر بن ابي جعفر المنصور) زوج الخليفة هارون الرشيد وام الخليفة محمد الامين توفيت (سنة ٢١٦ هـ/٨٣١م) ودفنت في مقابر قريش (منطقة الكاظمية الحالية)،وقد اثبت الدكتور مصطفى جواد ان هذا القبر هو تربة السيدة زمرد خاتون زوج الخليفة المستضيء بأمر الله وام الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٥م،وهو رأي جدير بالقبول ولاسيما ان المرحوم مصطفى جواد اعتمد على روايات لمؤرخين معاصرين للسيدة زمرد خاتون أو قريبين من عهدها أمثال ابن الاثير وسبط ابن الجوزي وابن الساعي وغيرهم (ينظر: دليل خارطة بغداد، ص١٧٠-١٧٢).



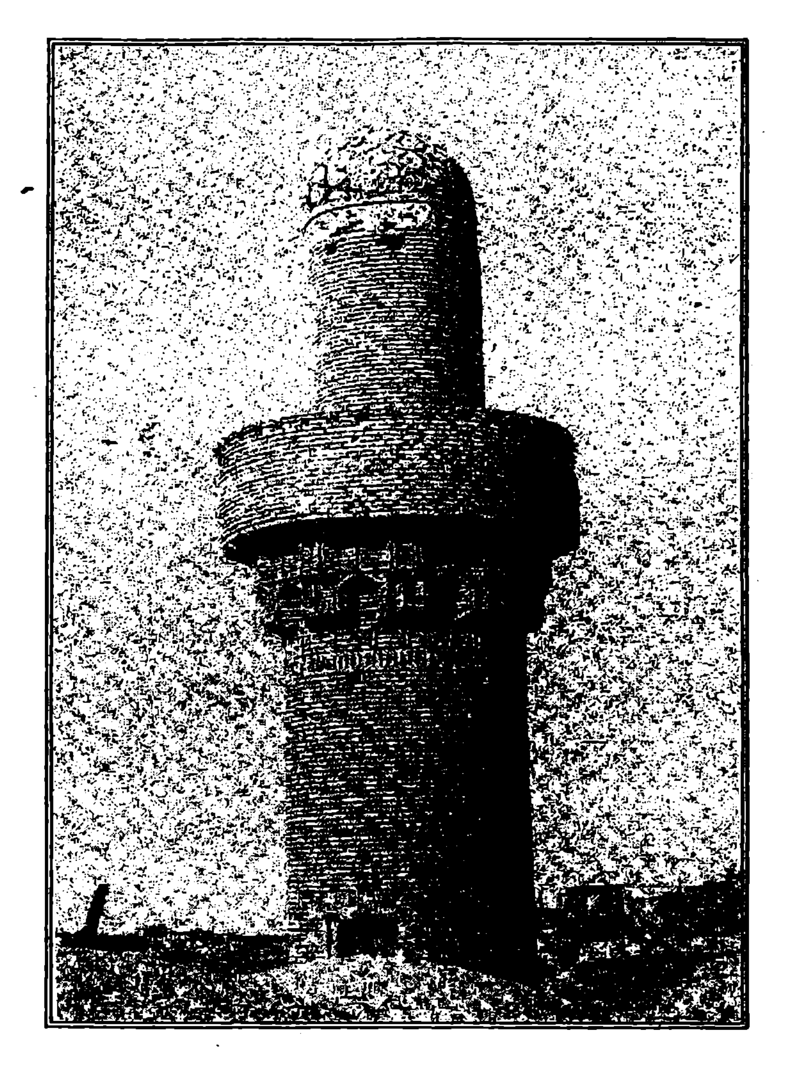
شكل رقم (٣)

من المعـــالم التاريخية البغدادية الباقية قبة تربة الشيخ عمر السهروردي (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) في الجانب الشرقي، وهي على الطراز السلجوقي حيث القبة المخروطية المقرنصة الشبيه بقبة زمرد خاتون.



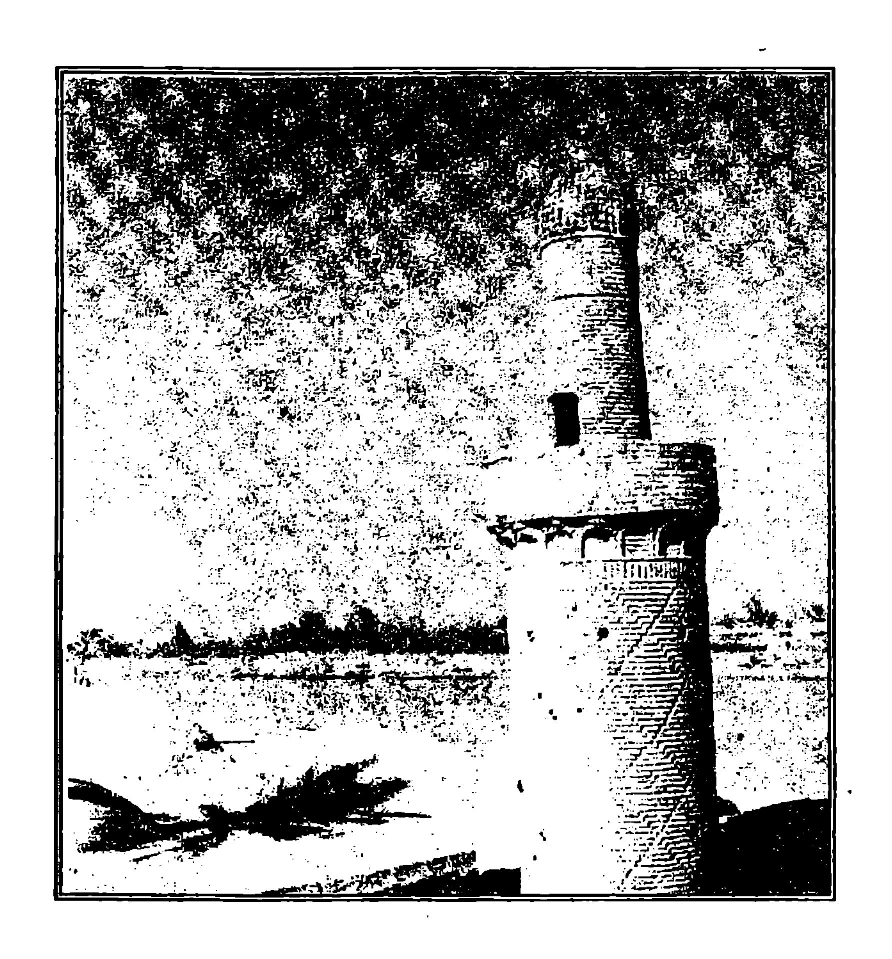
شكل رقم (٤)

مئذنة جامع الخلفاء (منارة سوق الغزل) قبل الترميمات.



شكل رقم (٥)

مئذنة مسجد الحضائر (جامع الخفافين) أو مسجد ام الناصر الذي شيدته السيدة زمرد خاتون، موقعه اليوم على ضفة نهر دجلة اليسرى تحت المدرسة المستنصرية ويعرف بـ (جامع الصاغة) وتعد أقدم منارة في بغداد.



شكل رقم (٦)

مئذنة مسجد قمرية نسبة إلى قمرية من أهل بيت الخليفة الناصر لدين الله أو احدى حظاياه، وترقى إلى العهد الأخير من الخلافة العباسية.

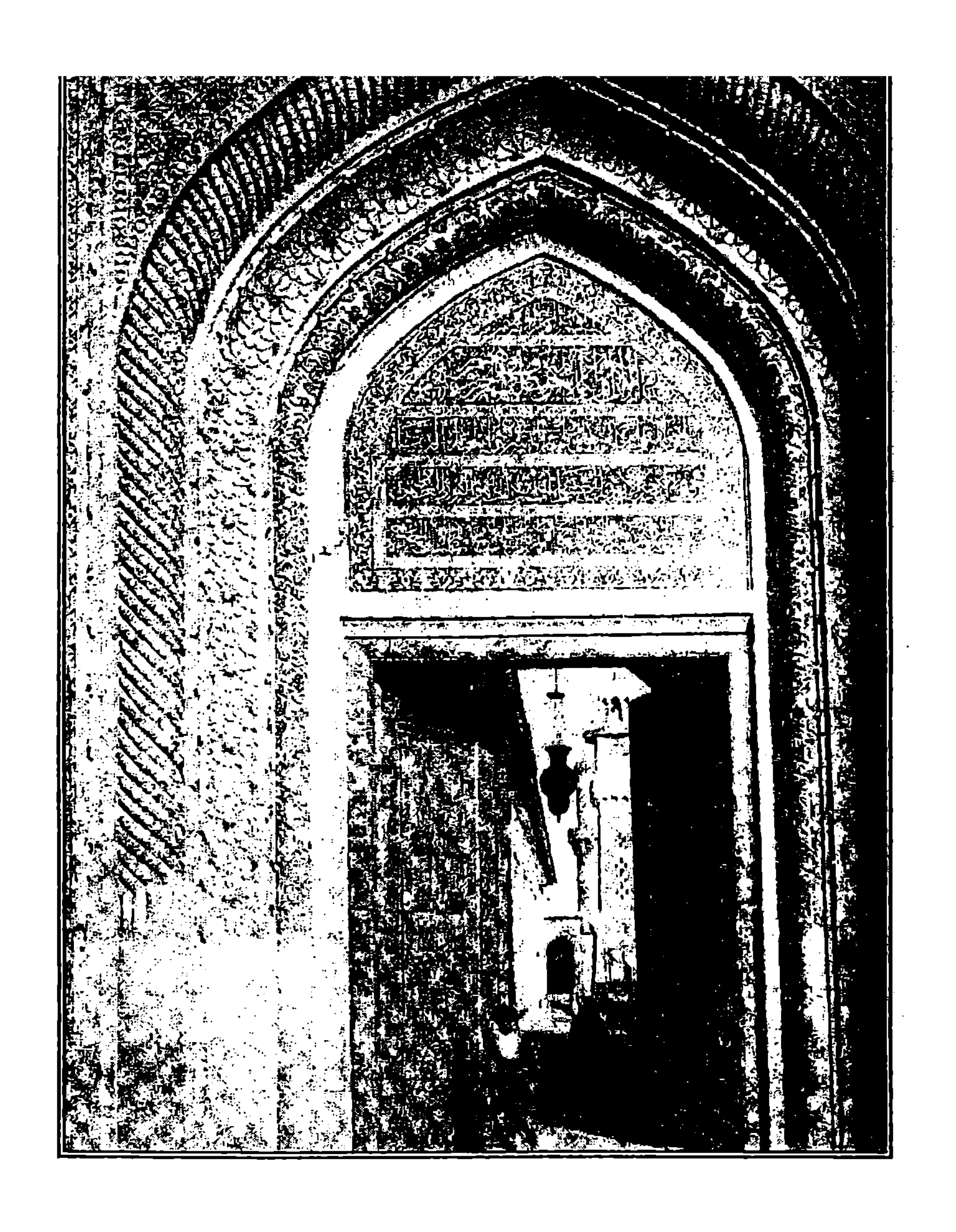


شكل رقم (٧)

من المعالم التاريخية الباقية في بغداد القصر العباسي او دار المسناة الناصرية.

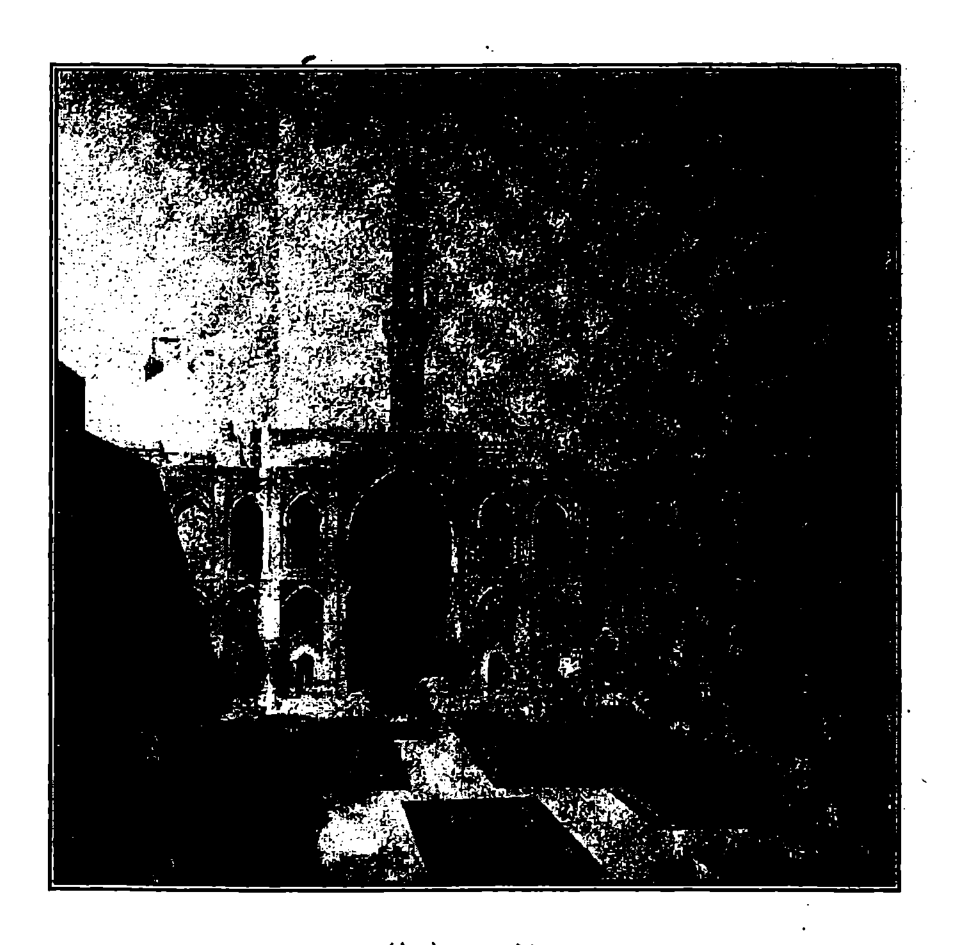


شكل رقم (٨)
بقايا القصر العبّاسي في بغـداد



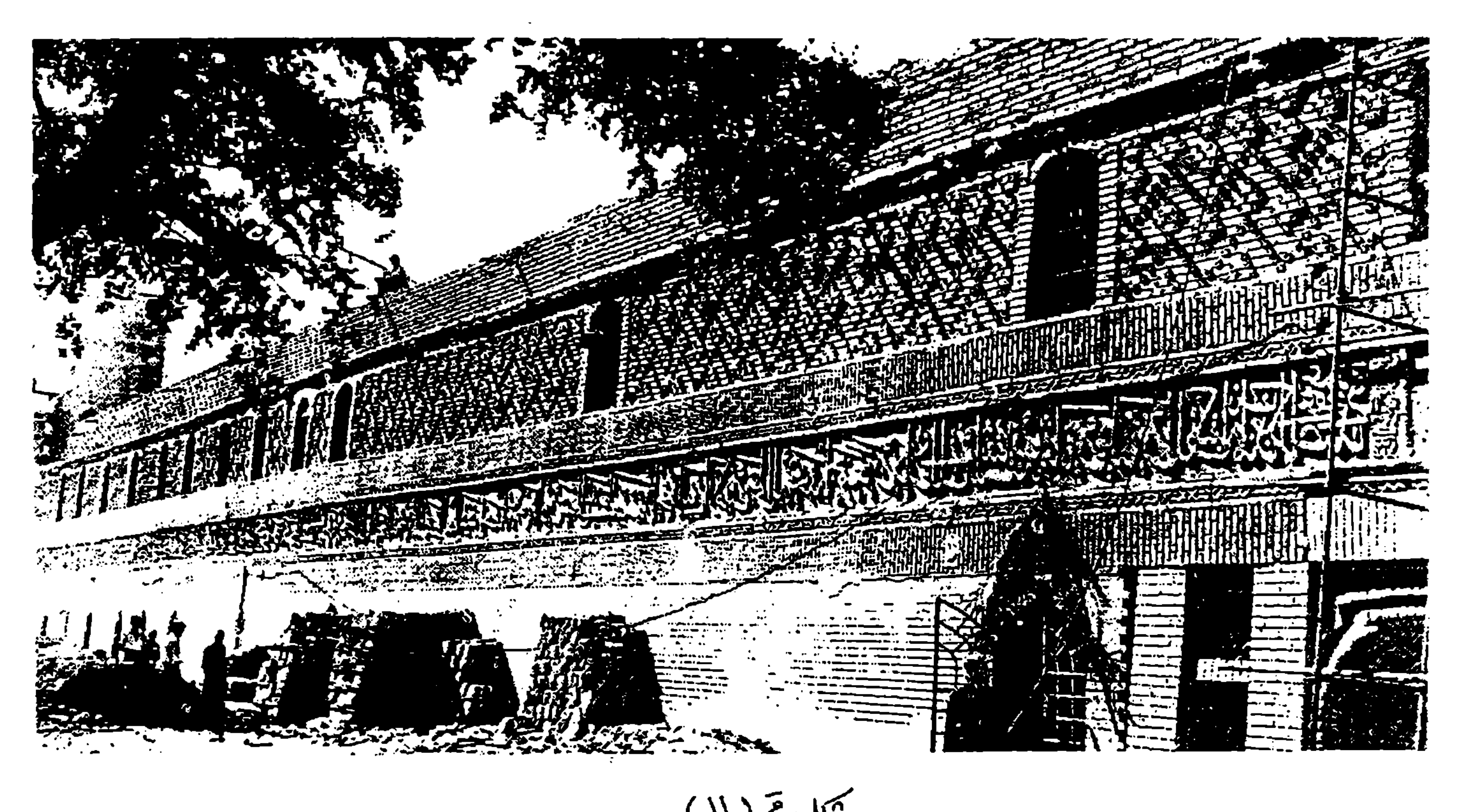
شكل رقم (٩)

الصحن الداخلي للقصر العباسي.



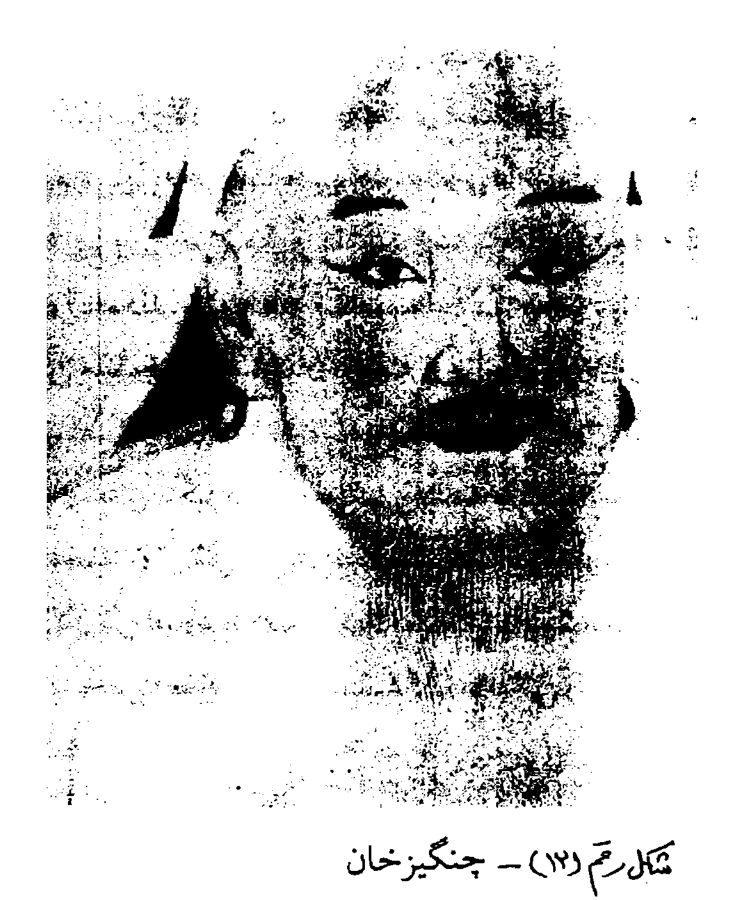
شكل رقم (١٠)

من المعالم التاريخية الثقافية الباقية في بغداد المدرسة المستنصرية.



شكل رقم (١١)

واجهة المدرسة المستنصريّة المطلّة على نهر دجلة



شکل رقم (۱۲) ۔ چنگیز خان



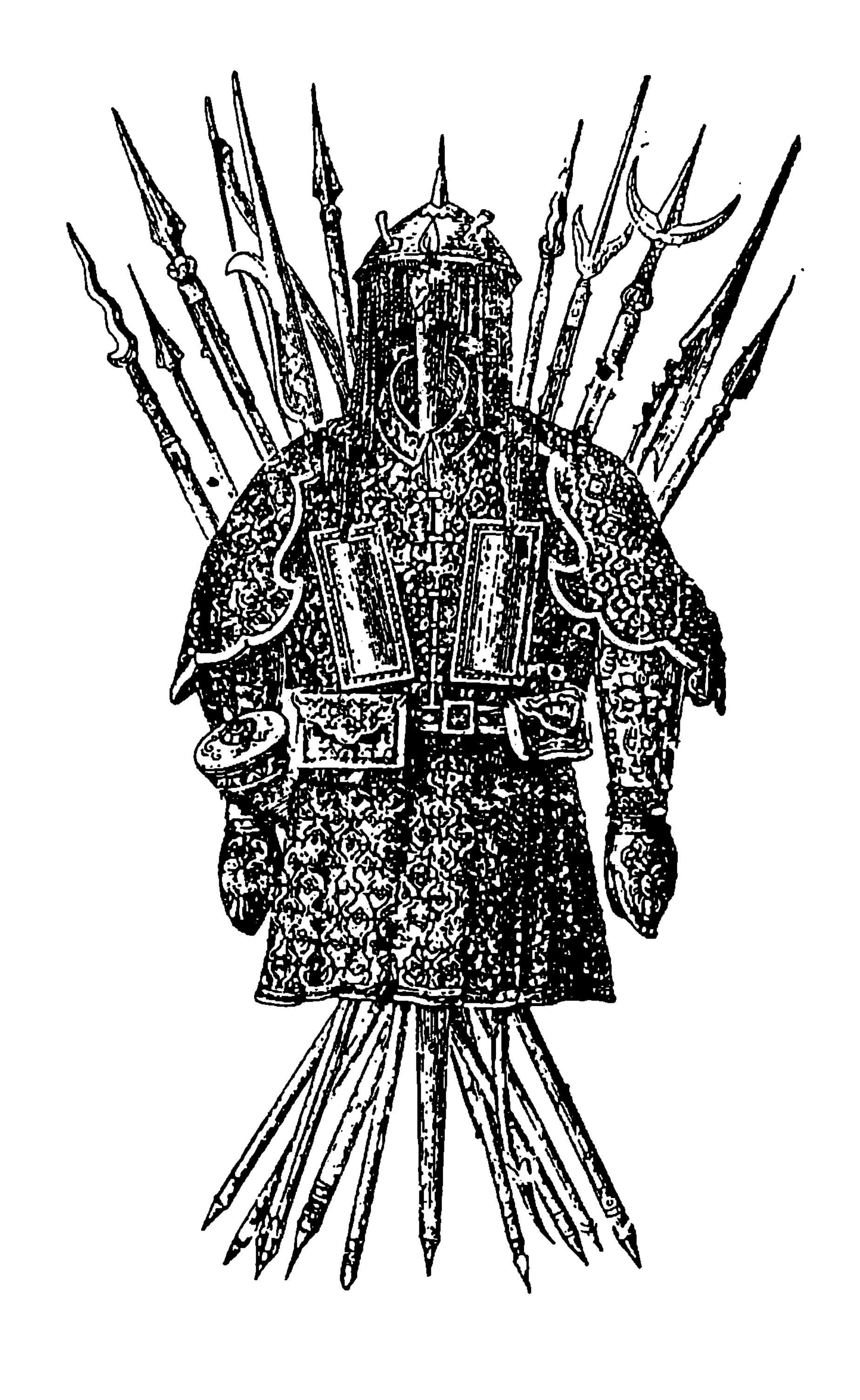
شکل رقم (۱۳)ـ اوگتای خان خلیفـة چنگیز



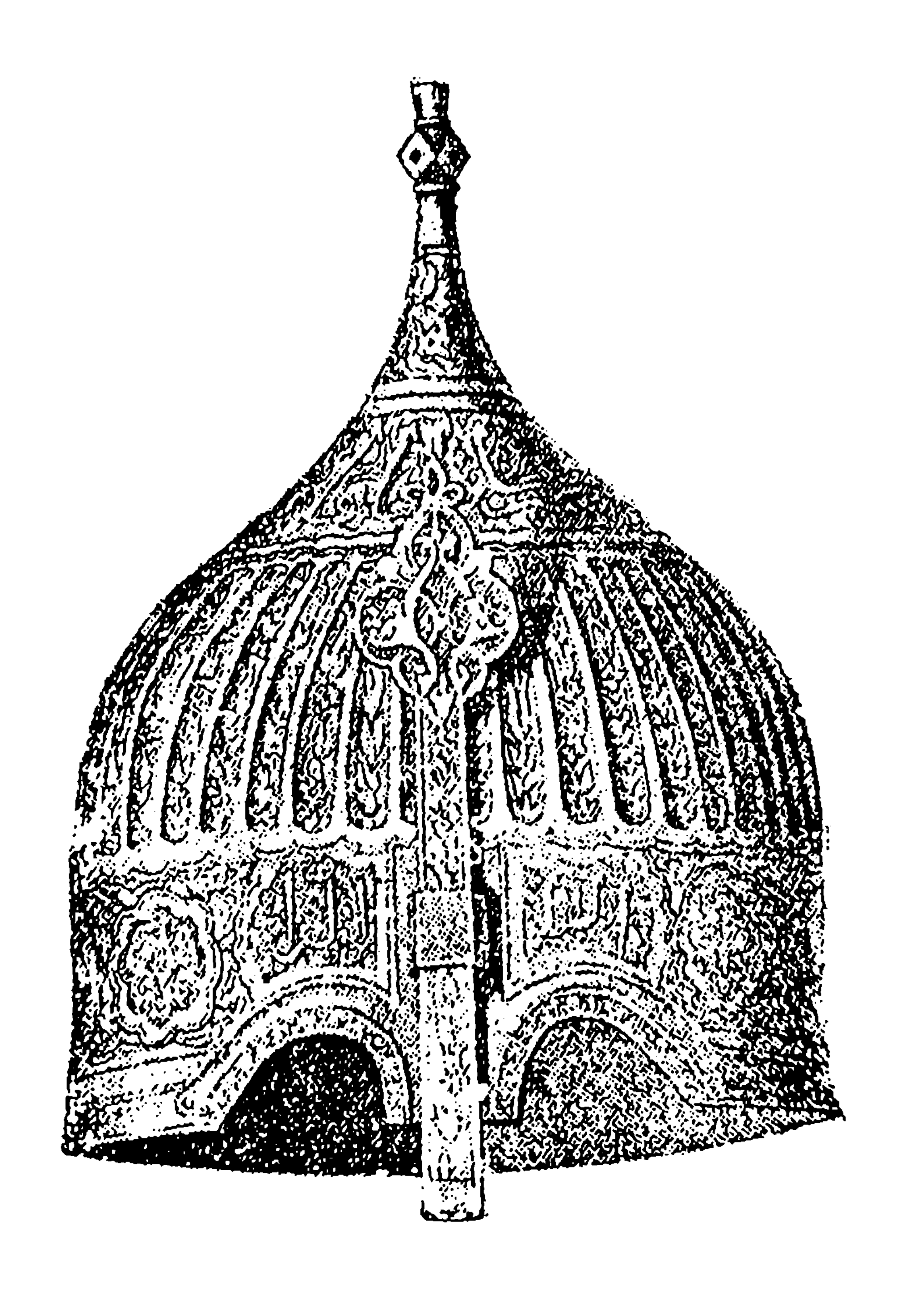
شكل رقم (١٤) - تصوير قوبيلاي خان



شكل رقم (١٥) - جندي مغولي



شكل رقم (٦١) - أسلحة المغول



شكل رقم (١٧) — مغفر مغولي



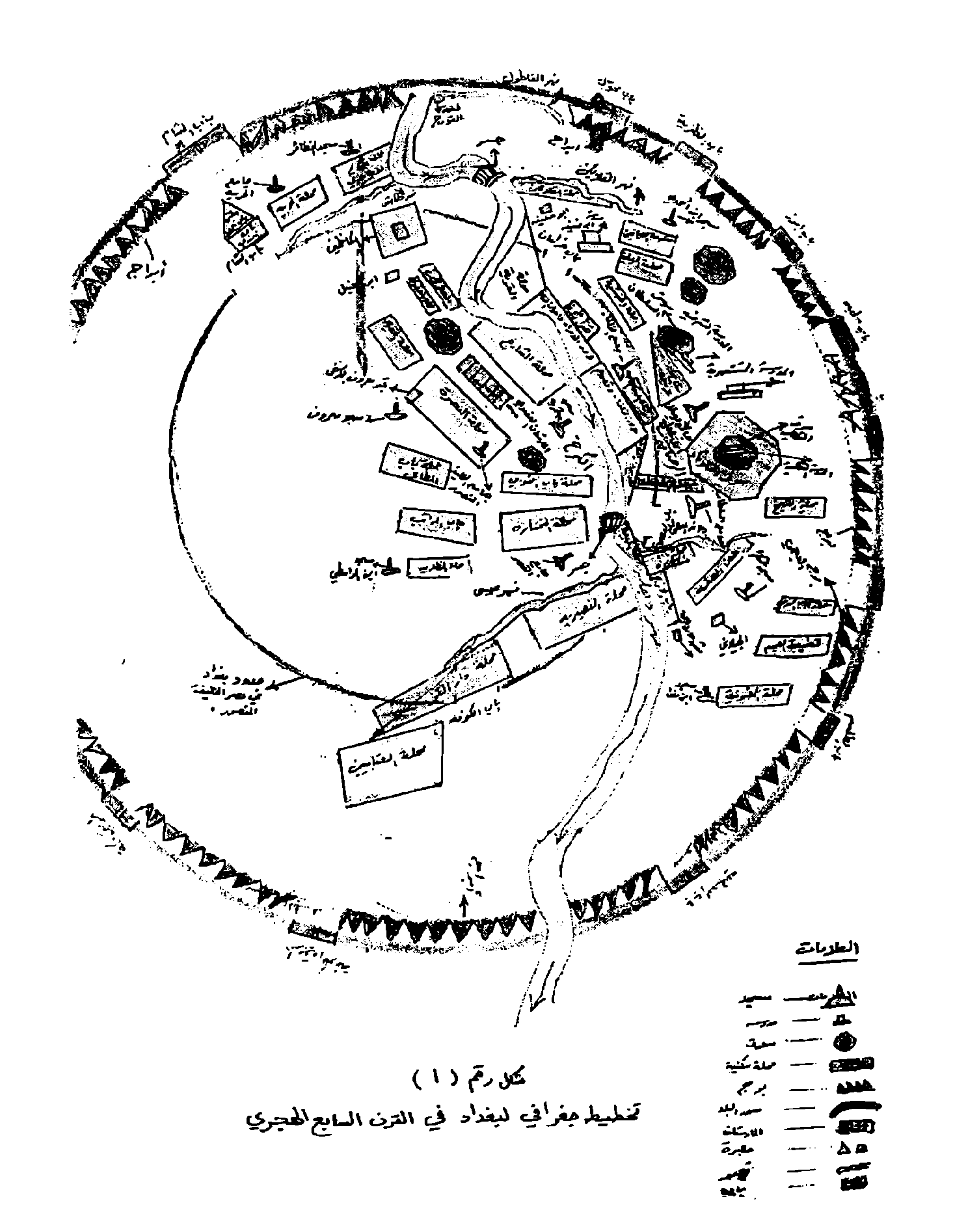
ملحق الخرائط
(٢)

لقد تم نقل هذه الخرائط من كتابي:

الكتاب الأوّل: بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب، الدكتور عبدالجبار ناجي.

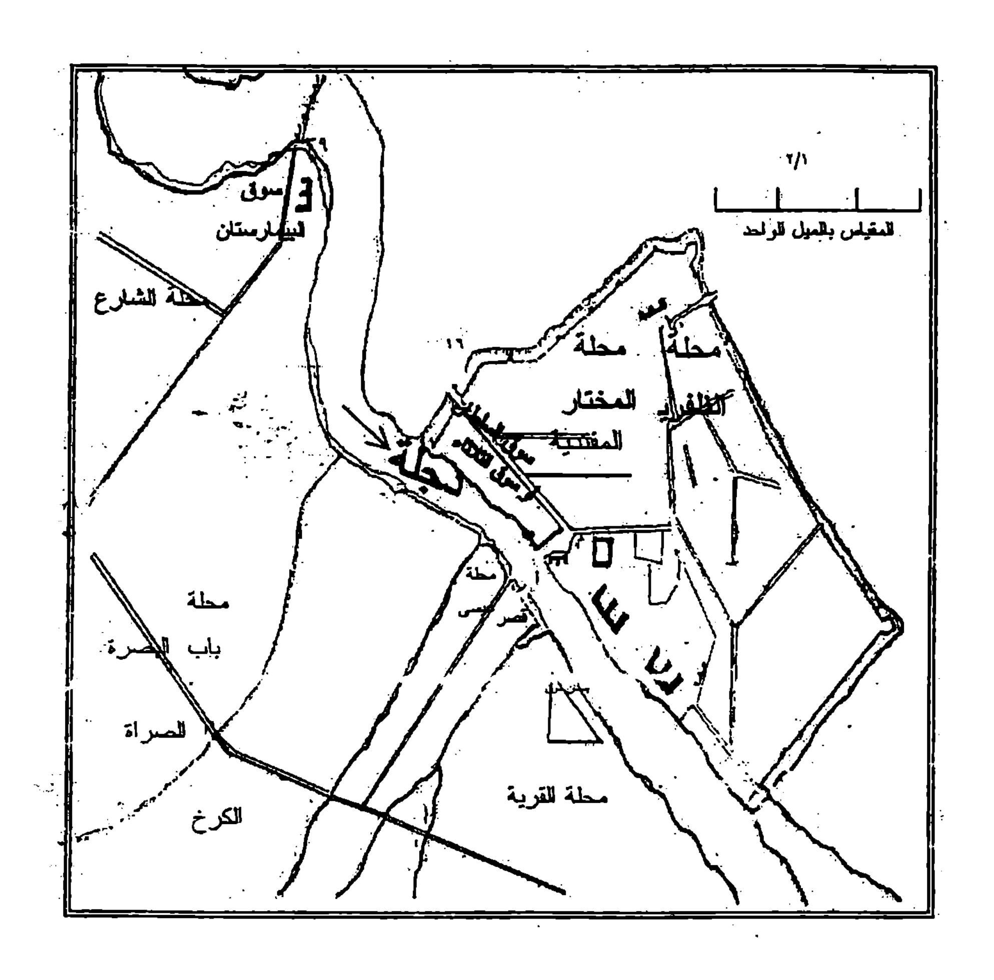
الكتاب الثاني: أطلس تاريخ إسلام لمؤلفه الدكتور حسين مونس.





شكل رقم (١)

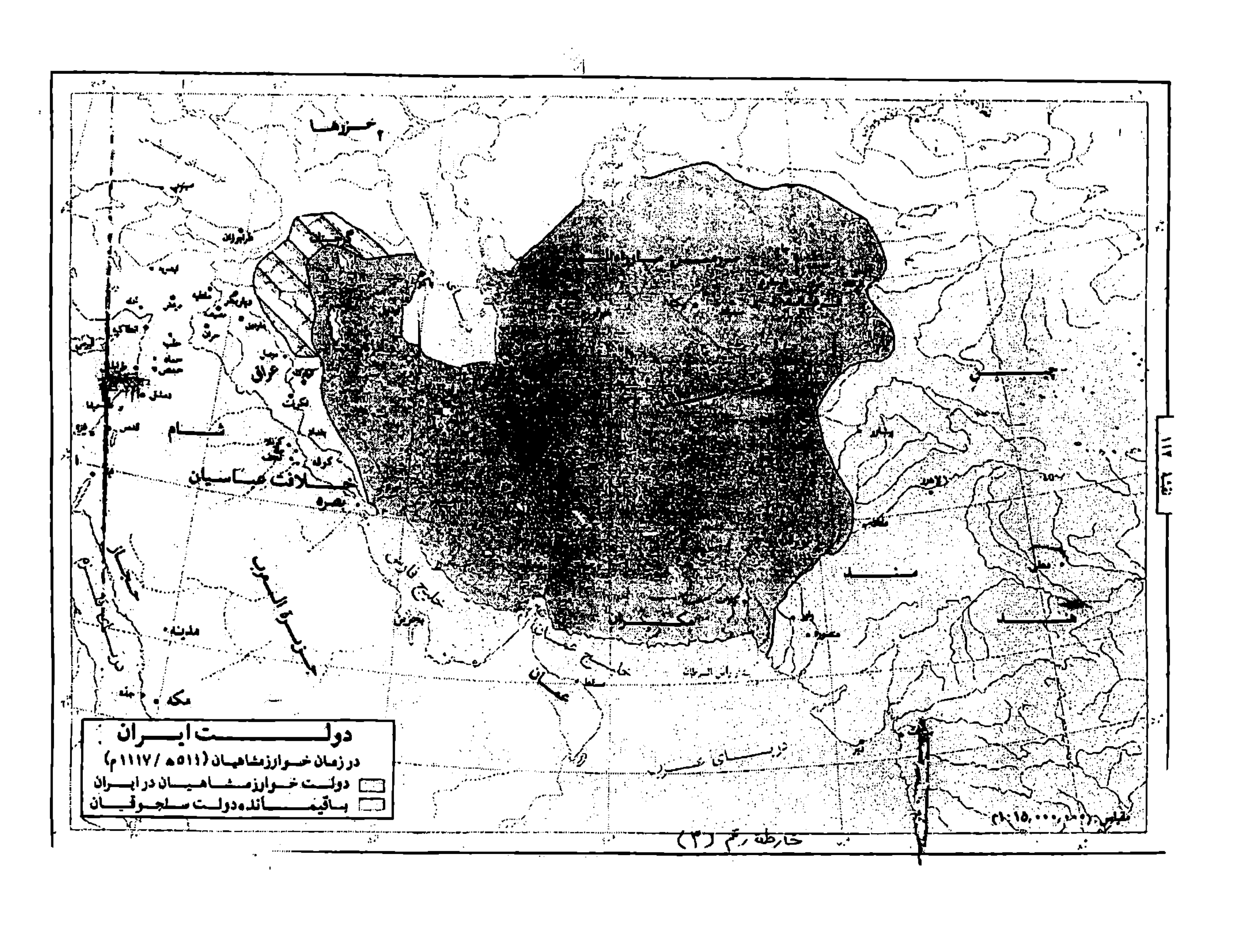
تخطيط جغرافي لبغداد في القرن السابع الهجري



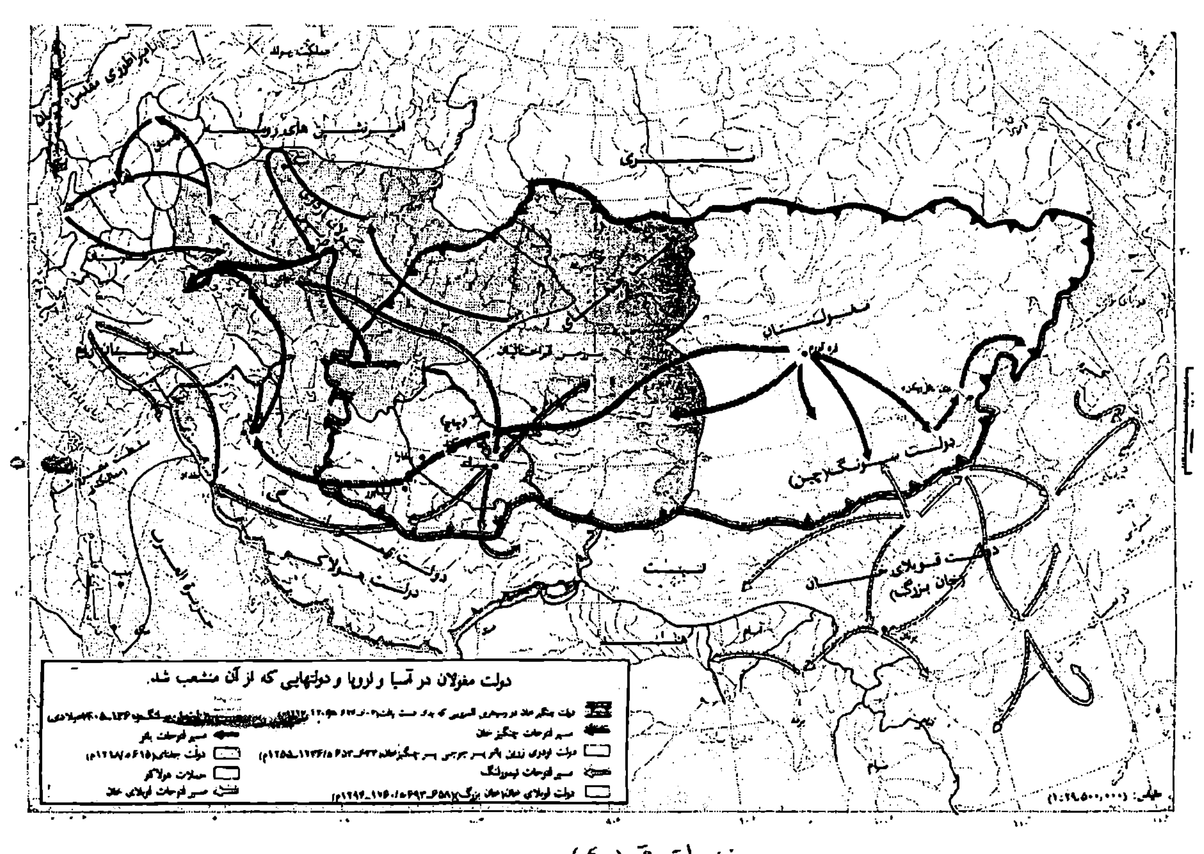
شكل رقم (٢)

خارطة بغداد الشرقية في أواخر الخلافة العباسية.

رسم المستشرق لسترنج (مجلة المورد).

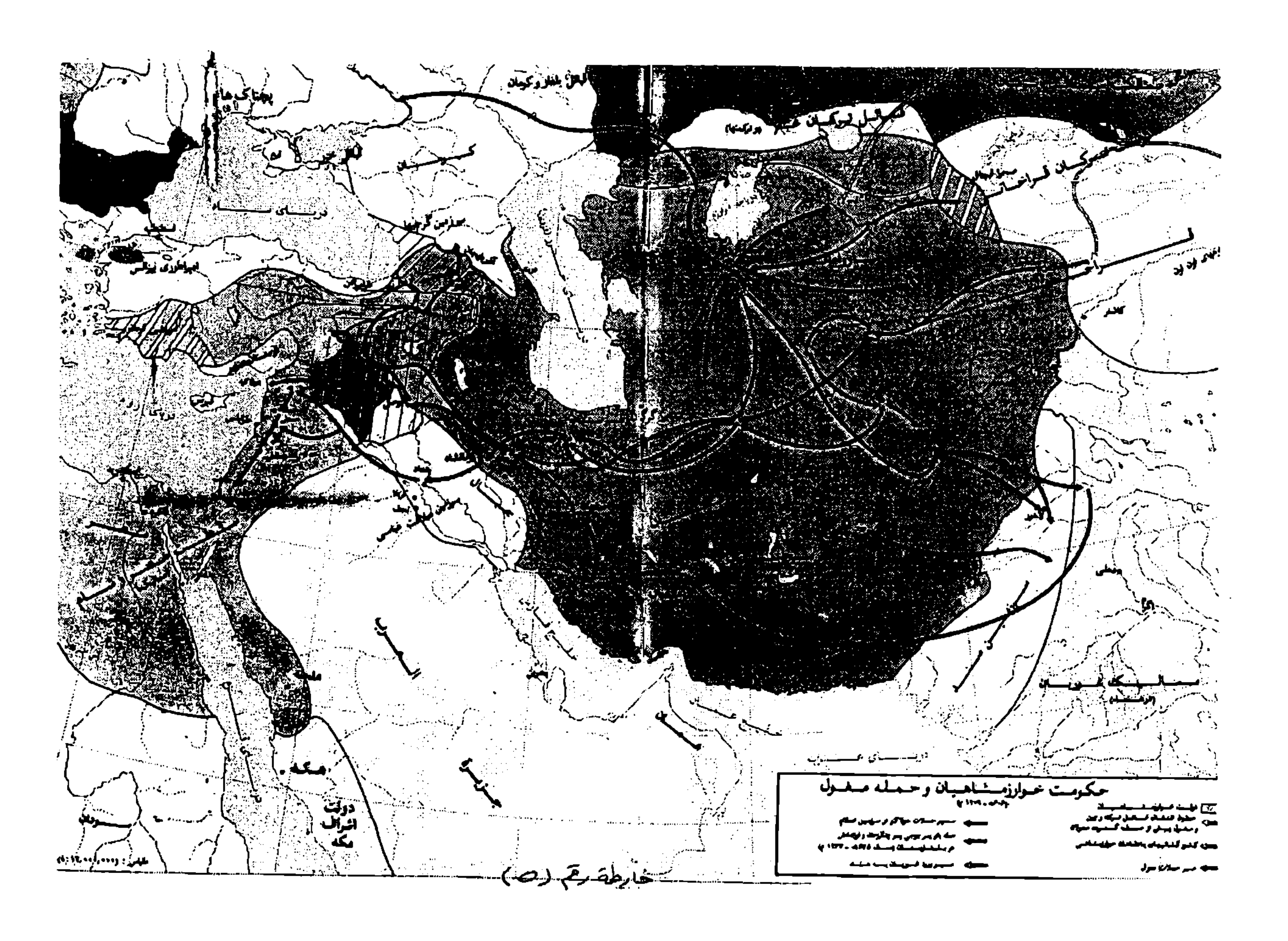

دولت ایران
در زمان خوارزمشاهیان (۵۱۱ ه / ۱۱۱۷ م)
دولت خوارزمشاهیان در ایران
باقیمانده دولت سلجوقیان
خزرها
شام
عراق
خلافت عباسیان
بصره
خلیج فارس
جزیرة العرب
مدینه
مکه
عمان
دریای عرب
چین
هند
مقیاس ۱:۱۵،۰۰۰،۰۰۰

خارطه رقم (۳)



دولت مغولان در آسیا و اروپا و دولتهایی که از آن منشعب شد.
مسیر فتوحات چنگیز خان
مسیر فتوحات باتو
حملات هولاکو
مسیر فتوحات تیمورلنگ
تبت

خارطة رقم (٤)


حکومت خوارزمشاهیان و حمله مغول
دولت اشراف مکه
مکه
دریای سیاه
امپراطوری نیقیه
سرزمین گرجیها
ممالیک ترکمان قراختائی
ممالیک ترکمان غز
جزیره العرب
خارطه رقم (۵)

فهرس المصادر و المراجع

ـ أ ـ

١. **اخبار الدول وآثار الأول في التأريخ**: أحمد بن يوسف ألقرماني المتوفى (١٠١٩هـ)، تحقيق الدكتور أحمد حطيط، و الدكتور فهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ط ١٤١٢ هـ

٢. **أخبار العلماء بأخبار الحكماء**: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم المشهور بابن القفطي المتوفى (٦٤٦ هـ)، چاپ دانشگاه تهران، مهر سال ١٣٧١ ش.

٣. **إرشاد الأذهان**، حسن بن يوسف بن علي بن مطهر العلامة الحلي، (المتوفى ٧٢٦ هـ)، تحقيق فارس حسون، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين ـ قم، ط١ ـ ١٤١٠ق.

٤. **الإسماعيليون و المغول و نصير الدين الطوسي**: حسن السيد محسن الأمين، المتوفى (١٤٢٣ هـ)، مركز الغدير للدراسات الاسلامية، ط ٢ـ ١٤١٧هـ

٥. **أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية**: الدكتور ناصر بن عبدالله بن علي القفاري (معاصر)، دار الرضا للنشر، الجيزة، ط ٣ـ ١٤١٨ هـ

٦. **أطلس تاريخ إسلام**: الدكتور حسين مونس (معاصر)، ترجمة الدكتور آذرتاش آذرنوش (معاصر)، سازمان جغرافيايى نيروهاى مسلح، جاب

اول ـ ١٣٧٥ش، طهران.

٧. **الأعلام**: خير الدين الزركلي المتوفى (١٣٩٦ هـ)، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط ١٤ـ ١٩٩٩ م.

٨. **امپراطوري مغول و ايران دوران چنگيز خان و جانشينان او**: دكتر إبراهيم تيموري (معاصر) ، دانشگاه تهران، چاپ اول ـ ١٣٧٧ ش.

٩. **أنوار المشعشعين في ذكر ورود الطالبيين إلى القميين**، الشيخ محمد علي بن حسين النائيني المتوفى (١٣٥٥ هـ)، تحقيق محمد رضا أنصاري، مكتبة آية

(ب)

١٠. **بحار الأنوار**: العلامة محمد باقر المجلسي المتوفى (١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

١١. **البداية و النهاية**: الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى (٧٧٤ هـ)، تحقيق مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

١٢. **بغداد في كتابات الرحالة العرب و الأجانب من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر الميلادي**: الدكتور عبد الجبار ناجي (معاصر)، حسين داخل البهادلي (معاصر)، بيت الحكمة، بغداد، ط ١ـ ٢٠٠٣ هـ

١٣. **بغداد**: جند مقاله در تاريخ وجغرافيايى تاريخى؛ ترجمه اسماعيل دولتشاهى، وايرج بروشانى، بنياد دايره المعارف اسلامى ـ تهران، جاب اول ـ ١٣٧٥ش

(ت)

١٤.**تاريخ ابن الوردي**: زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي المتوفى (٧٤٩ هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، سنة الطبع ١٣٨٩ م.

١٥.**تاريخ ابن خلدون**: عبد الرحمن بن خلدون المتوفى (٨٠٨ هـ)، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ط ٣ـ ١٤١٧ هـ

١٦.**تاريخ الإسلام و وفيات مشاهير الأعلام**: الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى (٧٤٦ هـ) ، تحقيق الدكتور عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، ط٢ـ ١٤٢٣هـ

١٧.**تاريخ الاسلام**: الدكتور حسن ابراهيم حسن المتوفى (١٣٨٨ هـ)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة الطبع ١٩٦٧ م.

١٨.**تاريخ الخلفاء**: عبدالرحمن بن كمال أبو بكر جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ) ، تحقيق ابراهيم صالح، دار صادر، بيروت، ط١ـ ١٤١٧هـ

١٩.**تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**: الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري المتوفى (٩٦٦ هـ) ، دار صادر، بيروت.

٢٠.**تاريخ الزمان**: أبوالفرج جمال الدين بن العبري المتوفى (٦٨٥ هـ)، ترجمة الأب إسحاق أرملة المتوفى (١٣٧٤ هـ)، تقديم الأب الدكتور جان موريس فييه، دار المشرق، بيروت، سنة الطبع ١٩٩١ م.

٢١.**تاريخ العراق بين احتلالين**: المحامي عباس العزاوي (معاصر)، منشورات

الشريف الرضي ـ قم، ط١ـ ١٤١٠.

٢٢.**تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (٥٥٢ـ٦٥٦هـ):** الدكتور بدري محمد فهد (معاصر)، مطبعة الإرشاد ـ بغداد، سنة الطبع ١٩٧٣م.

٢٣.**تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية ـ الإسلامية:** الدكتور فاروق عمر فوزي (معاصر)، مكتبة النهضة، بغداد، ط ١ـ ١٩٨٨ م.

٢٤.**تاريخ العرب في القرون الوسطى:** الدكتور ناجي معروف (معاصر)، و الدكتور صالح أحمد العلي(معاصر) و عبدالله الفياض (معاصر)، مطبعة الإرشاد، بغداد، ط ١ـ ١٩٦١م.

٢٥.**تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري:** الدكتور أحمد عودات (معاصر)، و جميل بيضون (معاصر)، و شحادة الناطور، دار الكندي سنة الطبع ١٩٩٠ م.

٢٦.**تاريخ إيران إسلامي (از يورش مغولان تا زوال تركمان):** رسول جعفريان (معاصر)، مؤسسة فرهنگي دانش و انديشه معاصر، چاپ دوم ـ ١٣٨١ ش.

٢٧.**تاريخ بغداد : أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٣ هـ)**، الدكتور بدري محمد فهد (معاصر)، دار الشؤون الثقافة العامة، بغداد.

٢٨.**تاريخ جهانگشاى:** علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد بن محمد الجويني المتوفى (٦٨٠ هـ)، تصحيح العلامة محمد القزويني، نقش قلم، تهران چاپ دوم ـ ١٣٧٨ ش.

٢٩.**تاريخ حبيب السير:** غياث الدين بن همام الديني الحسيني خواندمير المتوفى

(٩٣٠ هـ)، كتابخانه خيام، تهران سال چاپ ١٣٣٣ ش.

٣٠. **تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى**: الدكتور محمد سهيل طقّوش (معاصر)، دار النفائس ـ بيروت، ط ١ ـ ١٤٢٣هـ

٣١. **تاريخ عرب**: فيليب خليل حتي، ترجمه أبو القاسم پاينده، شركت انتشارات علمي و فرهنگي، تهران، سال چاپ ١٣٨٠ ش.

٣٢. **تاريخ فتوحات مغول**: ج ج. ساندرز، ترجمه أبوالقاسم حالت، أميركبير، تهران، سال چاپ ١٣٦١ ش.

٣٣. **تاريخ گزيده**: ابن أبي بكر أحمد بن نصر قزويني حمد الله المستوفي المتوفى (٧٥٠ هـ)، أمير كبير، طهران، سال چاپ ١٣٣٩ ش.

٣٤. **تاريخ مختصر الدول**: العلامة غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري المتوفى (٦٨٥ هـ) .

٣٥. **تاريخ مغول**: عباس إقبال آشتياني المتوفى (١٣٧٥ هـ)، أمير كبير، تهران، چاپ ششم ـ ١٣٦٥ ش.

٣٦. **تاريخ نامه هرات**: سيف بن محمد بن يعقوب الهروي، تصحيح محمد زبير الصديقي، تعليق جان بهادر خليفه محمد أسد الله، كتابخانه خيام، كلكته، سال چاپ ١٩٤٣ م.

٣٧. **تحرير وصاف الحضرة**: عبدالمحمد آيتي (معاصر)، مؤسسه مطالعات وتحقيقات فرهنگي «پژوهشگاه»، تهران، چاپ دوم ـ ١٣٧٢ ش.

(ج)

٣٨. **جامع التواريخ**: رشيد الدين فضل الله الهمداني المتوفى (٧١٨ هـ)، البرز، تهران، چاپ اول ـ ١٣٧٣ ش.

٣٩. **جمال الأسبوع**، السيد علي بن موسى ابن طاووس المتوفى (٦٦٤ هـ)، تحقيق جواد قيومي الإصفهاني، مؤسسة الآفاق، ط١ ـ ١٣٧١ش.

٤٠. **چنگيز خان**: هارلد لمب، مؤرخ أمريكي، ترجمه غلام رضا رشيد ياسمي، المتوفى (١٣٧٠هـ)، أمير كبير ـ تهران، سال جاب ١٣٦٢ش.

(ح)

٤١. **الحوادث الجامعة و التجارب النافعة في المائة السابعة**: كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن الفوطي البغدادي ، المتوفى (٧٢٣ هـ)، دار الفكر الحديث، بيروت، سنة الطبع ١٤٠٧ هـ

٤٢. **الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير**: الدكتور محمد صالح داود القزاز (معاصر)، مطبعة القضاء, النجف, ط١ ـ ١٩٧١م.

(خ)

٤٣. **خلفاء بني العباس و المغول اسقطوا بغداد**: السيد حسن شبر ، دار الملاك، بيروت، ط ١ ـ ١٤٢١ هـ

(د)

٤٤.**دائرة المعارف الإسلامية**: مجموعة من المستشرقين «ڤنسنك، المتوفى (١٣٥٨هـ) هوتسما المتوفى (١٣٦٢ هـ) ، أرنولد، هفننج، پروڤسال (المتوفى ١٣٧٦ هـ)، باسيه المتوفى (١٣٤٢ هـ) ، هارتمان، چب»، ترجمه محمد ثابت الفندي و أحمد الشنتاوي وإبراهيم زكي خورشيد و عبد الحميد يونس، شركت انتشارات جهان، تهران، سنة الطبع ١٩٦٦ م.

٤٥.**دائرة المعارف بزرگ اسلامي**: اشراف سيد محمد كاظم موسوي بجنوردي (معاصر) ، وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامي، تهران، چاپ دوم، ١٣٧٧ ش.

٤٦.**الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: ابن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢ هـ)، دار الجبل، بيروت، سنة الطبع ١٤١٤ هـ

٤٧.**دول الإسلام**: شمس الدين أبي عبدالله الذهبي المتوفى (٧٤٦ هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، سنة الطبع ١٤٠٥ هـ

٤٨. **الدولة العباسية**: الشيخ محمد الخضري بگ المتوفى (١٣٤٥ هـ) ، تحقيق الشيخ محمد العثماني (معاصر)، دار القلم، بيروت.

٤٩. **دولة القانون**: ميشال مياي، المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان، ط ٢ـ ١٩٨٢ م.

(ذ)

٥٠. **الذريعة إلى تصانيف الشيعة:** محمد محسن الشهير بالشيخ آغا بزرگ الطهراني المتوفى (١٣٨٩ هـ) ، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، الطبعة الأولى.

٥١. **ذيل الروضتين:** شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي الشامي المعروف بأبي شامة المتوفى (٦٦٥هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١ ـ ١٤٢٢هـ

٥٢. **ذيل تاريخ بغداد أو مدينة السلام:** الحافظ محب الدين أبي عبدالله محمد بن محمود بن الحسن المعروف بابن النجار البغدادي المتوفى (٦٤٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٣. **ذيل مرآة الزمان:** الشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني المتوفى (٧٢٦هـ) ، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، ط ٢ـ ١٤١٣ هـ

(ر)

٥٤. **رحلات ماركوبولو:** ترجمها الى الانجليزية ونشرها وليم مارسدن، وترجمها الى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة، سنة الطبع ١٩٧٧م.

٥٥. **رحلة ابن بطوطة:** أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم الطنجي المعروف بابن بطوطة المتوفى (٧٧٩ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢ـ ١٤١٣هـ

٥٦.**رحلة ابن جبير**: أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير المتوفى (٦١٤ هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة الطبع ١٤٢١هـ

٥٧.**الرسائل الرجالية**، الكلباسي، أبو المعالي محمد بن محمد المتوفى (١٣١٥هـ) ، تحقيق محمد حسين الدرايني، دار الحديث ـ قم.

(س)

٥٨.**سقوط بغداد و حكمروايي مغولان در عراق**: پَي ـ نَن رشيدوو، ترجمه دكتر أسد الله آزاد، مؤسسه چاپ وانتشارات آستان قدس رضوي.

٥٩.**السلوك لمعرفة دول الملوك**: تقي الدين أبي العباس احمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي المتوفى (٨٤٥هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط ١ـ ١٤١٨هـ

٦٠.**سير أعلام النبلاء**: شمس الدين الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ)، تحقيق بشار العواد، ومحيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٩ـ ١٤١٣هـ

٦١.**سيرت جلال الدين مينكبرني**: شهاب الدين محمد خرندزي زيدري، وتصحيح وتعليق مجتبى مينوي، تهران، سال چاپ ١٣٤٤ش.

(ش)

٦٢.**شجرة الدر**: جرجي زيدان المتوفى (١٣٣٢ هـ) ، دار صادر، بيروت، ط ١ـ ١٩٩٨م.

٦٣.**شذرات الذهب في اخبار من ذهب:** المؤرخ الفقيه أبي الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبلي المتوفى (١٠٨٩ هـ) ، دار الفكر، بيروت.

٦٤.**شرح نهج البلاغة:** أبن أبي الحديد المدائني المعتزلي المتفوى(٦٥٥ هـ)، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية.

٦٥. **الشيعة في ايران:** رسول جعفريان (معاصر)، تعريب علي هاشم الاسدي، مجمع البحوث الاسلامية في الاستانة الرضوية المقدسة، مشهد، ط ١ـ ١٤٢٠هـ

(ص)

٦٦.**صبح الأعشى في صناعة الإنشا:** أحمد بن علي القلقشندي المتفوى(٨٢١هـ)، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٦٧.**الصحاح:** إسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى (٢٩٣ هـ)، تحقيق احمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين.

٦٨.**الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية:** محمد نجيب ابو طالب (معاصر)، تقديم الدكتور الطاهر لبيب، دار المعارف، سنة الطبع ١٩٩٠م.

(ض)

٦٩.**الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية:** محمد أنور الجندي(معاصر)، دار القلم، دمشق، ط ١ـ ١٤١٨هـ

(ط)

٧٠. **طبقات الشافعية الكبرى**: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي المتوفى (٧٧١هـ)، تحقيق محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو.

(ع)

٧١. **العباسيون بعد احتلال بغداد**: محفوظ العباسي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١ـ ١٩٩٠م.

٧٢. **العبر في خبر من غَبَر**: شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي المتوفى (٧٤٨هـ) ، دار الفكر، بيروت، ط ١ ـ ١٤١٨هـ

٧٣. **العراقيون في مصر في القرن السابع الهجري**: الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم (معاصر)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، سنة الطبع ١٩٩١م.

٧٤. **العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك**: الملك الأشرف إسماعيل بن العبّاس بن علي الغساني المتوفى (٨٠٣ هـ)، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلامي، بيروت.

٧٥. **العيارون والشطار والبغاددة في التأريخ العباسي**: الدكتور محمد أحمد عبد المولى (معاصر)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، الطبعة الثانية.

٧٦. **عيون التواريخ**: محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي الداراني الدمشقي المتوفى (٧٦٤ هـ)، تحقيق الدكتور فيصل السامر، ونبيلة عبد المنعم داود، دار الرشيد للنشر، بغداد، سنة الطبع ١٩٨٠م.

٧٧. **العلاقات السياسية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى**: الدكتورة فتحية النبراوي، دار التضامن، القاهرة، ط ١ ـ ١٤٠٢ هـ .

(غ)

٧٨. **الغزو المغولي**: حسن بن السيد محسن الأمين المتوفى (١٤٢٣ هـ)، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، سنة الطبع ١٩٧٦م.

(ف)

٧٩. **فقه اللغة وسرّ العربية**: عبدالملك بن محمد إسماعيل أبو منصور الثعالبي المتوفى (٤٢٩ هـ)، تحقيق الدكتور فائز محمد، والدكتور أميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤ ـ ١٤٢٠هـ

٨٠. **الفخري في الآداب السلطانية**: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (٧٠٩هـ) ، منشورات الشريف الرضي، قم ـ ايران ، ط ١ ـ ١٤١٤ هـ .

(ق)

٨١. **قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام**: الدكتور احمد مختار العبادي (معاصر)، دار النهضة العربية، بيروت، سنة الطبع ١٤٠٦هـ

(ك)

٨٢. **الكامل في التاريخ**: أبو الحسن بن أبي الكرم بن الأثير المتوفى (٦٣٠هـ)، دار صادر ـ بيروت، سنة الطبع ١٣٨٥هـ

٨٣. **الكنى والألقاب**، القمي، عباس المتوفى (١٣٥٩هـ).

(م)

٨٤ مبادئ التسويق الحديث: منير الحمش (معاصر)، المطبعة الجديدة، دمشق، سنة الطبع ١٤٠٠هـ

٨٥ محنة الإسلام الكبرى: مصطفى طه بدر (معاصر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢ ١٩٩٩م.

٨٦ المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابي عبد الله ابن الدبيثي: اختصره شمس الدين الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ـ ١٤٠٥هـ

٨٧ المستقصى في امثال العرب: العلامة ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى (٥٣٨ هـ)، درا الكتب العلمية، بيروت.

٨٨ معجم البلدان: أبو عبدالله ياقوتبن عبدالله الحموي الرومي البغدادي المتوفى (٦٢٦ هـ)، دار صادر، بيروت، سنة الطبع ١٩٣٣م.

٨٩ مغولان وحكومت ايلخاني در ايران: دكتر شيرين بياني (معاصر)، سازمان مطالعه وتدوين كتب علوم انساني دانشگاهها (سمت)، تهران، چاپ اول ـ ١٣٧٩ ش.

٩٠. موسوعة السياسة: الدكتور عبد الوهاب الكيالي، مؤسسة العربية للمطبوعات، بيروت، ط ٣ـ ١٩٩٠م.

(ن)

٩١.**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي المتوفى(٨٧٤هـ)، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة.

٩٢.**نقعة الصديان**: الامام الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني المتوفى(٦٥٠هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ـ ١٤١٠هـ

٩٣.**النقود العربية والاسلامية وعلم النميات**: الاب انستاس الكرملي المتوفى (١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م)، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، ط ٢.

٩٤.**النوادر**: فضل الله بن علي الحسني الراوندي المتوفى(٥٧١هـ)، تحقيق سعيد رضا علي عسكري، دار الحديث، ط ١ ـ ١٤٠٧هـ

(و)

٩٥.**الوافي بالوفيات**: صلاح الدين ايبك الصفدي المتوفى (٧٦٤ هـ)، اصدار فرانز شتايز، شتوتغارت، المانيا، سنة الطبع ١٤١١هـ

٩٦.**الوطن الإسلامي بين السلاجقة والصليبيين**: حسن الأمين المتوفى (١٤٢٣ هـ)، مركز الغدير للدراسات الاسلامية، بيروت، ط ١ـ ١٤١٧هـ

الفهرس

الفصل الأول

الأوضاع الاجتماعية في بغداد في عصر الوزير ابن العلقمي

الفصل الثاني

الأوضاع الاقتصادية في بغداد في أواخر العصر العباسي

الفصل الثالث

الأوضاع السياسية في عصر ابن العلقمي

الفصل الرابع

المغول وبغداد

الفصل الخامس

ابن العلقمي والمؤرخون